

رواية
صالح مرسي

قاتلة

باردة الأعصاب



مكتبة فريق_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



(كلمة مهمة):

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود) للكتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قناة د (حازم مسعود)

اشترك بالقناة

قاتلة باردة الأعصاب

(رواية)

صالح مرسي

الجاسوسية.. لماذا؟!!

حقاً... لماذا الجاسوسية؟!!

سؤال طالما وجه إليّ... يحمل السؤال في حناياه علامات استفهام تعبر عن نفسها بوضوح أحياناً وفي أحيان أخرى تتسلل عبر الحوار مغلفة بدهشة حقيقية وغير مصنعة... كيف كان الانتقال من الحياة في البحر، مع البحارة والصيادين وهذا العالم المفتوح على مصراعيه... إلى عالم محاط بالغموض والسرية وما لا يدري الكثيرون عنه شيئاً؟!!

ويقيني أن السؤال... أيضاً، وفي كل الأحوال - كان يعبر عن تلك الرهبة التي تنتاب الناس عادة لا من الغموض الذي يغلف هذا العالم فحسب، وإنما عن ذلك الخوف الكامن من الخطر المائل دائماً!

الغريب في الأمر، أن السؤال كان يطرح نفسه عليّ أنا الآخر طرْحاً مُلْحاً. ولكن في صيغ مغايرة، فما من مرة انتهيت فيها من إحدى قصص الجاسوسية، إلا وكان قراري الذي كان يبدو لي نهائياً وغير قابل للتراجع!.. أن أكف عن الكتابة في هذا المجال... ذلك أن شوقي إلى القصة والرواية، خاصة في عالم البحر الرحيب، كان يتمثل لي وكأنه نوع من العذاب فرضته على نفسي وبارادتي وكأنني أدمنته!

كانت البداية - لا بد أن أكون صريحاً مستقيماً القصد- هي تلك الرغبة المحمومة لديّ في المزيد من المعرفة... وعندما التقيت لأول مرة بهذا العالم في عام 1974... وجدت نفسي أمام مناطق شاسعة من الحياة تبدو لي مثل الرُّبْع الخالي في تفكيري، مساحات بلا حدود يضرب فيها الفراغ والخواء مع رمال متحركة قد تغرقني أو تغرق غيري نتيجة الجهل... وجدت نفسي أمام عالم كامل له طقوسه وأعرافه وقوانينه الصارمة، هو عالم مواز لعالمنا الذي نعيش فيه، مواكب له، تكاد المواكبة أن تكون في كل صغيرة وكبيرة، فعزّ عليّ هذا «الجهل» المطبق الذي استشعرته حيال علم من العلوم... ذلك أنك في العلوم الأخرى، كالفضاء أو الذرة أو الهندسة أو الطب، تستطيع أن تقرأ وتعرف حتى القشور أو الخطوط العريضة دون التفاصيل فهذا يكفي... أما هنا، فلقد كان الظلام دامساً، وكان لا بد من مصباح ينير بعض جوانب الطريق!!

ظننت في البداية أن الأمر لن يأخذ مني سوى أسابيع معدودة، أعود بعدها إلى حياتي الطبيعية دونما قلق، بل بمزيد من الفهم لطبائع الأمور في عالمنا المعاصر... غير أنني في حقيقة الأمر كنت واهماً، فبعد أن كتبت مسلسلين إذاعيين، وجدت نفسي غارقاً في فيلم سينمائي أعطيته عنوان «الصعود إلى الهاوية»... وكانت تجربتي مع هذا الفيلم من أشق التجارب التي خضتها في حياتي على أكثر من مستوى... ذلك أنني كنت، كلما أوغلت في القصة، أجد نفسي في متاهة بعد الأخرى... وكان لا بد أن أتعلم، وقبل كل شيء أن أقرأ!

ولقد مثلت لي الكتب التي كانت شديدة الندرة، إن لم تكن معدومة في بلادنا، جانباً مدهشاً فوق أنه كان بالغ الأهمية، كما مثلت لي الحوارات وتجارب المخضرمين، جانباً لا يقل أهمية... وذلك في هذا الوقت الذي مضى عليه قرابة عشرين عاماً... لم أكن أعرف شيئاً عن هذا العالم المليء بالأسرار، وعن هذا العلم الشديد التركيب،

بل إنني - دون مبالغة- لم أكن أعرف الفرق بين أجهزة الأمن المختلفة... ولقد فتح شهيتي إلى المعرفة، أني وجدت الكتب التي تتحدث عن هذا العالم، عن تاريخه وأساليبه وقصص الرجال والنساء فيه وقضاياه، في تناول أي مواطن أوروبي يريد أن يتعلم أو يبحث... وهكذا أصبحت لي رحلاتي إلى الخارج كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كي أبتاع ما تستطيع ميزانيتي أن أبتاعه من كتب وقصص وأبحاث كانت ذات فائدة كبيرة لي.

غير أن نظرتي إلى الموضوع، مع كل قصة كنت أكتبها - ولكل قصة قصة صدق أو لا تصدق- كانت تتغير تدريجياً وبشكل غير محسوس... ذلك أني اكتشفت، أن ما من قصة من قصص الجاسوسية، إلا وهي تحوي تراجيديا إنسانية من طراز فريد... إن الإنسان في هذا العالم، سواء أكان جاسوساً أو رجل مخابرات، يحيا حياة بالغة الخطر، ومع الخطر تتوالد المآسي إلى حد يصل إلى مستوى التراجيديا الشكسبيرية دون مبالغة!

ولقد أدهشني الأمر في البداية... أدهشني أن كل الكُتَّاب الذين تناولوا هذا النوع من النشاط الإنساني، سواء أكان الموضوع تسجيلياً، أم أنه ضرب من الخيال مثلما الأمر في قصص الكاتب البريطاني الشهير «إيان فليمنج» مبدع شخصية «جيمس بوند»، كانوا يصبون كل اهتمامهم في عملية التجسس نفسها دون الإنسان... ربما لأن العملية تخطيط وحركة وفعل، تحوي بالضرورة كمّاً من الإثارة يشد الانتباه حتى يطغى على الإنسان ويطويه.

وهكذا وجدت نفسي منذ البداية، ودون قصد أو وعي، أهتم بالإنسان اهتماماً خاصاً... حدث هذا مثلاً في فيلم «الصعود إلى الهاوية»... فلقد استقرتني تلك الفتاة التي أطلقت عليها في الفيلم اسم «عبلة كامل»... ورحت أتساءل - وقد حصلت على ما استطعت الحصول عليه من معلومات- لماذا خانت هذه الفتاة وطنها؟!

إن خيانة الوطن شيء مخيف حقاً، لكنها في زمن الحرب تصبح شيئاً غير قابل للتصديق... ولقد يخطئ الإنسان التقدير في لحظة، وقد يضعف في لحظة، ولكن... أن يستمر في الخيانة، أن يفعلها ويمارسها بهذا القدر من برود الدم، أمر لا بد من التنقيب في أسبابه النفسية أو الاجتماعية أو العاطفية... ولقد ظلت قرابة عامين كاملين أكتب السيناريو... كتبت قرابة سبع أو ثماني مرات، وفي كل مرة، كان ينتابني هذا الإحساس الغامض بأن ثمة شيئاً ناقصاً هنا... وكنت إذا شاهدت فيلماً أجنبيّاً يعالج إحدى هذه القصص المذهلة التي وقعت، أرى فيه عملاً متكاملًا ومنطقيّاً وذا قوام واضح ومقنعاً... فرحت أعيد كتابة السيناريو، وأعدل، وأمزق في محاولة مضنية للوصول إلى أقرب ما يمكن من الاكتمال!

غير أني عندما شرعت في كتابة مسلسل «دموع في عيون وقحة» الذي اشتهر باسم «جمعة الشوان»، وكانت قرابة أربعة أعوام قد انقضت، كانت التجربة قد صقلت قدراتي، وكانت المعرفة قد أتاحت لي بقدر أكبر!

ولكن الأمر حُسم تماماً عندما شرعت في كتابة... رواية «الحفار» المستمدة من عملية قدرها أن تكون واحدة من عمليات المخابرات المرموقة... كنت الآن أعرف ما أريد، بالضبط، وتكاثرت المراجع فوق مكتبي، وخضت التجربة التي ساهمت في إرضاء الروائي الكامن في صدري وكان هذا كله، دليلاً أضاء لي الكثير من

الطريق عندما شرعت في كتابة «رأفت الهجان»، ومن بعده رواية «سامية فهمي»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سألتني مذيعة التليفزيون اللامعة «عزة الأترابي»، أثناء حوار معي، عن سر نجاح أعمالتي في عالم الجاسوسية، لم أتردد في القول، إن مواطن القوة والإثارة في مثل هذه العمليات تكمن في البحث عن الإنسان... ذلك أن الإنسان في هذه العمليات أو القصص، هو الوقود الذي يدفع مياه المرجل إلى الغليان كي تتطلق بخارًا ذا قوة جبارة... الإنسان هو الصانع حقًا، هو الدافع لا شك... لكنه في النهاية، خاسرًا كان أم منتصرًا، فهو الضحية!!

غير أن ثمة اكتشافًا آخر استوقفني ذات يوم.

تمثل لي هذا الاكتشاف في أن التراچيديا الإنسانية في قصص «الجاسوسات» تبدو أكثر حرارة وحدة إذا ما قارناها بقصص الجواسيس من الرجال... وعلى سبيل المثال...

فلقد كانت قصة «باندا ماكلويد»، التي أطلق عليها الأمريكيون اسم «زهرة الشمس»، هي المثال المتكامل لهذه الحقيقة... وإذا كانت «ماتا هاري» التي قامت بالتجسس على الفرنسيين لحساب الألمان إبان الحرب العالمية الأولى، هي أشهر جاسوسة في التاريخ، فإن القدر أبى إلا أن تمتد مخاطرتها - أو مأساتها بمعنى أدق - إلى ابنتها التي لم يكن هناك من يعلم عنها شيئًا سوى قلة قليلة من الناس... وكانت هذه الابنة هي «باندا ماكلويد» أو «زهرة الشمس»، والتي أقحمت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى هذا المجال دونما ذنب جنته، إلا لأنها ابنة «ماتا هاري»!

إن قصة هذه الفتاة، وصلت التراچيديا فيها إلى حد من الصعب تصديقه... ولقد قرأت قصتها - أو ما أتيج للآخرين أن يعرفوه عنها - عدة مرات، ودفعني هذا إلى العودة إلى الجذور، إلى قصة ماتا هاري عبر دوائر المعارف المختلفة، وكتاب يتيم عثرت عليه مصادفة في إحدى مكتبات لندن... ثم كان عليّ، لكي أعي حقيقة الموقف، أن أكتب عن طبيعة الاستعمار الهولندي لإندونيسيا حيث عاشت ماتا هاري رَدْحًا من الزمن وأنجبت هذه الفتاة ثم تركتها في رعاية «ساقى» بإحدى حانات «باتافيا» عاصمة جزيرة جاوة، والتي أصبح اسمها بعد الاستقلال «جاكارتا»...

ولقد كبرت الفتاة وتزوجت رجلًا هولنديًا أحبها حتى الجنون، لكنه مات فجأة تاركًا لها ثروة لا بأس بها... وعندما شبت الحرب العالمية الثانية، واجتاحت الجيوش اليابانية إندونيسيا، اقتحم حياتها من ادعى أنه قريبها، ثم أجبرها على التجسس لحساب اليابانيين، ثم التقت بضابط إندونيسي وقعت في حبه فتجسست لحساب المقاومة الإندونيسية على اليابانيين، ثم إذا ما انسحبت اليابان تجسست لحساب الثورة ضد الهولنديين، وانتصر الحلفاء فدفعها الأمريكيون للتجسس لحسابهم ضد الثورة الشيوعية في الصين، كان حبيبها الإندونيسي قد استشهد، فلم يعد هناك ما يربطها بالمكان، أي مكان، وجاء عليها وقت لم تكن تفعل شيئًا سوى التجسس حتى وهنت، وتعبت، وعندما قبض عليها في كوريا الشمالية - وقد انتقلت إلى كوريا بعد انتصار ماوتسي تونج - طلب منها أن تكمل المسيرة، وأن تعمل لحسابهم، لكنها لم

تستطع، كانت قد تعبت... فما كان من الكوريين إلا أن أعدموها ذات فجر وصلت فيه درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، رمياً بالرصاص!!

ومن جاسوسة إلى أخرى... من باندا ماكلويد إلى العملية «استيفانا» إلى «حكمت فهمي» إلى الكاميليا «تدن» البطلة التي لعبت دوراً هاماً في المقاومة الفرنسية أثناء احتلال النازي لفرنسا، والتي بلغ من قدرتها وحب الآخرين لها أن كلاً منهم صنع لها في قلبه تمثالاً... حتى إذا ما كانت ليلة. مجرد ليلة بدأت بعشاء في التاسعة، وانتهت مع خيوط الفجر الأولى، فإذا بهذه البطلة تتحول إلى جاسوسة، إلى خائنة تشي بزملائها وزميلاتها وتلاميذها الذين دربتهم وعلمتهم كي تلقي الجميع في محرقة النازي... فكيف؟!... ولماذا؟!!

سؤال استعصى على الحل... ألغاز وطلاسم تحتاج إلى جهد وتحليل كي نصل إلى مفتاح شفرتها!

ثم «إيلين»...

إيلين التي دربت لعشر سنوات، ولقنت وأرضعت كيف تكون فتاة إنجليزية هادئة دمة باردة الطبع... حتى إذا ما كانت لحظة، وقد برعت في عملها كجاسوسة، تتحول إلى سفاحة لا ترحم، تصدر الأمر بالقتل وكأنها ترشف رشفة من فنجان قهوتها، حتى وصل الأمر برؤسائها إلى سحبها من الميدان... كان تعطشها إلى الدم هذا، عسيراً على فهم الذين صنعوها.

فكيف؟!!

ولماذا؟!!

هذا ما سوف نحاول أن نفهمه عن «إيلين» أو «تانيا راديونسكا»... وهذا اسمها الحقيقي!

صالح مرسي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1 - قاتلة باردة الأعصاب! طراز فريد من الجواسيس..

الزمن: أحد شهور الشتاء المبكر لعام 1958.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، عندما صعدت إلى سطح مياه بحر الشمال، في مواجهة الساحل الشرقي للجزيرة البريطانية، غواصة غامضة.. ما إن استقرت في مكانها حتى فتح الباب المؤدي إلى الداخل في هدوء، كان يخرج منه اثنان من البحارة يحملان قاربًا مطويًا من مطاط ذي طبيعة خاصة... راح الرجلان يعملان بسرعة، كانا بطبيعة الحال مدربين، فسرعان ما نفذ الهواء إلى القارب، كي يأخذ شكله العادي، حتى إذا اطمأنا تمامًا، دفعاه إلى المياه.

كان المطلوب أن يتم كل شيء دون صوت، لا حركة ولا كلمة ولا ضوء... كان القمر محاقًا والظلام دامسًا رغم أن السماء كانت صافية وإن كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ما دون الصفر، وكانت تقارير رجال الأرصاد تقول إن الرياح في هذه المنطقة لن تكون قوية، كما أن التيارات البحرية تقود نحو الغرب... وكان هذا هو المطلوب تمامًا!!

ما إن أنزل القارب إلى المياه، حتى صعد من باب الغواصة شخصان أخذًا طريقهما فورًا إلى القارب... وسرعان ما انزلنا إليه، وأخذ القارب يبتعد عن الغواصة تجاه الشاطئ... كان أحد الشبحين شابًا في الثلاثين من عمره، مفتول العضلات جامد الملامح، وكان يجذف في حنكة ودراية المدرب، فلم تكن ضربات المجدافين تصنع صوتًا في هبوطهما إلى المياه أو صعودهما منها... أما الشبح الآخر، فكان لفتاة شقراء متوسطة الطول ذات عيين زرقاوين وبشرة مشربة بحمرة خفيفة، وجسد متناسق ساهمت في إبراز تناسقه بدلة الغوص السوداء التي كانت ترتديها... كانت نظرة واحدة إلى وجه الفتاة، تكفي لكي يحكم من يراها، مهما كانت خبرته بعلم الأجناس، أن الدماء الإنجليزية التي كانت تجري في عروقها، شديدة العطاء!!

مضت الدقائق والقارب يبتعد عن الغواصة حتى اختفى في الظلام المتكاثف، لكنه في نفس الوقت، كان يقترب من نقطة بعينها على الشاطئ... حتى إذا ما أصبح على بُعد مئات قليلة من الياردات، توقف الشاب عن التجديف، وراح يدقق البصر في الشاطئ الصخري... نظر في ساعة يده الفسفورية، وكانت تشير إلى الواحدة وخمس عشرة دقيقة... اختطف نظرة من الفتاة القابعة أمامه في صمت، ثم مضت ثوانٍ كأنها دهور، انبثق بعدها، من بين صخور الشاطئ، ضوء مصباح كهربائي لثلاث مرات متتالية، ثم توقف ثواني، ثم انبثق ضوء رابع، وكان هذا يكفي!

التفت الشاب نحو الفتاة وأشار نحو البقعة التي انبثق منها الضوء... التفتت الفتاة وانتظرت، هكذا كانت الأوامر الصارمة قد صدرت إليها... مضت دقيقتان، عاد بعدهما ضوء المصباح كي يلمع مرة، ثم يتوقف ثواني، ويعود إلى الإلماع ثلاث مرات متتالية، بعكس المرة الأولى... وكان هذا إيذانًا بأن تنزل الفتاة إلى المياه.. في هدوء رفعت يديها تحية للشباب، ثم انزلت إلى المياه وراحت تسبح نحو الشاطئ في هدوء.

ما إن ابتعدت الفتاة بضع ياردات حتى راح الزورق يبتعد عائداً إلى الغواصة مرة أخرى... أما الفتاة، فكانت تسيح في ثقة وعيناها مسمرتان على تلك البقعة من الشاطئ، كانت في انتظار الإشارة الثالثة والأخيرة، فهي على يقين من أن من ينتظرها على الشاطئ لا يراها... وعلى كل، فلقد كان الأمر هيناً بالنسبة إليها... كانت قد قامت بمثل هذه الرحلة في الشهور الأخيرة مرات ومرات، وفي كل مرة، كانت تجتاز الاختبار بنجاح كان يسعد أسانذتها ومدربيها!

عندما انبثقت الإشارة للمرة الثالثة، كانت قد اقتربت من الشاطئ تماماً. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى كانت تلتقي بمن كان في انتظارها، وكان رجلاً في الخامسة والأربعين من العمر، وشت قبضته التي اجتذبتها من المياه بقوة حقيقية يتمتع بها، دون كلمة أو تحية، وفي صمت راحت تتبعه وهما يتسلقان الصخور، ويقطعان المسافة إلى حيث كانت في انتظارهما سيارة إنجليزية الصنع. وسرعان ما انطلقت السيارة الغامضة تقطع الطريق السريع إلى إحدى قرى الشمال البريطاني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أحد يعرف على وجه اليقين اسم تلك المدينة الصغيرة التي ظهرت فيها «إيلين» في صبيحة اليوم التالي. ولكن التحريات التي أجريت بعد ذلك بثلاثة أعوام، أشارت جميعها إلى مدينة صغيرة خاملة في الشمال الشرقي للجزيرة البريطانية... لم يكن اسم الفتاة «إيلين» بطبيعة الحال، بل كان هذا هو الاسم الذي أعطي لها مهمتها تلك الغربية، كان اسمها الحقيقي «تانيا ماركوفنا راديونسكا» وكانت واحدة من خريجات مدرسة الجواسيس السوفييتية الشهيرة «جاترينا».

والحديث عن «جاترينا» قد يطول بعض الشيء... لكننا نستطيع القول إن اختيار الطلبة لهذه المدرسة الرهيبة، يخضع لمقاييس بالغة الدقة، وما إن يتم اختيارهم وهم لا يزالون في مدارج الصبا، حتى يعيشوا في هذه المدرسة لعشر سنوات كاملة لا يبرحونها إلى أي مكان... كانت المدرسة من الفخامة بحيث تنتسج لعدة مدن صغيرة تتأثرت في أرجائها، يفصل بينهما سياج أمني من المستحيل اختراقه... ذلك أن كل مدينة من هذه المدن، كانت نسخة طبق الأصل من حي من أحياء مدينة معروفة في البلاد الناطقة بالإنجليزية مثل كندا وأستراليا ونيوزيلاند وإنجلترا بطبيعة الحال... وكان على الطالب أو الطالبة، أن يعيش في هذه المدينة نفس الحياة التي يعيشها مواطنو هذه الدول، كان عليه أن يتحدث بلغتهم دون أية لغة أخرى، وأن يتقن لهجاتها ويتعامل بعملاتها ويأكل نفس الطعام ويدخن نفس السجائر... وعلى سبيل المثال: فإذا كانت المدينة التي سيعيش فيها الطالب هي لندن فإن المدينة التي يعيش فيها في المدرسة هي صورة طبق الأصل من حي من أحياء لندن، لا شيء فيها يمت إلى الاتحاد السوفييتي بصفة... البنائيات، الشوارع، إشارات المرور، المحلات، البضائع، البارات، دور السينما، المسارح، الأتوبيسات والتاكسيات... ولعشر سنوات كاملة يظل الطالب أو الطالبة في هذه المدينة، متدرجاً في العلوم الخاصة بهذه الدولة أو تلك، مع علوم الجاسوسية بطبيعة الحال... حتى إذا ما تخرج أصبح وكأنه مواطن من هذه الدولة أو المدينة، تعلم في مدارسها ويعرف كل شيء عن تاريخها وحضارتها وطباع أهلها التي تصبح مع الزمن طباعه!

ولذلك، فلم يكن من الصعب على «إيلين» أن تجد عملاً في تلك المدينة البريطانية الصغيرة... وكان لابد لها أن تبقى هنا لأسابيع قد تطول أو تقصر، حتى تتأقلم تماماً على «الجو الجديد» الذي ظهرت فيه كفتاة جاءت من الأنحاء المجاورة كي تبحث عن عمل، وكانت الفتاة - وهذا أمر طبيعي - مزودة بكل ما يلزمها من أوراق ومستندات.

إنها بريطانية مائة في المائة... وهي في حقيقة الأمر، لم تكن في حاجة إلى إثبات ذلك حتى إن كل الذين عرفوها وتعاملوا معها، كانوا يلهجون بالثناء عليها وعلى أدبها وطيبة قلبها ورقتها ودمائة خلقها... كانت، باختصار، إنجليزية حتى النخاع!

في تلك الفترة، لم يكن مطلوباً منها، بأي شكل من الأشكال، أن تمارس مهنتها التي من أجلها أرسلت إلى الجزر البريطانية... ذلك أن مهنتها الحقيقية لم تكن في إنجلترا كلها، بل في مكان آخر يبعد آلاف الأميال، ويفصله عن بلاد الإنجليز محيط كامل... كانت مهنتها في كندا.

لم تكن «إيلين» وحدها هي التي تحدد مدة بقائها في هذه المدينة أو في ذلك المكان... فالمعروف، أن هناك من كانوا يراقبونها بعناية، ويختبرونها، ويحتكون بها، ثم يقدمون تقاريرهم عن مدى تقدمها أو تعثرها في هذه المرحلة أو تلك... وكما كانت الفتاة متفوقة في «جاترينا»، جاءت التقارير تقول إنها مثالية إلى الحد الذي كان يدفع بعض زبائن المحل الذي كانت تعمل فيه، إلى شراء بضائع ليسوا في حاجة إليها، لمجرد أن يتبادلوا معها بعض الكلمات، أو يحظى أحدهم منها بابتسامة!

لكن الغريب في الأمر، أن كل الشباب الذين حضوا منها بموعد على العشاء أو لمشاهدة فيلم سينمائي، كانوا دائماً يولون الأدبار بعد مقابلتين أو ثلاث... فلقد كانت «إيلين» لفرط هدونها تبعث على الملل!!

وعندما أعلنت الفتاة عن عزمها النزوح إلى لندن، عزا البعض هذه الخطوة إلى فشلها في الحصول على صديق «بوي فرند» من أبناء المدينة... لكن أحداً منهم، لم يكن يعرف أن تلك كانت هي الخطوة التالية في رحلة هذه الجاسوسة الماهرة!

في لندن، وقع اختيارها على حي «كنج كروس» كي تنزل فيه... كانت الآن أكثر ثباتاً وأرسخ قدماً... فلقد كان لها الآن، ماض قريب وأصدقاء وصديقات ومعارف... ولقد استأجرت غرفة في بيت سيدة في الأربعين من عمرها اسمها «مسز هنتر»، وكما استطاعت أن تدخل قلب هذه السيدة الطيبة، فلقد غزت قلوب العديد من الفتيات اللواتي كن يلتقن بها في هذا العمل أو ذاك من تلك الأعمال التي كانت تلتحق بها!

كانت «إيلين» مرحة كل المرح... والآن، وهي تعيش في لندن بالفعل، وليس في حي من أحياء «جاترينا»، فلقد تفجرت مواهبها وثبتت أقدامها... وبدأ أن الحياة قد استقرت بها تماماً، لولا... ذلك الحظ السيئ الذي لازمها كلما التحقت بعمل فسرعان ما كانت تترك هذا العمل - لسبب أو لآخر!! - وتبحث عن غيره!

راحت الأيام تمضي بها وقد أصبحت إنجليزية أكثر من الإنجليزيات، ولذلك فلقد استغلت هذه الفتاة حياتها في لندن استغلالاً مثالياً كي تعرف كل شيء عن المدينة، وفي شوارعها وأحيائها ومتاحفها ومقاهيها ومسارحها ودور السينما فيها... وهي في نفس الوقت لم تكن تصد رغباً في دعوتها إلى العشاء، أو لتشاهد إحدى المسرحيات... كانت إذا ما التقت بفتى تراه مناسباً، تجاوبت معه شأن أي فتاة

إنجليزية في الخامسة والعشرين من عمرها تريد لحياتها أن تستقر ولذوقها أن يرسو... لكن الغريب في الأمر، أن كل الشباب الذين تعرفوا عليها، سرعان ما كانوا ينسحبون في هدوء وأدب، وكانت حجتهم جميعاً أن «إيلين» رغم جمالها فإنها هادئة أكثر من اللازم، ينسدل هدوءها مع علاقتها بالشباب بشكل خاص، حتى يشعر الشاب بالملل حقاً!

هل كانت هذه الجاسوسة المدربة بارعة!!

بالقطع كانت كذلك... بل إن براعتها أذهلت كل من احتك بها أو عرفها، مما دفع البعض إلى التعاطف معها تماماً عندما قررت أن تهجر العاصمة البريطانية، وتسعى لحياة أخرى في كندا!!

ومنذ البداية، عرف كل من صادقها أن لها خالة مريضة في مونتريال... وبين الحين والحين، كان يصلها بالفعل خطاب يحمل طوابع بريد كندية... وكانت الخالة المزعومة تشكو لابنة أختها من المرض والوحدة... حتى إذا ما تلقت «إيلين» الضوء الأخضر من موسكو، أعلنت أن وقت الرحيل قد أوفى كي تلحق بخالتها العزيزة قبل أن تودع دنياها!

وفي ليلة السفر أقامت الصديقات، بترحيب من «مسز هنتر» حفلاً اشتركن جميعاً فيه، لتوديع الصديقة التي سوف يفقدنها حقاً، وامتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل، وعندما حانت لحظة الوداع، كانت الدموع تملأ عيون الكثيرات من الصديقات!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شهر مارس عام 1959، وصلت «إيلين» إلى مدينة مونتريال.

كانت كل التقارير التي وصلت إلى رئاستها في موسكو، تجمع على أن هذه الفتاة خلقت لكي تصبح جاسوسة من طراز فريد... ذلك أن رقتها، ودمائة أخلاقها، وهدوء طباعها، تربط الناس بها... وكانت قدرتها على اكتساب ثقة الناس والأصدقاء، خير سلاح لها في مهمتها التي اقتربت بدايتها!... ذلك أن كل الحسابات التي أجراها الرؤساء في موسكو، تقول إنها - الآن - أصبحت جاهزة لأداء مهمتها، لكن نفس الحسابات أيضاً، كانت تقضي بأنه لا بد من البقاء في مدينة مونتريال لفترة من الزمان، قبل الانتقال إلى محطتها الأخيرة العاصمة الكندية أوتاوا.

وفي مونتريال، كما كان الأمر في لندن، كان لا بد لها من أن تصنع لنفسها تاريخاً... وكان هذا التاريخ جاهزاً بعد أن أصبحت بعض عناصره واقعاً يعرفه الكثيرون في لندن...

في البداية، وجدت «إيلين» وظيفة في مخبز... وفي هدوء وصبر، راحت تصنع لنفسها ذلك الإطار الاجتماعي الجديد... وهكذا، عرف الكثيرون ممن التقت بهم أو صادقهم حكاية خالتها المريضة التي أضافت لها الفتاة صفة جديدة هي «الثراء»، وهي في نفس الوقت، كانت تتعرف على المجتمع الكندي وتسبر غوره وتتلمس طباع أهله... وإذا كان عملها كبائعة في مخبز يضيف من محيط علاقتها، فلقد كانت هذه فرصة لأن تجوب مونتريال من أقصاها إلى أقصاها، تدرس وتنقصى وتتعلم،

حتى إذا ما حان الوقت للانتقال إلى أوتوا، أصبحت جاهزة للبدء في عملها فوراً ودون إبطاء.

ظلت «إيلين» في مونتريال قرابة ثلاثة أشهر، حتى إذا ما تلقت الضوء الأخضر، أعلنت أن خالتها العزيزة قد توفيت، وأنها تركت لها ثروة لا بأس بها، وأنها، من أجل هذا، قررت الانتقال إلى العاصمة... إن الثروة قد تكفيها شر الحاجة، لكنها لا يجب أن تعتمد على ما ورثته، ولا بد لها من البحث عن فرصة أنسب للعمل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن وصلت «إيلين» إلى أوتوا، حتى استأجرت مسكناً مناسباً وإن لم يكن باذخاً... وسرعان ما وجدت عملاً في أحد محلات بيع الملابس الداخلية للسيدات... وعندما تسلمت وظيفتها، ووصلت تلك الوثائق من مكتب محام مشهور عما ورثته من خالتها، حتى كانت الآن، وقد انقضى قرابة عامين منذ أن غادرت تلك الغواصة الغامضة أمام السواحل الشرقية للجزر البريطانية، جاهزة تماماً لأداء مهمتها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2 - قاتلة باردة الأعصاب!

الوصول إلى كندا..

لا أحد بالضبط يعرف شيئاً عن المهمة الرئيسية التي من أجلها أرسلت «إيلين» إلى كندا... ذلك أن نشاطها التجسسي بدا للذين راحوا يسعون وراءها، متسعاً، بل يكاد أن يكون شاملاً... قال واحد من هؤلاء الرجال الذين غرقوا حتى أنوفهم في التنقيب عن أثر لها... لقد بدت لي في لحظة، وكأنها تريد أن ترسل إلى موسكو كل ما كان يجري في كندا من نشاط... لقد كانت هذه الفتاة رهيبة بكل ما تحمل الكلمة من معنى!..

وعندما عثر الرجال على شاب من هؤلاء الذين صادقتهم لفترة ثم انسحبوا مبتعدين، قال الشاب:

«لم يكن فيها ما يعيب - كانت جميلة، كما أنها كانت جذابة أيضاً، ولكن... ما إن كنا نجلس منفردين حتى تتحول - دون سبب معروف - إلى دمية من الثلج، ولم يكن أمامي سوى الانسحاب!».

وبطبيعة الحال، فلقد كانت «إيلين» تتعمد هذا البرود وتتصنعه... ذلك أنها كانت تعرف كيف تجعل الشاب يرتبط بها، وحتى تجعله يولي الأدبار دون أن تثير الشكوك بافتعال مشاجرة أو خلاف، كانت قادرة على دفعه إلى الفرار تحت ستار البرود الإنجليزي الشهير!

وقال آخر: «لقد كانت أنثى بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لكنها فجأة كانت تتحول من إنسان إلى شيءٍ آخر...!».

ولذلك، وعندما وجدت في أوتوا تلك الوظيفة الصغيرة كبائعة في محل بيع الملابس الداخلية للسيدات، فلقد لفت نظرها - بعد بضعة أسابيع - أن شاباً في التاسعة عشرة من عمره، كان يتردد على نافذة عرض الملابس في الطريق، وأنه بين الحين والحين كان يختلس النظر إليها، ولم يكن صعباً عليها أن ترقبه من طرف خفي، وأن تدرك، في الوقت نفسه، أن هذا الشاب الصغير يهيم بها حباً... ولأنها كانت تكبره ببضع سنوات، فلقد تردد الشاب طويلاً في محاولة للتعرف عليها، بل لم يجرؤ على الاقتراب منها... وكان، إذا ما التقت نظرته بنظراتها، يفر مبتعداً في خجل من ارتكب خطأ لا يغتفر!!

غير أنها كان عليها أن تتيقن من أن هذا الشاب الصغير قد وقع في هواها حقاً وأنه ليس دسيسة يتظاهر بالحب حتى يسبر غورها ويساعد على كشف سرها... ولأنها كانت شديدة الثقة بنفسها، فلقد راحت تتحرك. وبالنسبة لهذا الفتى الصغير، فلقد ظلت تتحين الفرصة لكي توقع به، أو تتظاهر بأنه أوقعها في شباكه... حتى إذا كان في يوم، لمحته يقف على الطوار المقابل للمحل الذي تعمل فيه... كان وقت إغلاق المحل قد أرف، وكان الجو شديد البرودة في الخارج... ولقد أدركت «إيلين» في تلك الليلة، أن صاحبها الصغير هذا عاشق متيم حقاً، فلم يكن هذا أسلوب شاب يريد الاقتراب من فتاة يبغى أن يعرف عنها شيئاً... وعلى كل، فبعد انتهاء العمل غادرت المحل، وبدلاً من التوجه مباشرة إلى مسكنها كما كانت تفعل في غالب الليالي،

راحت تقطع الطريق إلى حانة صغيرة كانت قريبة، شأنها في ذلك شأن الكثيرين من العاملين والعاملات في محلات وسط المدينة!

في الحانة... كان الجو دافئاً... كما كان المكان مزدحمًا... وحتى ذلك الوقت، لم تكن موسكو قد أمدتها بما أو بمن يمكن أن يساعدها على أداء مهمتها، أو حتى بمن يستطيع نقل الرسائل لها أو منها... كان الأمر متروكًا لها في البداية حتى تؤسس هي شبكتها بأسلوبها وعلى أرض واقع راحت تدرسه في عناية وتؤدة... ولذلك، فلقد كان ما تطمح إليه «إيلين» في تلك المرحلة... أن تعرف من هو هذا الشاب الذي يظهر بشكل يكاد يكون منتظمًا أمام نافذة العرض الخاصة بالمحل... وكانت معه تلك الليلة، وهي في طريقها إلى الحانة، قد استطاعت أن ترصد خطواته وهو يتتبعها... وحتى، عندما دلفت إلى الحانة، وكانت كل الموائد مشغولة، لم يكن أمامها سوى أن تختار مكانًا إلى جوار الساقى تستطيع منه أن ترصد حركات الفتى إن كان قد وصل في تتبعه إياها إلى الحانة!

ما إن دلفت إلى الحانة، حتى خلعت معطفها، وأطلقت شعرها الذهبي في فوضى لفتت أنظار العديد من الشباب والرجال... ما إن استقرت في مكانها حتى أسرع إليها الساقى سائلًا إياها في ود عما تريد... طلبت مشروبًا ساخنًا، وجلست فوق المقعد العالي، وراحت عيناها تحاولان اختراق زجاج المحل إلى الطريق في الخارج، ولقد ابتسمت في رضا عندما شاهدت الفتى هناك، وكان مترددًا في اللحاق بها.

أدركت «إيلين» أن الفرصة أصبحت سانحة له كي يتقدم، ولقد تحقق ظنها، ما لبث الفتى أن اتخذ قراره داخل الحانة وهو يرتجف من البرد... التقت عيناه بعينيها فمنحته على الفور ابتسامة مشجعة فذهل... لكنه تقدم منها متظاهرًا بالبحث عن مكان، حتى إذا اقترب منها، تحركت حركة بدت عفوية وكأنها تفسح له المكان... ولقد شجعه هذا فنقدم منها مستأدنا في الوقوف إلى جوارها:

- هل تسمحين؟!

- أرجوك..

- نفس المشروب من فضلك!..

انصرف الساقى فقدم لها الشاب نفسه:

- جاك ريموند!..مدت إليه يدها في مبادرة طوته تمامًا

- إيلين اينمان!..

- بريطانية؟!..

قال هذا وهو يشد على يدها في حرارة، أجابت:

- لكني أرغب في البقاء معكم هنا!..

وهكذا تم التعارف... وهكذا قضيا ساعة وبعض الساعة تبادلًا فيها الحديث، فعرفت منه أنه يعمل كاتبًا في أحد المصانع، وأنه يأمل أن يكمل دراسته الجامعية، لكن عمله في المصنع يأخذ كل وقته... وهكذا راحت هي الأخرى تبثه شكواها وحظها العاثر في الوطن الأم، وأنه لولا خالتها التي توفيت لما استطاعت أن تهاجر إلى

كندا... ولقد كان هذا يكفي تمامًا في اللقاء الأول، حتى إذا ما استأذنت في الانصراف - سألتها:

- هل أراك مرة أخرى؟!..

قالت وهي تلوح له مبتعدة:

- بالتأكيد!..

ولقد التقى بها بعد ذلك مرتين، وكانت قد حاولت، من خلال أحد أصدقائها الذي تحول فيما بعد إلى عميل، أن تعرف شيئاً عن الفتى، وجاءتها الأنباء بأنه شاب مجتهد وإن كان رقيق الحال، وأن مشكلته وأمله في الحياة هو استكمال تعليمه الجامعي وإن كان طموحه في العمل لا يشجع رؤساءه على الاهتمام به... التقت به ذات مساء في نفس الحانة، وجلست إليه حول مائدة كانت خالية... حتى إذا حدث ما سهل لها خطواتها التالية.

كان ثمة مجموعة من الشباب يتحلقون حول مائدة في ركن من المكان، ولقد ألفتت «إيلين» أنظارهم منذ لحظة دخولها، ولم يكن صعباً عليها أن تلاحظ نظراتهم نحوها وهمساتهم التي كانت موقنة أنها تدور حولها... حتى إذا ما كانت لحظة، نهض أحدهم متجهاً نحوها، ورغم مظهر الشاب الذي ينبئ بالشر. فإنه اقترب منها في أدب، حياها فرمته بنظرة متعالية ولم ترد تحيته، سألتها إن كانت تقبل دعوته على شراب، فإذا بها تضع يدها فوق ذراع الفتى قائلة:

- لا بد أنك في حاجة إلى منظار طبي أيها الشاب!..

ظهر الارتباك على الشاب وتسمّر الفتى، لكنها أurdفت في ثبات:

- ألا ترى أنني في صحبة شاب دعاني إلى شراب؟!..

أحس الشاب أمام لهجتها المستقيمة بالارتباك، وفي الوقت الذي اشتعل فيه غضب الفتى وهم للدفاع عن صديقه، اعتذر الشاب وانصرف دون كلمة!

ما كان من «إيلين» - وقد اقتربت الآن من هدفها- إلا قلبت شفتها في ضيق قائلة:

- أخشى أن يضايقني أحد وأنا في طريقي إلى البيت!..

قالت هذا وهي تنظر في ساعة يدها، هتف الفتى في حماس:

- لا تخشي شيئاً، فلسوف أصحبك حتى باب البيت!..

ربتت على ذراعه في امتنان وهي تقول:

- يكفي أن تصحبني حتى أجد وسيلة للمواصلات!..

عندما همت بدفع حسابها، هتف الفتى:

- ألم تقولي لهذا الشاب أنني دعوتك؟!..

- ولكن... ..

قبل أن تتفوه بكلمة، دفع الفتى الحساب قائلاً:

- إنه ليسعدني حقاً أن أكون الداعي!..

وهكذا غادرت «إيلين» الحانة وهي تتأبط ذراع الفتى وكأنها تحتمي به، وصلت سعادة جاك ريموند إلى ذروتها وهو يسير إلى جوارها في الطريق، وعندما سألته

إن كان يستطع أن يمشي معها قليلاً، أجب بأنه يستطع أن يمشي معها إلى الشاطئ الغربي للقارة إن أردت، ضحكت لمجاملته ثم راحت تشكو له حياتها، فهي لا تجد فرصة للترريض، فعملها يأخذ كل وقتها، وحتى يومي الإجازة الأسبوعية لا تكاد تجد فيها وقتاً حتى لقراءة كتاب، فهي تتفقهما في تنظيف البيت وابتياح ما تحتاجه للأسبوع التالي... ولقد كانت سعادة الفتى تتزايد كلما ازدادت التصاقاً به وهما يسيران معاً من شارع إلى آخر، حتى إذا ما قالت له، وكان الأمر جاء بشكل عارض، إنها تعاني من عدم وصول الخطابات إليها من القارة - كانت تقصد إنجلترا بطبيعة الحال- وأنه يبدو أن عنوانها قد أصبح واحداً من طلاسماً أوتواوا... حتى انبرى الشاب عارضاً عليها في حماس أن تعطي أصدقاءها عنوانه هو وسوف ينقل إليها الخطابات في نفس يوم وصولها... ولم يكن الفتى المسكين يعرف، أن هذا هو كل ما تريده منه... سرعان ما أخرج ورقة وقلماً، كتب عنوانه، فرمته بنظرة امتنان جعلته يتبدد حباً... ولم ينس وهي تودعه أمام سيارة أجرة استوقفتها، أن تطبع على وجنته قبلة أطارت لبه، ثم همست:

- لست أدري كيف أشكرك، فلقد كانت ليلة رائعة!..

وهكذا تركت «إيلين» الفتى الكندي چاك ريموند ابن التسعة عشر من العمر، ضائعاً، مبدداً، غارقاً حتى أذنيه في حب لن ينال من ورائه سوى الوعود التي لن تتحقق أبداً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمثل الغالبية العظمى من سكان كندا قسمين من البشر... قسم ينتمي بالميراث والدم إلى بريطانيا العظمى، وقسم آخر ينتمي إلى فرنسائ... ولقد ارتبط كل قسم من هذين القسمين بالوطن «الأم» بكل شيء؛ باللغة والعادات والتقاليد والعواطف أيضاً... لذلك، فإن القسم الشمالي، خاصة مقاطعة كيويبيك، يتحدث اللغة الفرنسية، أما القسم الجنوبي، الملاصق للولايات المتحدة... فهو يتحدث اللغة الإنجليزية... وعلى كل، فلسوف يكتشف كل من يزور كندا، أن المواطن الكندي الأصيل، يتحدث اللغتين معاً بنفس السهولة والسلاسة... لكنه في نفس الوقت - ومهما كان انتماءه- يحمل في جوانحه حنيناً شديداً إلى القارة الأم التي جاء منها الرواد الأوائل الذين استعمروا هذا الجزء الشمالي من أمريكا الشمالية، واستوطنوه!

ولقد كان چاك ريموند، هذا الفتى الذي لا يتجاوز عمره التاسعة عشرة، من تلك السلالة التي جاء أسلافها من بريطانيا، من حيث جاءت «إيلين إيستمان» - هذا هو الاسم الذي اتخذته لنفسها منذ أن وطئت قدمها الأراضي الإنجليزية- ولذلك، فلقد اشتعل، لا الحب فقط في قلبه، ولكن الإحساس بالانتماء إلى الجذور أيضاً!!

غير أن جاسوسة مدربة مثل «إيلين» لم يكن يعنيه أن تجند موظفاً كتابياً في مصنع في عمر مثل چاك ريموند - نحن نعتقد أن هذا الاسم ليس هو الاسم الحقيقي لذلك الفتى، وأنه أعطي هذا الاسم لسبب أو لآخر- في شبكتها التي بدأت في تكوينها لسببين... السبب الأول أنه يشغل وظيفة ليست ذات أهمية بحيث يستطيع أن يمدها بمعلومات ذات فائدة... أما السبب الثاني، وهو الأهم، فإن أية محاولة منه لمعرفة شيء عن طبيعة عمل هذا المصنع وهو في موقعه هذا، كانت كفيلاً بأن تثير الشكوك من حوله وهذا ما لم تكن «إيلين» ترغب فيه بطبيعة الحال!

ولكن... هل تقف هاتان العقبتان في سبيل الاستعادة منه؟!!

هنا، تكمن عبقرية جاسوسة مثل «إيلين»!

ذلك أنها بعد بضعة أسابيع من وصولها إلى كندا، أرسلت إلى رئاستها في موسكو رسالة تقول فيها:

... .. تعرفت على فتى في التاسعة عشرة من عمره يعمل كاتبًا في مصنع كبير...
وعندما أخبرته أنني أضيع لعدم وصول بريدي من القارة - أوروبا - منتظمًا إلى
عنواني، عرض عليّ أن أعطي الأصدقاء عنوانه هناك، كي يرسلوني عليه، واعدًا
بايصال الخطابات إليّ في نفس يوم وصولها!..

وهكذا استطاعت «إيلين» أن تحصل على صندوق بريد مجاني، فوق أنه في نفس
الوقت، وهذا هو المهم في الأمر، صندوق آمن... فإن أحدًا لن يستطيع، في أي
ظرف يحدث في المستقبل، أن يتهمها بوصول خطابات كهذه التي كانت تصل إليها
مكتوبة بشفرة من الصعب حلها!

ومع كل...

فلقد كانت هذه الخطوة البسيطة إيذانًا بأن تتطلق ملكات هذه الفتاة، لتكشف عن وجه
لم يخطر ببال، حتى الذين صنعوها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3 - قاتلة باردة الأعصاب! شبكة مثالية للتجسس!

بدأت «إيلين» في تكوين شبكتها الخاصة بدأب لا يعرف الكلل... وعلى سبيل اليقين، فلقد كان زبائن المحل الذي كانت تعمل فيه، هم أول من كانت ترتبط بهم وتقيم معهم علاقات كانت تتطور بطبيعة الحال يوماً بعد يوم... إلى أن تضع يدها على نقطة ضعف هذا أو ذلك فتغذيها إذا ما كانت في حاجة إلى معلومات منه، حتى إذا ما ارتبط بها، وبدأ ييوح بأسرار عمله، كان هذا إيذاناً بأن العجلة، عجلة التجنيد ثم التجسس، بدأت تدور.

وفي حقيقة الأمر، وحتى اختفت «إيلين» من كندا فجأة وكأنها تبخرت، فإن أحداً لم يعرف على وجه اليقين، كم كان عدد أفراد شبكتها، فوق أن أحداً، بالتالي لم يعرف كل أفراد الشبكة... غير أن جواسيس الغرب في الاتحاد السوفياتي، كانوا يذكرون أن المعلومات التي كانت تصل من ذلك «العميل» في كندا إلى موسكو، كانت من الكثرة والوفرة بحيث أرضت الرؤساء هناك تماماً... غير أنه تبقى في حياة تلك الفتاة الغربية، هذه القسوة الكامنة تحت ذلك السطح البريء بلامحها وتصرفاتها معاً... ومن هنا، من هذه القسوة، استطاع البعض أن يعرفوا بعضاً ممن حاولت «إيلين» تجنيدهم، وتحويلهم من مواطنين شرفاء، إلى جواسيس!

والثابت تماماً، أن شهوراً قليلة قد انقضت، عندما انتهت «إيلين» من تكوين شبكة مثالية للتجسس... شبكة كانت تعتمد على هؤلاء الرجال الذين فتنهم جمالها ورقنتها وحسن تعاملها... بعضهم كان من زبائن المحل الذي كانت تعمل فيه، وكانت تعلم - على عكس ما يشاع- أن زبائن محلات بيع الملابس الداخلية للسيدات، أغلبهم من الأزواج والمحبين الذين يلجئون إلى مثل هذه المحلات لابتئاع هدايا لزوجاتهم أو صديقاتهم تعبيراً عن الحب... فكانت تساعدهم على الاختيار، وتتصحهم بابتئاع هذا أو ذلك من المعروضات دون أن تشعرهم بأي من أنواع الحرج، وبذلك، كانت تقيم معهم علاقات مودة كانت تتطور مع الأيام إلى صداقة... فإذا ما التقى بها أحدهم مصادفة - !!!- في حانة أو مطعم، كانت رقتها ودمايتها خير معين لهم على الإفضاء إليها بمتاعبهم في محاولة للتخفيف مما يعانونه...

.....

.....

قبل نهاية 1959، كانت ثمة خطوة هامة لا بد من اتخاذها.

كادت الشبكة المرجوة أن تكتمل، وبالتالي، فلقد كانت «إيلين» في حاجة لأن تكون حرة في حركتها... أهم ما في تلك الحركة هي تحديد مواعيدها مع عملائها، سواء أكانوا على دراية بأنهم عملاء، أم أنهم على غير دراية بالأمر... وكان هذا يتعارض تعارضاً مطلقاً مع عملها في ذلك المحل الذي كان ولا بد أن تلتزم بمواعيده!

حتى إذا ما كان يوم - أعلنت أنها قررت استثمار تلك الثروة التي ورثتها عن خالتها، في افتتاح محل خاص بها، لبيع الملابس الداخلية للسيدات!

وبالفعل... وقبل مضي أسابيع قليلة، وجدت «إيلين» محلاً مناسباً... ولأنها لم تكن تترك شيئاً للمصادفات، فلقد كلفت محامياً بأن يستأجر هذا المحل، ثم شرعت في تأثيثه... كانت الآن ذات دراية بهذا النوع من التجارة، فسرعان ما عقدت الصفقات وامتلاً المحل بالبضائع - وافتتح ذات يوم افتتاحاً لفت أنظار الكثيرين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث ذات يوم أن ذهبت إلى طبيب الأسنان كي يعالج لها ضرراً سبب لها ألماً مبرحة... فما كان من الطبيب - بعد أن كشف عليها - إلا أن قرر خلع الضرس في الحال، ولم تمنع هي، وكتب لها الطبيب روصة كان من بين الأدوية التي فيها، دواء مخفف للألم!

وكعادتها في الحرص، فلقد اختارت صيدلية بعيدة عن بيتها والمحل الذي تملكه وتديره في نفس الوقت... كان الوقت ظهراً ما إن دلفت إلى الصيدلية، حتى طالعها وجه غريب لشاب يميل لونه إلى السمرة، بينما كان شعره الأسود ينسدل على جبهته فيحيل الوجه إلى لوحة فنية، استطاعت بنظرتها النافذة أن تكتشف أن وراء تلك الملامح الدقيقة مأساة حقيقية.

على الفور، انبثقت في ذهنها فكرة جهنمية لم تتردد في تنفيذها... فما إن تسلمت الدواء، حتى راحت تسأل الصيدلي الشاب عن هذا المسكن للألم، وهل هو كافٍ لتسكين الألم بعد زوال أثر البنج، بدت «إيلين» رقيقة هشة ترتجف رعباً وخوفاً من الألم إذا ما داهمها في المساء... لكن الصيدلي الشاب أخذ يطمئنها ويهون عليها الأمر... رمته بنظرة امتنان وهي تتصرف... لكنها عندما همت بمغادرة الصيدلية، التقفت نحو الشاب الذي كان يتتبعها بنظرات فيها إعجاب صارخ لم يسبق له مثيل...

لقد راحت تشرح للصيدلي كيف أن الدواء لم يخفف الألم، ولولا أنه حدد لها بصراحة عدد ما يجب أن تتناوله من أقراص لابتلعت كل ما كان لديها... لم يكن ممكناً للشاب أن يعطيها دواء آخر إلا بروصته من الطبيب، لكنها قالت له إنها حاولت الاتصال بطبيبها وفشلت. وإنها مرتبطة بعمل لا يرحم صاحبه، ومواعيد الطبيب تختلف مع مواعيد العمل... في توسل سألته إن كان في مقدوره أن يعطيها دواء آخر ولم يكن هذا ممكناً بأي حال من الأحوال. إن القوانين شديدة الصرامة، وهو لو فعل هذا واكتشف أمره، فلسوف تسبب له متاعب هو في غنى عنها!..

أثناء الحوار الهامس بينهما، ومع تردد الصيدلي وخوفه البادي، استشفت أن ثمة شيئاً يكتمه هذا الشاب ويخفيه في نفس الوقت... تظاهرت بالاستسلام، وضعت يدها فوق صدغها وانصرفت مترنحة... ما كادت تصل إلى باب الصيدلية، حتى استوقفها ذلك الشاب الأسمر، وأعطاه دواء آخر متوسلاً إليها ألا تذكر هذا لأحد مهما كان الأمر... كان الرعب الذي استولى على الصيدلي كفيلاً بأن يؤكد لها أن في حياته سرّاً يحرص على إخفائه... وكان أن اتخذت قراراً بأن تعرف هذا السر... فهي، عن طريقه، سوف تسيطر عليه سيطرة قد تفيدها إذا ما احتاجت ذات يوم لمساعدته!

وهكذا انصرفت في ذات اليوم تحمل الدواء الجديد، الذي لم تكن في حاجة إليه!

.....

.....

ثمة شيء يلفت النظر في هذه الجاسوسة الغربية الأطوار، فلقد كانت تستطيع أن توفر الوقت والجهد الذي بذلته مع الفتى چاك ريموند حتى تجد لنفسها صندوق بريد آمناً، وبعيداً تماماً عن تلك الصناديق التقليدية التي يصطنعها الجواسيس في كل أنحاء العالم... لم تكن تريد شيئاً جاهزاً، أو وسيلة يمدّها بها الآخرون... كانت تريد شبكة ذات «خلق» من نوع خاص بها... وهكذا، أخذت تغزل تلك العلاقة مع الفتى الصغير السن لأسابيع، حتى حققت ما كانت تصبو إليه وتحصل على صندوق بريد مبنكر.

تماماً كما حدث مع هذا الصيدلي المسكين الذي وقع في براثنها، فأمدّها بوسائل الموت التي كان من الممكن أن تحصل عليها من موسكو بمجرد الطلب... لكنها فضلت أن تسلك طريقاً خاصاً حتى تبتعد تماماً عن أية علاقة من بعيد أو قريب مع السفارة السوڤيتية في كندا!

وعلى كل الأحوال، فلقد مضت أيام طالت بعض الشيء منذ أن حصلت على هذا الدواء من الصيدلي الشاب، وكانت موقنة تمام اليقين أنه يحترق شوقاً لرؤيتها، حتى إذا ما أحست بأن هذا يكفي، طلبته بالتليفون، كان صوتها الآن ناعماً، هادئاً، هامساً... راحت تبثه امتنانها العميق لأن الدواء الذي أمدّها به كان له مفعول السحر، اعتذرت لعدم اتصالها به طوال الأيام التي انقضت لأسباب فوق إرادتها... لم تذكر الأسباب قطعاً فلقد كانت تعرف أن الغموض يزيد من حرارة الحب واللهفة. قالت وهي تنهي المكالمة:

- مرة أخرى، لست أدري كيف أشكرك!..

جاءها الرد متلهفاً:

- بأن تقبلي دعوتي على العشاء!..

تظاهرت بالتردد، لكنها وافقت في النهاية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت السهرة ممتعة إلى أقصى حد.

وكان العشاء في ذلك المطعم القائم على تل خارج المدينة فاخراً، دفع فيه الصيدلي الشاب ما لا طاقة له به، لكنه كان سعيداً!

في ذلك اللقاء الأول قصت عليه قصة حياتها، نفس القصة التي روتها لكل من التقى بها... حياتها في لندن، فشلها في العثور على عمل مناسب، خالتها المريضة، نزوحها إلى كندا... ثم أضافت إلى كل هذا، ما تعانیه الآن من الوحدة في مدينة متجهمة مثل أوتاوا...

وعندما دعاها الصيدلي الشاب إلى الرقص على أضواء الشموع التي امتلأ بها المطعم، أراحت رأسها فوق كتفه وهي تهمس له بأن هذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بالأمان منذ وصلت إلى كندا... غير أنه - في تلك الليلة - لم يذكر عن نفسه شيئاً، وهي بالتالي، لم تسأله ولم تطالبه بأن يقص عليها حياته، وإن كانت قد تيقنت أن في حياته ذلك السر الرهيب الذي يخشى البوح به...

وعندما حان وقت الفراق سألتها:

- ألن نلتقي مرة أخرى؟!..

- بالتأكيد!..

هكذا قالت وهي تلقي بنفسها في سيارة أجرة، تاركة الشاب وحيداً في الطريق وقد قارب الليل على أن ينتصف، وهو لا يدري أو يعرف عنها شيئاً سوى ما قصته عليه.

ولم يكن فرناندو كورتيز - هكذا كان اسم الصيدلي الشاب- هو شاغلها الوحيد بطبيعة الحال، كانت هناك شبكتها الذهبية تلك التي بدأت تؤتي ثمارها، ولقد راحت المعلومات تتوالى على موسكو في تزايد يوماً بعد يوم... كانت هناك معلومات عن المصانع، والإدارات الحكومية، ومراسلات وزارة الخارجية السرية، والمشروعات العملاقة، والشركات المشتركة مع الولايات المتحدة، وتلك المتعددة الجنسيات... ووسط كل هذا النشاط، لم تنس صديقها الصيدلي، وهكذا راحت تتصل به بين الحين والحين دون لقاء، حتى إذا ما حدث والتقيا غمرته بذلك الحنان والدفء اللذين كانا يلهبان عواطفه... كانت، منذ أن عرفت اسمه، مدركة تمام الإدراك أنه من إحدى دول أمريكا الجنوبية... ربما كان من كوبا وقد هرب من حكم كاسترو... وبذلك يكون قد وقع في براثن من سوف تجعله في خدمة كاسترو الذي هرب منه... وربما كان من بيرو، حيث الصراع بين الاشتراكيين وحكومة الجيش محتدم منذ اغتيال اللينلي والاستيلاء على الحكم...

وهنا، سوف تعطيه الفرصة كي يعبر عن إيمانه بالاشتراكية عملياً... ربما... ربما... ربما...

وعلى كل الأحوال فلقد كانت الأيام، وكانت اللهفة في صوت فرناندو تحتدم مرة بعد أخرى، حتى إذا ما طلبته ذات مساء في التليفون، صاح بها قائلاً: إنه في حاجة لأن يراها مهما كلفها الأمر... ولأنها لم تكن من هذا النوع الذي تؤثر فيه العواطف مهما كانت مشبوبة، فلقد راحت تتمتع، وفي أعماقها إحساس بالغضب لأنه لم يقص عليها شيئاً من حياته رغم أنها بادرت به بقصة حياتها المزيفة تلك... لذلك فعندما التقت به بعد أيام أضناه فيها الشوق، بادرها قائلاً بصوت مرتجف:

«إيلين»... لا بد لي من الاعتراف بأنني أصبحت مجنوناً بحبك!..

ها هي الدماء الحارة لأهل أمريكا الجنوبية تدفع مرجل الحب إلى الغليان... وفي مواجهة هذا الحب المشبوب، كان لا بد من أسلوب آخر للتعامل... فهي تعرف أن الفتاة التي تواجه مثل هذا الحب، عليها أن تتصرف تصرفاً يتناسب معه تناسباً يدفع إلى لسان الفتى بالحقيقة دون أن تطلب... كانا قد التقيا في ذلك المطعم الكائن فوق تل خارج أوتاوا... وكان كل منهما قد ذهب وحده... وهي عندما وصلت بعد دقائق من الموعد، وجدته في حالة من القلق يرثى لها... وعندما قال فرناندو كورتيز ما قال، كان يرتجف حقاً، وكان صاحب الوجه... مدت يدها كي تمسك بيده في رفق فوجدت أصابعه في برودة الثلج، عاد يهتف:

«إيلين»... ..

قاطعته وهي تضع أصابعها فوق شفثيه، قالت:

- «أعرف فرناندو... أعرف حقاً أنك تحبني!»..

«فهل تحبينني؟!»

رفعت إليه عينين يسيل منها العتاب صارخة، قالت:

- «كيف لي أن أحب من لا أعرف عنه شيئاً؟!»..

وكان في هذا الكفاية... فلقد اندفع لاهتاً، وكأنه يلقي بنفسه في أتون ملتهب، قال:

- «إن اسمي ليس فرناندو كورتيز!»..

بدت الدهشة على ملامحها ممتزجة برعب أضاعه، فقال:

- «لا تسيئي الظن بي... أقسم لك إني إنسان شريف!»..

وكان هو هذه المرة الذي أمسك بيدها وكأنه يتوكأ عليها، وراح يقص عليها ما لم يخطر ببالها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4 - قاتلة باردة الأعصاب!

حقيقة فرناندو كورتيز..

ما إن فاه فرناندو كورتيز بما فاه به، حتى أحست «إيلين» بغبطة شديدة... ذلك أن حاستها الغريبة تلك التي قادتها إلى ذلك الفتى من أمريكا الجنوبية، تصدق مرة أخرى... ولقد أدركت على الفور أنه يحمل سرًا سوف يسهل عليها مهمتها، ويجعله طوع بنانها في كل ما تريد وتبغي!

قال فرناندو وهو يرتجف انفعالاً، إن أكثر ما شده إليها وربطه بها هو أنها - رغم لونه- لم تسأله من أية دولة هو، وإن كان هذا قد أدهشه إلى حد ما، إلا أن هذا قد كشف له عن معدن إنساني قلما يتوافر لفتاة بيضاء... لزم الصمت بعد ذلك لثوان ثم زفر زفرة حارة وهو يقول: إنه يحمل جواز سفر مكسيكيًا وإن كان في الأصل من كولومبيا!

ركنت «إيلين» إلى الصمت ولم تفه بحرف واحد وتركته على سجيته... كان كل ما فعلته أنها راحت تربت على يده التي أمسكت بيدها وكأنه يتوكأ عليها بين الحين والحين مشجعة، بينما كانت عيناها تبتانه نظرات جعلت الكلمات تسيل من بين شفثيه في تدفق لا يعرف التوقف... قال إنه تخرج في كلية الدواء - الصيدلة- في بوجوتا عاصمة كولومبيا، وكان تخصصه الذي عشقه في فرع السموم.

... «لقد اكتشفت مبكرًا «إيلين» أن بعض السموم ترياق يقضي على الكثير من الأمراض... لكن المذهل في الأمر أن الناس يلجئون إليها كمادة للقتل لا للشفاء!»..

أضاف «فرناندو» - لم يكن قد ذكر لها حتى الآن اسمه الحقيقي- أن هذا الفرع من العلوم ليس سرًا... بل لقد توصل بعض العلماء الذين وقعوا تحت سيطرة عصابات المخدرات في كولومبيا إلى تخليق أنواع مذهلة منها... ولقد وجد عملاً بعد تخرجه مباشرة... لكن شهورًا قليلة ما كادت تمضي، حتى اتصل به رجال المافيا طالبين منه نوعًا من تلك السموم التي لا تترك أثرًا في جثة من تقضي عليه... ولقد كان موقفًا أشد ما يكون اليقين، إنهم لم يكونوا في حاجة إلى هذا النوع حقًا، وإنهم يستطيعون الحصول عليه بسهولة وفي أي وقت يشاءون، لكنهم في حقيقة الأمر كانوا راغبين في السيطرة عليه حتى يوظفوه معهم وقتما يحتاجون إليه... ولقد امتلأ الشاب رعبًا في البداية رغم أن ما حدث كان، بالنسبة للكثيرين في كولومبيا التي تسيطر عليها عصابات المخدرات أكثر من سيطرة الحكومة، طبيعيًا للغاية... حاول المقاومة بالرغم من يقينه أن المقاومة لن تجدي، هذا فوق أن كل المحيطين به من أهل وأصدقاء لم يروا في الأمر شيئًا غريبًا... وهكذا، لم يكن أمامه سوى الاستسلام فاستسلم ولم تمض سوى أسابيع قليلة، حتى تحقق ظنه، فما أن أمدهم بما طلبوا، حتى بدعوا يطالبونه بمهام بدت له مخيفة، فلقد نقل ذات مرة شحنة من المخدرات من بوجوتا إلى مطار سري يبعد عن العاصمة بضع مئات من الأميال، وحمل مرة أخرى شحنة صغيرة إلى المطار الرئيسي، واحتفظ مرة ثالثة بكميات وضعوها كأمانة عنده حتى أتى من أخذاها... وهو في كل مرة، كان يقع تحت طائلة القانون... كان يعرف عن يقين مدى التدمير الذي تحدثه هذه المخدرات فيمن يتعاطونها، كما

كان يعرف مدى القسوة التي يتعامل بها رجال هذه العصابات مع من يعجز عن الدفع أو يعصي الأمر... و... و...

... .. «الغريب في الأمر أنني كنت أشعر بتأنيب الضمير رغم أن كل من حولي كانوا يفعلون ما أفعل وربما أكثر... لم يكن فيما أقوم به شيئاً خارجاً عن المؤلف في كولومبيا فالجميع، حتى الحكام، كانوا في خدمة هؤلاء الأباطرة... ولقد حاولت، حاولت إقناع نفسي بالاستمرار فيما أنا فيه، دون جدوى!»..

حتى إذا ما كان يوم، لم يكن أمامه من سبيل سوى الهرب!

وهكذا لجأ إلى صديق له كان يعمل في إدارة حكومية لها علاقة بالجوازات... كان مؤمناً أشد اليقين - هكذا قال لها- إن صديقه هذا يعمل لحساب المافيا أيضاً، فلقد كان من هذا النوع الذي يتأقلم بسرعة مع أي جو يحبط به تجنباً للمتاعب، كما أن هذا الصديق بالذات كان سبباً من أسباب قبوله في البداية للتعاون مع تلك العصابات... وعلى كل فلم يكن الأمر سهلاً، لكنه بعد إلحاح دام لأسابيع طالت... وافق على أن يمد الشاب بجواز سفر باسم «فرناندو كورتيز»، ولقد فعل هذا بعد أن أقسم «فرناندو» بأغلظ الأيمان بأنه، حتى لو سقط في أيديهم، فلن ييوح بمن أمده بالجواز مهما لاقى من تعذيب!

- ولكن «فرناندو» لم تخبرني حتى الآن باسمك الحقيقي!.

هكذا فاجأته «إيلين» بالسؤال على حين غرة وفي براءة طفلة كان لا بد وأن تسأل السؤال، كانت مدركة لمدى خوفه من ذكر اسمه الحقيقي الذي غاب عنه لسنوات، ولهذا، فلقد سألته السؤال وهي ترقبه بعناية شديدة، فإذا به يرتج، يتلفت حوله كمن أصيب برعب هائل... لزمته «إيلين» الصمت، وطلبت له مشروباً آخر، حتى إذا هدأت نفسه وهم بالحديث، همست في حنان:

- لا عليك... إن اسم «فرناندو» يعجبني!

- ليس الأمر كما... ..

قاطعته في رقة:

- لا بد أنك عانيت طويلاً يا حبيبي!.

ما إن سمع «فرناندو» كلمة يا حبيبي حتى انهار ما تبقى لديه من تردد، فإذا به يقول:

- إن اسمي الحقيقي هو «إيمانويل سييرا»!.

انقضت بضع دقائق سادها الصمت تماماً، كانت «إيلين» - الآن- مدركة أنها سيطرت عليه سيطرة تامة، ولهذا فلقد تظاهرت بنسيان الأمر، قالت:

- أكاد أموت من الجوع!..

وهكذا طلبا العشاء، وهكذا راحت تدير دفة الحديث إلى أشياء أخرى، وهكذا كانت هي التي طلبت منه مرافقتها، حتى إن هدأت نفسه تماماً وأحس بالاطمئنان يحل محل القلق قال:

- ألا تريدان أن أكمل لك القصة؟!.

- أخشى أن يتقل ذلك عليك!..

قد يكون ما تبقى منها أغرب مما سمعته حتى الآن!
رمته بابتسامة صائبة، أمسكت بيده، فراح يحكي!

.....

.....

استطاع «فرناندو كورتيز» أو «إيمانويل سييرا» أن يهرب من كولومبيا عبر الحدود إلى بنما... كان يعرف وجهته تمامًا، ففي المكسيك، كان ثمة عم ثري له يعيش منذ سنوات، وهو، في كنف عمه، وباسمه الجديد، سوف يجد الحماية دون شك... ولقد انقضت أسابيع وهو ينتقل من مدينة إلى أخرى ومن عمل إلى عمل، حتى إذا وصل إلى المكسيك والتقى بعمه، كانت الصدمة به مروعة!

ما إن قص «فرناندو» على عمه قصته حتى أصيب الرجل بفزع رهيب... احتد الحوار بينهما فنهض «فرناندو» معتذرًا وهمّ بالانصراف... غير أن بقية من حنان دفعت الرجل إلى استيقائه، اكتشف «فرناندو» أن عمه أكثر فزعًا منه، فلقد طلب منه ألا يخبر مخلوقًا عن حقيقته... حمد له أنه غير اسمه واستخرج جواز سفر بالاسم الجديد، ألحقه بوظيفة صغيرة في قصره ونبه عليه أن يتعامل معه أمام الناس كموظف عنده... قال له العم وقد هدا روعه قليلًا: إن عصابات المخدرات في كولومبيا تمتد أذرعها إلى جميع أنحاء القارة إن لم يكن إلى جميع أنحاء العالم... طلب منه أن يلزم الحذر حتى يدبر له وسيلة أخرى للهروب بعيدًا عن أمريكا الجنوبية كلها، ولم يكن أمام الشاب إلا أن يرضخ تمامًا لأوامر عمه!

انقضت ثلاثة أشهر لان فيها قلب العم رويدًا رويدًا، وكان في بعض الأحيان يطلب من ابن أخيه طلبات تبدو غريبة... طلب منه ذات مساء أن يخلق شاربه ويطيل شعره قائلًا: «إن خير وسيلة للتتكر هي أبسطها!»... ثم تأمل ابن أخيه قليلًا وأضاف: «إنك لو فعلت فلسوف تبدو مكسيكيًا من سلالة الهنود الحمر!»... ثم طلب منه مرة أخرى وقد طال شعره بعض الشيء أن يأتيه ببعض الصور، وذات يوم أمده ببعض المال وطلب منه أن يبتاع ملابس تليق بشاب على درجة من اليسر... حتى إذا كانت ليلة، انصرف الخدام والموظفون وأوت زوجة العم إلى فراشها، استدعى الرجل ابن أخيه، كان المساء حارًا. وكانا يجلسان في ركن من شرفة القصر بعيدًا عن العيون، قدم له شرابًا وطلب منه أن يشاركه طعام العشاء، ثم ما لبث وقد انتصف الليل أن قدم لـ «فرناندو» جواز سفر مكسيكيًا باسم «فرناندو كورتيز» قائلًا: «من حسن الحظ أن الاسم الذي وقع اختيارك عليه شائع في المكسيك!»... مع جواز السفر ثمة مظروف به وثيقة من مدرسة الدواء - كلية الصيدلة- في المكسيك تثبت أن «فرناندو» أنهى تعليمه فيها... بعد ذلك أعطاه خطابًا لصديق له في كندا قال فيه إن «فرناندو» ابن لصديق ثري فقد ثروته ومات في حادث، وإن الشاب لم يعد قادرًا على البقاء في المكسيك بعد أن أصبح وحيدًا... وفوق كل هذا، أمده العم بالمال اللازم له لموافقة السلطات الكندية له على الهجرة إلى كندا، طالبًا منه بأن يبدأ في إجراءات الهجرة في السفارة الكندية... عندما هم «فرناندو» بأن يشكر عمه تغيرت لهجة الرجل وهو يقول:

- «سوف تخرج الآن من القصر «إيمانويل» لكيلا تعود إليه أبدًا!»...

ذهل «فرناندو» وهو يحملق في عمه الذي أردف:

- «إنك إن عدت مرة أخرى فسوف تكون العواقب وخيمة!»...

كان الأمر واضحًا، وكان التهديد سافرًا!.

ورحل «فرناندو» إلى كندا، واستقر في أوتاوا منذ ثلاث سنوات...

ولم يكن الصيدلي المسكين يعلم، وهو ينهي مأساته، أنه إنما كان يستجير من الرمضاء بالنار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال «فرناندو» بعد أكثر من ثلاث سنوات، وهو يقص على المحقق الذي توصل إليه قصته مع «إيلين»... بعد أن أخذ وعدًا صارمًا بكتمان سره - إن ثمة أمورًا دفعته دفعا إلى الارتقاء في أحضانها... كان أولها أنه شعر بأنها ليست فتاة عنصرية، وأن لونه لا يشكل بالنسبة إليها أية مشكلة... وأضاف أن كثيرًا من الفتيات البيض يتظاهرن بعدم العنصرية... وأن البشر بشر مهما تعددت ألوان جلودهم، غير أنه كان يكتشف بسرعة، أن العنصرية كامنة في دماهن حتى وإن تظاهرن بغير ذلك... أما الأمر الثاني، فهو إحساسه الغريب بعد أن أمعن التفكير، أن عمه كان بشكل أو بآخر يعمل لحساب رجال العصابات، كانت ثمة أمور تجري في القصر بين الحين والحين، بدت له مريبة إلى حد كبير، وأن عمه، عندما طلب منه عدم العودة إلى القصر مرة أخرى، إنما كان يدافع عن نفسه... لقد دفعته عاطفته إلى مساعدته حقًا، لكن ارتباطه بهؤلاء الناس، كان من القوة بحيث دفعه إلى توجيه هذا الإنذار إليه... ثم تساءل «فرناندو» هل كان عمه يستطيع أن يأتي بالوثيقة المزورة وجواز السفر، دون أن يكون على علاقة بقوى هائلة ساعدته على هذا؟!!

وهكذا جاءت «إيلين» إلى حياته وظهرت فيها، كي تمثل له زورق نجاة من الوحدة والخوف معًا، زيادة على أنه شعر شعورًا مريحًا تمامًا بعد أن أفضى إليها بسرره الدفين... قال إن هذا ما كان يشعر به يقينًا في تلك الليلة التي أفضى فيها بسرره وهما في طريق العودة، كان يقود السيارة الصغيرة التي يمتلكها، وكانت هي تضع رأسها فوق كتفه، وكان الأمل الذي راوده طويلًا منذ أن تعرف عليها قد تحقق. فكيف لا يقع في حبها، بل إنه يشعر حتى تلك اللحظات التي كان يُسأل فيها وقد اختفت «إيلين» أنها لا تزال ذلك الملاك الذي هبط عليه من السماء كي ينتشله مما كان فيه!

وفي حقيقة الأمر، كانت هذه هي براعة تلك الجاسوسة الرهيبة، فكل الذين التقت بهم، ودفعتهم إلى خدمة أغراضها، لم تؤذهم، ولم تقلب لهم الوجه الآخر، بل لم تضغط عليهم في لحظة... إن كل الذين أجهدوا عقولهم فيما فعلته هذه الفتاة، ومحاولة معرفة أسلوبها في التفكير وإدارة شبكة تجسسها، وجدوا أنفسهم أمام حقيقة بالغة البساطة، تلك الحقيقة التي يستعملها كل جاسوس للوصول إلى ما يريد، وهي أن تستعمل التهديد بكشف سره إن لم ينفذ ما تأمره به، لكنها أبدًا لم تفعل، بل إن «فرناندو» على وجه التحديد، ثار عندما سُئل إن كانت قد وجهت إليه تهديدًا من أي نوع... توصل هؤلاء الذين راحوا يحفرون وراءها، إلى أن أسلوبها المنفرد هذا، كان هو سر نجاحها المذهل!

وعلى كل، فلقد طال الصمت بينهما فترة حتى سألها وقد وضعت رأسها فوق كتفه:

- «إيلين»... هل نمت؟!». .
- هزت رأسها إيجاباً ودون أن ترد فضحك، وعاد يهمس:
- «ألا أعرف رأيك فيما قصصت عليك؟!»
- رفعت الآن رأسها نحوه، رمته بنظرة حاملة وهي تسأل:
- «هل تريد أن تعرف حقاً؟!»
- انتفض هاتفاً:
- «بالتأكيد».
- اعتدلت في جلستها، نظرت إليه ملياً، ثم طبعت فوق وجنته قبلة أشعلت النار في صدره:
- «هذا هو رأيي!!».
- قالت هذا وهي تعود برأسها إلى كتفه مرة أخرى متممة:
- «والآن... دعني أغفو قليلاً فأنا لم أعرف طعم النوم منذ ليلتين!»
- «هل عاودتك آلام الأسنان مرة أخرى؟!».
- «كلا!».
- «إذاً فما السبب في عدم نومك؟!».
- «سوانسون!».
- «سوانسون؟!».
- هكذا تساءل في دهشة فهزت رأسها إيجابياً. عاد يهتف:
- «ومن هو سوانسون هذا؟!».
- ضحكت... ولزمت الصمت. عاد «فرناندو» أو «إيمانويل» يتساءل في إلحاح ممزوج بخوف عنيف:
- «من هو سوانسون «إيلين»؟!».
- «صديق يحرمني النوم طوال الليل، فهو لا يكف عن الحركة!».
- لزم «فرناندو» الصمت وكان قلبه يخفق، همت جالسة وهي تقول في مرح:
- «والغريب أن الحركة لا تحلو له إلا إذا نمت وانتظمت أنفاسي!».
- انقبض قلب «فرناندو»... عاود ذلك الإحساس المرير بالعنصرية من الفتيات ذوات البشرة البيضاء قال:
- «ما الذي تقصدينه بالله عليك؟!».
- «هل تغار إيمانويل؟!».
- ما إن نادته باسمه الحقيقي حتى ارتجف، هتف:
- «لا... أليس من حقي أن أغار؟!».
- وكان ما قالتها «إيلين»، أبعد ما يكون عن ذهنه، وأبعد ما يكون عن الخيال أيضاً!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5 - قاتلة باردة الأعصاب!

مصرع سوانسون!

قال فرناندو كورتيز أو إيمانويل سييرا، إن «إيلين» في تلك الليلة راحت تضحك وكأنها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها اكتشفت عالم الحب الوردي فجأة، قالت له إنها سعيدة كل السعادة لأنه يغار عليها... اعتدلت في جلستها على المقعد المجاور والتفتت ناحيته ثم أردفت وكأنها تشكو، إنها كانت تظن أن بني وطنها من شباب الإنجليز هم أكثر الشباب بروداً في العالم، لكنها اكتشفت منذ وصلت إلى كندا، أن شباب كندا أكثر بروداً من الشباب الإنجليزي... أضافت أنها سعيدة لا لأنه يحبها فقط، ولكن لأنه استطاع أن يبثها ذلك الدفء الذي افتقدته طوال العمر!!

والذي لا شك فيه أن «إيلين ويستمان» كانت تضرب بحذق على وتر بالغ الحساسية لدى هذا الشاب الكولومبي الأسمر، ذلك أنه بالقطع كان يعاني وحدة قاتلة منذ جاء إلى كندا... قال للمحقق الذي كان يستمع إليه مندهشاً ومعجباً في نفس الوقت بأداء تلك الفتاة- إنه أحس في تلك الليلة بأنه تخلص من عبء ثقيل... لا لأنه باح بسره إلى «إيلين» فقط، ولكن لأن الأمل الذي راوده منذ أن تعرف عليها قد تحقق فجأة فبدأ له الأمر كله وكأنه حلم غير قابل للتصديق!

في تلك الليلة، وعلى غير العادة، راحت «إيلين» تتحدث وتثرثر في كل موضوع بعيداً عما كان يتحدث فيه وكأنها نسيت الأمر برمته... وكلما حاول «فرناندو» العودة إلى موضوع صديقها سوانسون هذا الذي يؤرقها طوال الليل، هربت من الأمر إلى الحديث عن العواطف والحب فتيقن الفتى أنها وقعت في غرامه إلى الحد الذي ملأه بالسعادة... حتى إذا ما كانت لحظة أراد أن يحسم فيها الأمر، سألها:

- ألا تريدين الحديث عن سوانسون؟!.

ضحكت في خجل وكأنه أحكم الحصار حولها، فسألته بدورها:

- هل تريد الحديث عن غريمك؟!.

- فليكن غريمي إيلين... فليكن غريمي ولكن من هو ومتى تعرفت عليه وإلى أي مدى وصلت علاقتك به؟!.

هدأت الفتاة قليلاً، انكشمت في جلستها، لزمت الصمت لثوان قالت بعدها.

- إذن فاعلم أيها الشاب أن غريمك ليس سوى فأر صغير تسلل إلى البيت من حيث لا أدري!.

ذهل «فرناندو» ولكن السعادة اجتاحتها حقاً، هتف:

- ولماذا لا تحاولين اصطيداه؟!.

- هل جننت؟!.

- وماذا في هذا؟!.

- ماذا؟!... رباه... إني أكره السجون، فكيف أسجن مخلوقاً بريئاً كل ذنبه أنه، ولد فأراً؟!.

أسرته رقتها كما أسره ذلك المنطق الذي لا يحمله سوى ذوي النفوس الشفافة، لكنه سأل:

- ولماذا لم تخبريني؟!..

ضحكت الآن مثل طفلة، هتفت في مرح:

- هل تنوي منازلته؟!..

- لا... بل أنوي القضاء عليه!..

دفعته في رفق مازحة:

- وهل تظن أنني قادرة على رؤية فأر يحتضر؟!..

- لسوف يموت دون احتضار!..

- إنك تهزل أيها الشاب!..

- أنا لا أهزل... سوف أمدك بنوع من السموم تكفي قطرة منه لكي تقتل رجلاً في خمس ثوان!..

رتمته بنظرة شك وقد بدت الدهشة في عينيها صارخة، فأردف مماًزحاً:

- وحتى لو اكتشفت الشرطة جثة هذا الفأر، فلن يجدوا فيها أي أثر لهذا السم!..

لم تجب... فقط، وضعت رأسها من جديد فوق كتفه، أغمضت عينيها... فلقد كان هذا بالضبط ما تسعى إليه!!

.....

.....

ما الذي كانت هذه الفتاة تفكر فيه تماماً؟!..

سؤال من الصعب الإجابة عنه، فمن المحال أن يعرف المرء، في ظروف كتلك التي وجد فيها «إيمانويل سييرا» أو «فرناندو كورتيز»، المدى البعيد الذي كانت تفكر فيه «إيلين إيستمان»... ذلك أن الشبكة كانت، حتى ذلك الوقت، لا تزال في طور التكوين... حقاً كانت هناك شبكة محدودة، وكان هناك تجسس، ومعلومات تتسرب إلى الاتحاد السوفيتي، كما كانت هناك تكاليفات تصل إليها عبر تلك الخطابات المرسلة إلى ذلك الفتى البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، والذي ظلت علاقته بها طوال مدة إقامتها في كندا دون انفصام... كل هذا كان قائماً حقاً، لكنه لم يكن قد تشكل وثبت بشكل يدفعها لأن تنطلق في مهمتها التي أوصلتها إلى ما كشف عن هوايتها تلك الغربية في قتل أي إنسان يعترض طريقها!

وهكذا وجد المحقق الذي جلس إلى «فرناندو كورتيز»... نفسه أمام عقلية غريبة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، عقلية نافذة ومتحجمة - هذا هو تعبيره - ثم أضاف: كيف يمكن لشباب في مثل ظروف «فرناندو» أن يقاوم بعد ذلك أي طلب تطلبه «إيلين»، حتى ولو لم ينل منها ولو قبلة واحدة؟!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد هذا اللقاء اختفت «إيلين»... كان «فرناندو» يعرف مكان إقامتها بالقطع، كما أنه كان يعرف أين المحل الذي كانت تملكه وتديره... لكنه لم يجرؤ على الاتصال

بها... فلقد طلبت منه ذات مرة، لظروف خاصة، ألا يتصل بها إلا إذا اتصلت هي به، وهو - عاطفياً- كان لابد له أن يطيع، غير أنه - عملياً- لم يكن يملك وقد أعطاها كل أسرارها، سوى الطاعة، والطاعة العمياء!!

كان بطبيعة الحال قد جهز السم الذي وعد بها، وهو سم متطور غير هذا الذي كان يمد به عصابات المخدرات في كولومبيا - كانت خبرته الآن قد تراكت، كما أن هوايته لهذا النوع من علوم الدواء قد ازدادت... وعلى كل، فلقد جهز السم، وجلس في الانتظار!!... حتى إذا ما اتصلت به ذات يوم والتقيا، هتف في احتجاج:

- إيلين... أين كنت طوال تلك الأيام؟!..

كان وجهها مكفهراً، وملامحها تنبئ عما يعكر خواطرها، طلبت منه ألا يلح في السؤال... قالت إنها ليلة أن كانا معاً، عادت كي تجد في انتظارها عدداً من المشاكل لا بأس به، وأن هذه المشاكل قد استغرقتها تماماً طوال الفترة الماضية.

رفعت إليه عينين حزينتين، سألتها إن كان يستطيع أن يقدم لها يد المساعدة، فهزت رأسها نفيًا، حاول أن يعرف شيئاً عما يكرها عبثاً... كانا يجلسان في صمت وهما يحتسيان فنجانين من القهوة السوداء، وكانت تبدو عصبية بعض الشيء لا تكاد تستقر على حال، ما لبثت أن نهضت قبل أن تنتهي من قهوتها وهي تتمتم:

- لابد من الانصراف إيمانويل!..

- ألم تنسى شيئاً؟!..

رتمته بنظرة تائهة وكأنها نسيت أمر سوانسون برمته، أخرج من جيبه زجاجة صغيرة بها سائل أبيض:

- هذا دواء مستر سوانسون!..

ابتسمت وكانت ابتسامة شاحبة، تناولت منه زجاجة السم بلا مبالاة واضحة، همس:

- حذار يا حبيبتى، إن قطرة واحدة، واحدة فقط، فوق قطعة من الجبن، كفيلة بأن تقتل رجلاً لا فأراً!!..

وضعت الزجاجة المحكمة في حقيبة يدها، فأردف محذراً:

- إيلين... أنا لا أهزل!..

سألته في إشفاق:

- هل أنت واثق من أنه لن يعانني؟!..

اجتاحته عاطفة جياشة، هتف مرتجف الصوت:

- كم أنت رقيقة يا حبيبتى!..

رتمته بنظرة شكر وانصرفت!..

.....

.....

قال أحد المخضرمين في هذا الحقل عندما استمع إلى ما حدث: «إن هذه هي ذروة العبقرية في أداء تلك الفتاة... فهي لم تطلب السم، بل هو الذي قدمه إليها، وعندما تناولته، بدت وكأن الأمر لا يعينها!!».

بعد أسابيع كانت «إيلين» قد انتهت تمامًا من تكوين شبكتها المثالية، ولكن، لأنها لا تريد أن تترك شيئاً للمصادفات أو الظروف، فلقد استقر رأيها أن تطلب من موسكو، ما يمكن أن نطلق عليه «فريق الحماية»!

قال أحد المتخصصين في شؤون الاتحاد السوفياتي، إن الروس كانوا دائماً يعتبرون كندا، باباً خلفياً للولايات المتحدة... ففي كندا تقوم بعض الصناعات المساعدة للصناعات الثقيلة، ومثل هذه الصناعات، تشير بالضرورة إلى ما يمكن أن يتم هنالك إذا ما تعذرت الأمور على المعرفة... ولذلك، فلقد كانت هذه الجاسوسة المتميزة، في حاجة إلى مجموعة صغيرة من هؤلاء الذين يأتمرون بأمرها دون سؤال أو مناقشة... مجموعة من الأفراد، يتميزون بملكات خاصة، قد تحتاج إليها هذه الفتاة إذا ما اضطرها الأمر إلى العنف بكل صوره.

ولقد استغرقت المناقشات في موسكو بعض الوقت... كان الطلب في حد ذاته خطيراً... ذلك أن استعمال العنف في غير محله، وبأسلوب بالغ الدقة، كفيل بكشف أمر الشبكة، أو على الأقل، في بعث الشكوك إلى عقول هؤلاء الذين يتربصون بالجواسيس في دولة مثل كندا... غير أن كل التقارير، بل كل الإنجازات، وكم المعلومات التي أمدتهم بها «إيلين» كانت كفيلة بأن تقضي على كل اعتراض للفكرة... خاصة، أن أحداً لم يتصور، بل لم يخطر بباله، أن «إيلين» سوف تلجأ إلى العنف... فلا المعرفة الشخصية بها، ولا الدراسات النفسية التي وضعت تحتها أثناء وجودها في جاتزينا، كانت تشير بأي حال من الأحوال، إلى نزعة الإيذاء أو القتل... وعلى هذا، فلقد جاءت الموافقة أخيراً، والكل على يقين كامل بأن هذه الفتاة، لن تلجأ للعنف إلا للضرورة القصوى، وعندما تتعرض الشبكة إلى خطر محقق!

بعد أسابيع اتصل بها، بوسائل بالغة السرية طبعاً، عامل من عمال الميناء في مونتريال... ثم شاب يعمل في ناد رياضي في أوتاوا، وكان هذا الشاب - على وجه التحديد- أحد أبطال رياضة الاسكواش المرموقين في كندا، كما اتصلت بها سيدة تعمل في مغسلة عامة، وكان آخر الذين اتصلوا بها طبيب يشغل منصباً في إحدى المستشفيات!

كان المفروض ألا يلتقي هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض، بل ألا يعرف أحدهم الآخر مهما كان الأمر إلا إذا سمحت «إيلين» بهذا... وحتى إذا ما التقوا، لم يكن مسموحاً بأن يعرف أحدهم اسم الآخر أو وظيفته أو عنوانه... وهكذا استطاعت هذه الفتاة الغربية، أن تيرهن مرة أخرى على قدرتها الفائقة على التنظيم، وما هي إلا أيام، حتى أصبح لديها فريق كامل للقتل يعمل تحت إمرتها كمجموعة، دون أن يلتقي أحدهم بالآخر أو يعرف عنه شيئاً!

كان المحل الذي افتتحته «إيلين» - وقد انقضت بضعة أشهر- قد نال شهرة لا بأس بها... وكثر عدد الزبائن نتيجة للأسلوب الرفيع الذي اتبعته هذه الفتاة في إدارته... فما من عميل أو عميلة كان يدخل المحل، إلا ويشعر بعد دقائق أنه أصبح مالكاً له لا مجرد عميل يبتاع ما يبغى ثم ينصرف إلى حال سبيله... كان عدد العاملات في المحل قليلاً، لكن «إيلين» كانت دائماً هناك، ترصد العملاء والعميلات بعين يقظة،

حتى إذا كان يوم ، دخلت إلى المحل إحدى العميلات، وكانت ترغب في شراء نوع معين من الملابس الداخلية... ومنذ اللحظات الأولى، أدركت الفتاة بفطرتها الفاحصة، أن هذه السيدة تعاني أزمة خاصة، ولأنها كانت تبدو، من نظرتها وملابسها وتصرفاتها، من طبقة خاصة، فلقد تولت «إيلين» الأمر بنفسها!

كانت السيدة في الخامسة والأربعين من عمرها، لم تكن جميلة وإن كانت مليحة... فرغم السنوات، فإن هيئتها كانت تشي بتلك الملاحه الغابرة، والتي كانت بالقطع جزءاً من جاذبيتها.

ما إن تبادلت «إيلين» معها بعض الكلمات، حتى اكتشفت من لهجتها أنها من أصل ألماني... على الفور، برزت قرون الاستشعار لديها، فأعطت السيدة قدرًا أكبر من اهتمامها... فراحت تساعد، بل تدلها على أنواع معينة من الملابس الداخلية كانت كفيلة بأن تجذب أنظار زوجها... وسرعان ما استجابت هذه السيدة للإغراء، فأسلمت قيادتها تمامًا لـ «إيلين» التي راحت تستدرجها في الحديث، حتى عرفت أنها تستشعر من زوجها بعض الفتور في الفترة الأخيرة، وعندما قبلت دعوة «إيلين» إلى فنجان قهوة في مكتبها الصغير، وقد انتهت من ابتياع ما أرادت، حتى راحت تشكو لها همها!

عرفت «إيلين» أن «الهيترتس» - زوج السيدة- يعمل كمهندس كهربائي في مصنع للكيمياويات، وأن الرجل قد تقلد، منذ بضعة أشهر، مركزًا مرموقًا في المصنع، بعد أن أثبت جدارة في تطوير العمل بالمصنع، واستخدام الطاقة الكهربائية بأساليب مبتكرة... كان واضحًا كل الوضوح أن فراو هيترتس غارقة في حبها لزوجها حتى أذنيها، فلقد راحت تحكي بحنان بالغ، كيف كان يسهر الليل في محاولة لتطوير العمل في أحد المفاعلات الكهربائية لاستتباط مواد كيميائية بعينها... حتى إذا نجح في أبحاثه، تقلد منصبه ذلك الجديد... غير أن الأمر تطور بعد ذلك تطورًا غير محمود، فلقد لاحظت فراو هيترتس - وكان اسمها الأول جروتروود- أن زوجها لم يعد يهتم بما كان يهتم به من قبل ذلك... وفي البداية، فلقد عزت الأمر إلى انهماكه في وظيفته الجديدة... غير أنها اكتشفت مع الأيام، أن السر يكمن في سكرتيرته الجميلة التي تصغره بعشرين عامًا كاملة، وأنها بذلت معه كل جهد ممكن دون فائدة تذكر.

وفي الحقيقة، فلقد كانت ابتسامه «إيلين» ورقتها وتفهمها لمشكلة هذه السيدة البائسة، مثل بلسم يشفي الجراح، فلقد راحت تطيب خاطر السيدة جروتروود، وتتصحها بتغيير نوع العطر الذي تستعمله، بل لقد حضنتها على تغيير تسريحة شعرها، قالت إن مثل هذه الأمور تحدث عادة بعد مضي فترة معينة من الزواج، وأن كل ما عليها أن تفعله، أهم من الملابس والعطور وتصفيف الشعر، أن تستعيد ثقها بنفسها... ذلك أن جمالها الكامن، أقوى بكثير من جمال أية سكرتيرة!!

غادرت السيدة هيترتس محل «إيلين» راضية تمامًا... خرجت سعيدة دون أن تدري أن «إيلين» في نفس اليوم، أرسلت برقية عاجلة إلى موسكو تستعلم فيها عن مهندس كهربائي مقيم في كندا ويعمل في مصنع للكيمياويات، يحمل اسم «فريدريك هيترتس»، وإن كانت تظن، أن الاسم ليس حقيقيًا، وأن وراءه سرًا لا بد من معرفته!

بعد بضعة أسابيع لم تطل كثيرًا، وصل إلى «إيلين» تقرير واف عن هذا المهندس...
الذي كان - لحظه التعس- بداية الطريق الذي شقته «إيلين» نحو العنف، وكان
طريقًا ملطخًا بالدماء حقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6 - قاتلة باردة الأعصاب! محاصرة الهرهينرتش!

لم يكن إرسال «إيلين ويستمان»، أو «تانيا راديونسكا» من قبل المخابرات السوفياتية إلى كندا اعتبارًا بطبيعة الحال... ذلك أن الشعب الكندي كان، ولا يزال، يضم مهاجرين من جنسيات عديدة، حقًا كانت الحكومة الكندية في البداية تدقق كثيرًا في طلبات الهجرة وماضي المهاجرين وجنسياتهم، لكن اتساع رقعة الأراضي هناك، والحاجة الشديدة إلى الأيدي العاملة، جعلت الحكومة الكندية تتنازل كثيرًا وتغض الطرف عن شروطها الصارمة الخاصة بجنسية المهاجر وربما ماضيه... ولذلك، فلقد كان من الضروري أن يضم الشعب الكندي الكثيرين ممن لهم ماض يريدون نسيانه أو التخلص منه.

من أجل هذا، كانت «إيلين» تبحث دائمًا عن له ماض، ذلك أن تجنيدهم لحساب موسكو، سوف يكون أهون عليهم من كشف هذا الماضي الذي قد يؤدي إلى طردهم من البلاد!

وعلى كل الأحوال فإن هذه الفتاة الغربية لم تضيع وقتًا، فقبل أن يصل التقرير الخاص بالمهندس الكهربائي فريدريك هينرتش من موسكو، كانت قد جمعت قدرًا لا بأس به من المعلومات عن مصنع الكيماويات الذي يعمل فيه... لم تكن المعلومات التي حصلت عليها وافية تمامًا، وإن كانت تشير بشكل ما، إلى تجارب سرية كانت تتم في قسم خاص من هذا المصنع حول بعض الأسلحة الكيماوية التي كانت لاتزال تحت التجربة، ولقد جعلتها هذه الأنباء تطير فرحًا، كانت هذه هي المرة الأولى التي ينمو إلى علمها أن ثمة أسلحة كيماوية تجرى عليها التجارب في كندا، وكان لابد لها أولاً أن تطير الخبر إلى موسكو، ثم تعكف بعد ذلك على استكمال هذه المعلومات الخاصة بالمصنع... وبعد ذلك كان عليها أن تعرف كل شيء عن سكرتيرة الهرهينرتش التي أكدت لها التقارير أنه أصبح يرأس ذلك الفريق الفني في هذا القسم السري بالمصنع!

ما إن علمت موسكو بالخبر حتى وصل إلى «إيلين» تكليف من الرؤساء هناك، بتكثيف البحث حول هذا المصنع ومعرفة كل شيء عما يدور في هذا القسم بالذات. مع تشديد صارم بالحرص الشديد... ذلك أن مثل هذه المصانع عادة ما توضع تحت حماية أمنية صارمة!

.....

.....

كانت مساحة العمل أمامها واسعة، فقسمت الأمر إلى ثلاث شعب راحت تعمل ليل نهار وفي سرية مطلقة بطبيعة الحال... كانت الشعبة الأولى خاصة بالمصنع نفسه، والثابت، أن وثائق سرية قد صدرت وسلمت إلى «إيلين» التي أرسلتها بدورها إلى موسكو، لكن هذه الوثائق لم تشبع فهمها لمعرفة ما كان يدور في هذا القسم السري بالذات، غير أنها علمت في نفس الوقت، أن كل ما يتعلق بهذا القسم، لا يعرف حقيقته سوى ثلاثة من بينهم الهرهينرتش نفسه!

وهكذا ركزت في المرحلة الثانية على معرفة كل شيء عن تلك السكرتيرة!
كان أول ما لفت نظرها في هذه الفتاة التي كانت في الثلاثين من عمرها هو الاسم،
كان اسمها لويز ماك كورميك، وهو اسم بدا لها بريطانياً... ولقد أكدت لها التقارير
التي راحت تندفق عليها صدق حدسها!

عرفت أنها هاجرت من بريطانيا منذ حوالي عشر سنوات، وتنقلت في بعض
الأعمال حتى استقر بها الأمر كسكرتيرة في أحد مصانع الأدوية... وكان أن التقت
أثناء حفل أقامته إحدى صديقاتها، بشاب أمريكي كان يعمل في إحدى الشركات
المشتركة اسمه چاك براندون، وسرعان ما توطدت العلاقة بينها وبين السيد
«براندون» الذي كان يكبرها بخمس سنوات، وما هي إلا بضعة أشهر، وكان هذا
منذ خمس أو ست سنوات، حتى أعلننا خطبتهما أثناء حفل أقيم في أحد نوادي أوتوا
الليالية بمناسبة عيد ميلاد صديق مشترك... بعد مضي عام وبعض العام، كان على
السيد «براندون» أن يعود إلى الولايات المتحدة بعد أن انتهت مهمته في كندا...
وهكذا ودعها على أن تلحق به بعد أن تستقر له الأمور في الوطن، ولقد انقضت
أسابيع كانت تتصل به هاتفياً بين الحين والحين، وكان هو، من ناحيته، وكما سألته
عن موعد رحيلها واللاحق به، يؤجل الأمر لسبب أو لآخر... وبعد مرور خمسة
أشهر أحست «لويز» أن في الأمر ما يريب، حدث هذا عندما طلبته ذات يوم في
البيت فجاءها الجواب من رجل لم يذكر لها اسمه، بأن «براندون» قد انتقل إلى
مسكن آخر، وعندما طلبته في العمل مرات لم تجده، لكنهم قالوا لها ذات يوم إنه
ترك العمل في الشركة وانتقل إلى عمل آخر لكنه لم يترك عنوانه!..

لم تطق «لويز» صبراً، وقررت أن تطير إلى الولايات المتحدة لتكتشف الأمر
بنفسها بعد أن حصلت على إجازة لمدة أسبوع، لكنها غابت هناك لأكثر من ثلاثة
شهور، اختفت فيها تماماً مما اضطر أصحاب العمل إلى فصلها... وعندما عادت،
قال لها كل من كان يعرفها إنها عادت إنساناً آخر... كانت قد أصبحت منطوية على
نفسها، ساهمة دائماً، قليلة الكلام وقد غادرها مرحها الذي اشتهرت به بين الأصدقاء
والصديقات... وعبثاً حاول البعض معرفة شيء عما حدث فلقد لزمتم الصمت
تماماً، وكان كل ما قالته لإحدى صديقاتها ذات ليلة: «لقد كنت حمقاء!!»... غير أن
بعض الشائعات تناثرت بين الأصدقاء مؤداها، أنها اكتشفت في الولايات المتحدة أن
«براندون» متزوج وله أسرة، لكن أحداً لم يذكر كيف توصلت إلى معلومة كهذه!

بدأت لويز ماك كورميك في البحث عن عمل آخر حتى وجدت عملاً في هذا
المصنع الذي تعمل فيه بعد انتظار طال لأسابيع استنفدت كل مدخراتها... استأجرت
منزلاً متواضعاً في أطراف المدينة، ولم يعد أحد يراها في المحلات العادية أو في
رحلات نهاية الأسبوع مع الأصدقاء والصديقات... ولقد وجدت «إيلين» نفسها أمام
لغز يبحث عن حل، غير أن كل ما كان يعينها في ذلك الوقت هو: كيف تعيش هذه
الفتاة!..

دلت التحريات التي قام بها عملاء «إيلين» أن «الهرهينرتش» كان يزور «لويز»
بالفعل بين الحين والحين في بيتها المتواضع هذا، وأن ثمة علاقة قد نمت بين
الاثنتين خلال الشهور التي انقضت، وأن البشر قد عاود الفتاة مرة أخرى، وشوهدت
عدة مرات وهي تحتسي المشروبات مع مجموعة الأصدقاء والصديقات القدامى

وقد عادت إليها نضارتها وكأنها نسيت تمامًا خيبة أملها مع «براندون» الأمريكي... وفي المرات القليلة التي سُئلت فيها عن سبب تلك السعادة لم يحظ أحدهم بجواب... وهكذا، لم يعد أمام «إيلين» سوى مراقبة الفتاة بدقة وانتظار ما قد يجد من أمور أو معلومات!

في نفس الوقت، كانت زوجة الهرهينرتش دائمة الاتصال بـ «إيلين» هاتفياً وقد تغيرت نغمة صوتها وجنحت إلى السعادة والمرح... حتى كان يوم - وكان هذا بعد بضعة أسابيع من زيارتها الأولى لمحل «إيلين» - فاجأت صديقتها الجديدة بالزيارة دون موعد مسبق... ولم تكن الزيارة هذه المرة لايتياع المزيد من الملابس الداخلية، ولكن فقط كي تراها وتحنسي معها فنجائاً من القهوة.

كانت جروتروود هينرتش الآن قد استردت ثقتها بنفسها وعادت إليها نضارتها واستعادت مرحها المفقود فبدت أصغر من عمرها الحقيقي بكثير... ولقد قالت فراو هينرتش فيما بعد: إنها كانت تشعر بامتنان شديد حيال هذه الفتاة التي تصغرها كثيراً، لكنها استطاعت أن تساعد وتساندها في استعادة زوجها مرة أخرى... وقبل أن تتصرف - ولم تكن الزيارة قد استغرقت أكثر من خمس عشرة دقيقة - قالت لـ «إيلين» إنها سوف تقيم عشاء لمجموعة من الأصدقاء في نهاية الأسبوع، وأنه يسعدها لو أنها قبلت الدعوة لحضور هذا العشاء...

فكرت «إيلين» بسرعة، كان هذا هو غاية مرادها، وها هي الزوجة تفسح الطريق أمامها كي تلتقي بـ «فريدريك هينرتش» وجهاً لوجه... غير أنها تظاهرت بالأسف وهي تعذر للسيدة هينرتش قائلة إنها مرتبطة في نهاية الأسبوع بموعد مع صديق، ولم يكن هذا ليمنع جروتروود أن توجه الدعوة إلى هذا الصديق الذي لم تكن تعرفه، قالت:

- «إن أصدقاء «إيلين» لا بد أن يكونوا محل ترحيب مني ومن «فريدريك»!».

- «ولكن... ..».

هكذا قالت «إيلين» ثم لزمّت الصمت وقد أرخت عينيها خجلاً، هتفت جروتروود:

- إيلين... لا بد أن تحضري هذا العشاء، إن فريدريك مشوق لرؤياك!.

- ولكني أخشى ألا يرحب زوجك بصديقي!.

- لماذا؟!.

- لأنه مكسيكي الأصل، فوق أن بشرته سمراء!.

فضحكت جروتروود في مرح وهي تقول:

- هل تظنين أننا عنصريان أيتها الفتاة؟!.

وهكذا وافقت «إيلين» وكانت قد قررت أن تصحب فرناندو معها إلى العشاء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن انصرفت هذه السيدة الألمانية وكانت تتقافز في مشيتها كصبية في العشرين من عمرها، حتى راحت «إيلين» تفكر في أمر شغل بالها أخيراً... حقاً لقد وضعت جروتروود على الطريق الذي تستعيد به زوجها، ولكن... إذا كان «فريدريك هينرتش» على علاقة بسكرتيرته «لويز» التي تصغر زوجته بخمسة عشر عاماً

على الأقل، فهل يمكن أن تتغير عواطف هذا الرجل بمثل هذه السرعة، لمجرد أن زوجته غيرت تسريحة شعرها واستخدمت نوعًا مختلفًا من العطور وابتاعت ملابس داخلية من نوع خاص...

كانت «إيلين» تعرف يقينًا أن الجاسوس العظيم، هو من يستطيع أن يسبر غور النفس الإنسانية، والذي يعرف كيف يتعامل مع الآخرين ويصل إلى الحقيقة منهم، دون أن يشعر هذا الآخر بأية غرابة في أسئلته... كانت قد طرحت على «جروتروود» أثناء تناول القهوة عددًا من الأسئلة أرادت بها أن تعرف كنه هذا التغيير الذي طرأ على سلوك زوجها... ومن إجابات «جروتروود»، أيقنت أن ثمة سببًا آخر غير تسريحة الشعر أو العطر الجديد أو الملابس الداخلية التي تغري الزوج بزوجته... أيقنت أن هناك سببًا بعيدًا تمام البعد عن السيدة «هينرتش»... ولم يكن هناك من سبب واضح للعيان، سوى «لويز ماك كورميك»... فما الذي حدث؟!.

.....

.....

كان عليها الآن أن تكثف الرقابة حول «لويز ماك كورميك»، وأن تعرف تفاصيل حياتها اليومية، أدق التفاصيل دون إغفال لشيء مهما بدا للآخرين تافهًا... وسرعان ما جاءت الأنباء تقول، إن «الهرهينرتش» كان يتردد - طوال الشهور الماضية - على سكرتيرته في بيتها المتواضع بشكل شبه منتظم، وأن سيارته الغالية الثمن قد لفتت أنظار الجيران في البداية، ثم عندما تعددت الزيارات، أدرك الجميع أن ثمة ارتباطًا لا بد أن يجمع بين الاثنين... لكن أحدًا في الحي لم يعرف شخصية الرجل، بل ربما لم يفكر أحد في معرفة شخصيته، ذلك أن «لويز» كانت - بالنسبة للجميع - فتاة مؤدبة ورقيقة لم تسبب، منذ أن سكنت هذا البيت، أي أزجاج لأحد... ومنذ بضعة أسابيع، بدا للبعض أن ثمة فتورًا قد اعترى العلاقة، فلم يعد هذا السيد المهذب يزور الفتاة إلا قليلًا... وبحسبة بسيطة أدركت «إيلين» أن هذا الفتور بدأ قبل أن تزورها زوجة «هينرتش» لأول مرة، ولقد أكد لها هذا الظن، أن هناك سببًا آخر للفتور الذي اعترى علاقة الرجل بزوجته غير تلك النصائح التي زودتها بها...

غير أن واقعة حدثت قبل بضعة أيام جعلت «إيلين» تطلب من أحد عملائها أن يأتيها بكل شيء يخص هذه الفتاة الغريبة... ذلك أن «الهرهينرتش» شوهد وهو يغادر بيت السكرتيرة ذات مساء وهو يدمدم غضبًا، ويركب سيارته بعصبية واضحة، ثم ينطلق بها في سرعة جعلت عجلات السيارة تصرخ أثناء احتكاكها بالأرض، بينما كانت «لويز» المسكينة تلاحقه حتى الباب والدموع تغرق وجهها... لكن أحدًا لم يعرف - على الإطلاق - سبب هذا الغضب، والذي بعد وقوعه، جاءت زوجة «فريدريك» كي تدعوها إلى هذا العشاء في عطلة نهاية الأسبوع!

لم تكن معرفة الحقيقة صعبة على أي حال... فسرعان ما عُرف أن «لويز»، منذ قرابة ثلاثة أشهر، كانت تتردد على طبيب نساء معروف في المدينة، لكن اللافت للنظر، أنه لم يكن الطبيب المختص بالكشف على موظفي المصنع مما أثار الشكوك التي سرعان ما اتضحت... فمن خلال مساعدة ذلك الطبيب، عرف عميل «إيلين» أن «لويز» كانت حاملًا في الشهر الرابع، وأنها كانت تحاول، في الفترة الأخيرة،

أن تقنع الطبيب بإجراء عملية إجهاض لكن الرجل رفض تمامًا، لأنه رأى أن إجراء العملية؛ في ذلك الوقت، كان من الخطورة بمكان!

كانت الصورة الآن قد اتضحت تمامًا أمام «إيلين ويستمان» أو «تانيا راديونسكا»... وهكذا، راحت تستعد لحضور ذلك العشاء في بيت الرجل الذي أصبح يشغل حيزًا كبيرًا من تفكيرها...

اتصلت ذات مساء بـ «فرناندو كورتيز» صديقها الصيدي، وطلبت منه أن يلتقيا في أحد مشارب وسط المدينة بعد انتهاء ساعات العمل... وفي هذا اللقاء، فاجأته «إيلين» بتلك الدعوة إلى العشاء... وكانت سعادة الفتى بالغة عندما أنبأته أن الدعوة موجهة أيضًا إليه... كان يحلم الآن، بأنها تسعى إلى الارتباط به، علنًا أمام الأصدقاء.

غير أن المصادفة أبت إلا أن تلعب مع هذه الفتاة دورًا أعطاهها ثقة متزايدة فيما كانت مقدمة عليه، فقبل موعد العشاء بليلة واحدة، وصل إليها من موسكو ذلك التقرير الذي كانت تنتظره عن المهندس الألماني الأصل «فريدريك هينرتش»... وما إن ألفت على التقرير نظرة سريعة حتى ذهلت... ها هي الأقدار تسوق إليها صيدًا ثمينًا كان من الصعب - وقد امتلكت ما امتلكت عنه من معلومات- أن يفلت من براتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال التقرير إن اسم «فريدريك هينرتش» اسم مستعار، وأن الاسم الحقيقي هو «هانز فولر»، ولقد كان «الهر فولر» الأب ضابطًا نازيًا، اشتهر بقسوته البالغة في معاملة أسرى الحرب في معسكرات الاعتقال النازية إبان الحرب العالمية الثانية... قبل نهاية الحرب بقليل اختفى الأب دون أن يعرف أحد سر اختفائه... ولقد قيل إنه أعدم بأمر شخصي من هتلر لأن الشكوك حامت حوله لاشترائه في مؤامرة لقتل «الفوهرر»، غير أن كل التحريات والتحقيقات التي أجريت بعد انتهاء الحرب، لم تثبت شيئًا من هذا، وعلى ذلك، فإن الظن يذهب إلى احتمالين: الأول أن يكون الرجل قد انتحر، وهذا ما لا يملك أحد دليلًا عليه، أمّا الاحتمال الثاني، فيذهب إلى أن الرجل فر من ألمانيا تاركًا أسرته المكونة من الزوجة والابن - «هانز»- وبنيتين... وإن صح هذا الظن، فالغالب أن يكون الرجل قد توفي الآن...

غير أن الابن استطاع بعد فترة وجيزة، أن يهرب إلى ألمانيا الغربية، ثم يذوب بعد ذلك تمامًا دون أن يعرف أحد عنه شيئًا ومازالت الأم والبنتان يعيشن في ألمانيا الشرقية حتى الآن، وهن لا يعرفن شيئًا عن «هانز» هذا، وقد تزوجت الفتاتان وإن ظلت الأم حتى الآن تعيش في بيت الأسرة!

أحست «إيلين» بعد قراءة التقرير بعناية، وكأنها تقبض على عنق هذا المهندس الألماني التعس الحظ، فهي، بداية، تستطيع تهديده بفضح علاقته بـ «لويز ماك كورميك» التي تحاول الآن إجراء عملية إجهاض من الواضح أنها لم تتم... ورغم أنها لا تعرف متى تزوج من «جروتروود»، وكيف تعرف عليها، وأين... فإنها أيضًا لا تعرف إن كانت زوجته تعرف حقيقة اسمه أم لا... وإذا كان التقرير القادم من موسكو يقول: إن تهمة من أي نوع لم توجه للفتى الذي كان صغير السن عندما وضعت الحرب أوزارها، فلماذا غير اسمه؟!... هل يخشى من ملاحقة أجهزة

المخابرات إذا ما عرفوا أنه ابن رجل مطلوب القبض عليه ومحاكمته كمجرم حرب، أم أن في الأمر سرًا آخر عليها أن تكتشفه؟!!

وعلى كل، فهناك نقطة ضعف من السهل أن تؤثر فيه، وهي اضطهاد أمه وشقيقتيه اللواتي يعشن في ألمانيا الشرقية وتحت رحمة الشيوعيين!

وهكذا كانت «إيلين» تشعر أنها تحاصر الرجل حصارًا لا فكاك منه وهي في الطريق إلى بيته بصحبة «فرناندو كورتيز» الذي كان قد ابتاع بدلة جديدة خصيصًا كي يحضر بها هذا العشاء!

ولقد قال «فرناندو» للمحقق الذي جلس إليه بعد اختفاء «إيلين»: «.....» وعندما وصلت إلى بيتها بسيارتي في تلك الليلة، لم أنتظر طويلًا، فسرعان ما فتح الباب وظهرت «إيلين» وكانت... ..

صمت «فرناندو» وقد شحب وجهه، بينما لزم المحقق الصمت في انتظار أن يكمل الشاب حديثه هو، وما هي إلا لحظات حتى هتف:

«يا إلهي... لا يمكن أن تكون هذه الفتاة جاسوسة يا سيدي، لقد بدت لي في تلك الليلة، وفي ذلك الثوب الوردى الرائع الذي كانت ترتديه، وكأنها واحدة من نجومات السينما. لقد كانت جميلة إلى حد يدير الرأس!!..»

كانت هذه الفتاة الجميلة تستعد في تلك اللحظات، لواحدة من أعنف معاركها الخفية في كندا!

7 - قاتلة باردة الأعصاب!

مبارزة بالكلمات!

قال «فرناندو كورتيز» إنه في تلك الليلة، وما إن رأى «إيلين» تغادر البيت حتى قفز من السيارة مندفعًا نحوها وقد استبدت به السعادة وملاه الفخر... بدا له الأمر مثل حلم بعيد عن التصديق، بدت له «إيلين» جميلة بشكل خاص، يلتصق في عينيها الزرقاوين بريق يحيلهما إلى فيروزتين مضيئتين... فتح لها باب السيارة فركبت، مال على النافذة المجاورة لها وهو يهمس:

- «يا إلهي... هل تعرفين كم أنت جميلة يا حبيبتي؟!»

منحته ابتسامة جعلته ينتفض في مكانه مثل الفرخ المبتل، دار حول السيارة وركب إلى جوارها وكل خلجة في جسده ترتجف حبًا وإعجابًا... ساد بينهما الصمت لثوانٍ قال بعدها «فرناندو»:

- هل تعرفين أن... ..

قاطعته في مرح:

- لست أريد الحديث معك، إني غاضبة منك!

- وهل أستطيع أن أفعل ما يغضبك؟!!

- إن سوانسون يهديك تحياته!

هتف دهشًا:

- ماذا؟!!

- لقد وضعت له قطعة الجبن بعد أن أغرقتها في ذلك السائل الذي أعطيتني إياه، فأكل الجبن كي يزداد نشاطًا وحركة!

- محال... هذا محال!

التفتت نحوه... رمته بنظرة عتاب وهي تقول:

- أتراني أكذب عليك؟!!

انتفض الفتى نافيًا:

- ليس هذا ما قصدت إليه!

- ليلتين متتاليتين وضعت الجبن بعد أن غمسته في السائل، ولم يمت سوانسون بل ازدادت حركته إزعاجًا وكأنه يتحداني!

هم «فرناندو» بالحديث فاندفعت مازحة:

- ويتحداك!

كانت «إيلين» بالقطع كاذبة، وكانت في نفس الوقت، تسعى إلى شيء آخر... بعد فترة صمت قال «فرناندو»:

- لا عليك... سوف أمدك بكمية أخرى أشد فتكًا!

هتفت في فرح:

- وإذا عثر البوليس على جثة ذلك الفأر المسكين فماذا أنا... ..

قاطعها:

- لن يكتشفا شيئاً، أقسم لك إنهم لن يكتشفوا شيئاً!

وهكذا ضمنت «إيلين» الحصول على كمية أخرى من سم شديد الفتك، لا يترك أثراً في جثة من يتناوله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان البيت الذي دخلته «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا» مع «فرناندو» في ذلك المساء، ينم عن حالة اقتصادية مريحة تماماً... لم يكن واسعاً وإن كان البهو الذي جلس فيه المدعوون، يتسع لثلاثة أركان يتميز كل ركن فيها بطراز معين من الأثاث، وإن كانت الأركان الثلاثة، تصنع نوعاً من التناسب الذي ينم عن ذوق رفيع حقاً.

في ركن قصي في المكان كان البيانو يتربع ومن حوله ثلاثة مقاعد لا أكثر، تناثرت الفازات والتحف فوق الأرفف الأنيقة، وكان كل قطعة منها معروضة في متحف، على الجدران لوحات لفنانين محدثين ولم تكن هناك لوحات كلاسيكية أو تقليدية مما ينم عن متابعة للفن الحديث... كان الضيوف جميعاً يرتدون الملابس كاملة مما يدل على أن «الهيرنرتش» أو «الهرفولر» يتمتع إلى جوار الذوق الرفيع، بخاصية الاختيار الدقيق لنوعية الأصدقاء... كان هناك عالم كيميائي يعمل معه في نفس المصنع، ولم يكن صعباً على «إيلين» أن تعرف، قبل أن تنتهي الليلة، أنه من أصل استرالي، جاء إلى كندا في بعثة دراسية منذ ما يقرب من عشرين عاماً، لكنه استوطن كندا وتزوج من سيدة أمريكية لا تكف عن التثرثرة دون أن يستمع إليها أحد... كما كان هنا أديب ظهرت له روايتان لفتتا أنظار النقاد والقراء على السواء وحققتا أرقاماً في التوزيع لا بأس بها... ثم رجل أعمال تجمع به «هيرنرتش» هواية لعب التنس، أما زوجته فلقد قدمتها «جروتروود» إلى «إيلين» على أنها فنانة تشكيلية لفتت لوحاتها أنظار النقاد حتى في الولايات المتحدة.

هكذا وجدت «إيلين» نفسها تتناول العشاء مع نخبة من المجتمع الكندي تتيح لها مساحة أوسع من المعارف فطابت نفساً... وإن كانت بطبيعة الحال، قد ركزت اهتمامها في صاحب البيت الذي كانت الآن تعرف عنه كل شيء، الماضي والحاضر معاً!

.....

.....

كان «هرفريدك هيرنرتش» في الخمسين من عمره، طويل القامة، مليح التقاطيع، وإن كانت الصرامة الألمانية تحتل موقعها فوق تلك الملامح لا تيرح... ولعل أول ما لفت نظر «إيلين» فيه، هي تلك الثقة الشديدة بالنفس التي كان يتعامل بها مع الآخرين، كل الآخرين بمن فيهم زوجته، كان يكفي أن يطلب شيئاً حتى تنتفض هذه السيدة المسكينة لتلبية طلبه... ولقد تعمدت «إيلين»، بعد أن قدمتها زوجته إليه أن تختار مقعداً نائباً في المكان... مقعداً يستطيع من يجلس عليه، أن يرقب كل من في

الحفل ببساطة ودون بذل الجهد أو حتى الالتفاف... وقف «فرناندو كورتيز» إلى جوارها بعضًا من الوقت، لكنه سرعان ما اندمج في الحديث مع المهندس الكيميائي... ولأن الفتى لم يكن مجرد صيدلي، ولكنه هاو للكيمياء، فلقد أولى تركيزه حول موضوع كان محل مناقشة بين هذا المهندس وبين صاحب البيت: مما أثار إعجاب الاثنين حقًا... وعندما عبرا عن إعجابهما، أمد هذا «فرناندو» بمزيد من الثقة بالنفس، فانطلق على سجيته يظهر مواهبه!

ذات لحظة انتبهت «جروتروود» إلى أن صديقتها تجلس وحدها، فما كان إلا أن هتفت بزوجها:

- «فريدريك»... ألا تؤنس وحدة صديقتي؟!

- التقت الرجل نحو «إيلين» رنا إليها للحظات ارتسمت بعدها على شفثيه ابتسامة خفيفة... ما لبث أن نهض إلى حيث كانت «إيلين» جالسة في استقامة فتاة بريطانية محافظة، جذب مقعدًا جلس عليه إلى جوارها وهو يقول:

- لقد حدثتني «جروتروود» كثيرًا عنك في الأسابيع الماضية!

- أرجو ألا تكون قد بالغت في إظهار عيوبي!

رفع الرجل حاجبيه دهشة وهو يقول:

- عيوبك... إنها لم تذكر شيئًا عن العيوب!

قال هذا ثم أردف مغمغمًا:

- وأرجو ألا تكون قد بالغت في ذكر ما تتصفين به من خلق!

أحست «إيلين» من حديثه أنها تمثل لهر فولر المتخفي تحت اسم «هينرتش»، تحديًا من نوع خاص. كما أحست - بشكل غامض - أنه غير راض عن علاقتها بزوجته... كانت قد لاحظت وقد انقضى ما يقرب من ثلاثين دقيقة منذ أن وصلت، أن الرجل إما أنه يتجنب الحديث معها - وكان هذا طبيعيًا لو أن زوجته كانت قد أخبرته بما دار بينهما من حديث، أو - على الناحية الأخرى - أنه كان يرى أن مركزه الاجتماعي لا يتناسب مع صاحبة محل صغير لبيع الملابس الداخلية للسيدات... فإذا أضافت إلى هذا، أن الحوار بينهما منذ البداية، بدا وكأنه مبارزة من نوع خاص، فلقد اتخذت قرارًا بأن تنتصر في هذه المباراة!

على كل، فهي لم تعلق على ما قال بل لزمتم الصمت وهي ترميه بنظرة نافذة أحست بعدها باضطرابه من الداخل، ولذلك، فقد سألتها:

- لم تجلسين وحدك؟!

- أخشى ألا تسعفني ثقافتني للحوار معكم!

تجاهل ما قالتة وهو ينظر نحو «فرناندو» قائلاً:

- إن صديقك عالم بحق... هل تعرفين هذا؟!

- يقينًا!

- لقد خطر لي أن أسألك إن كان يقبل العمل معنا في المصنع!

كان الأمر مفاجأة كاملة لها... أدركت على الفور أنها أمام عقلية من الصعب التقليل من شأنها، لم يكن قد مضى أكثر من خمس وأربعين دقيقة منذ أن وصلت بصحبة «فرناندو» إلى البيت، فهل اكتشف هذا الرجل فيه، وبمثل هذه السرعة، كفاءة تدفعه إلى طلب الالتحاق بالعمل معه في المصنع، أم أن هناك كميناً ينصبه لها هذا الرجل؟!!

كان عليها أن تقرر الأسلوب المثالي للتعامل معه، ولقد لجأت إلى الحيلة الوحيدة التي تعطيها الفرصة لإمكان التفكير، وهي الصمت... كان صمتها الآن يعني أشياء كثيرة، وكان على «هر هينرتش» أن يتخذ هو القرار حتى يكشف عن مكنون تفكيره.

- يبدو أنك مندهشة من طلبي هذا!

هكذا قال بعد لحظات فلم تزد عن القول:

- حقاً؟!!

قال «فريدريك» وهو ينهض إلى مائدة مجاورة كي يعد لنفسه شرباً:

- أعلم أن العرض مفاجأة... كما أعلم أنني ربما كنت متسرعاً بعض الشيء، لكن الذي عليك أن تعرفه جيداً، أن العالم لا يقاس بكمّ ما حصل من معلومات، بقدر ما تقاس مقدرته وملكاته، بأسلوبه في التفكير!

كانت المعركة ضارية، هكذا أحست «إيلين ويستمان»، عاد «فريدريك» إلى جوارها وهو ينظر نحو «فرناندو»، والذي كان منهمكاً في الحوار مع الآخرين، ثم أردف:

- هل تسألينه إن كان يقبل؟!!

- ولم لا تفعل هذا بنفسك؟!!

جاءه ردها المفعم بابتسامة باردة مثل صفة فلاذ بالصمت لثوان، ثم ما لبث أن نهض قائلاً:

- ربما كنت على حق، ربما كنت على حق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الدقائق التالية، والتي تناول فيها المدعون طعام العشاء، كافية تماماً لأن تستعيد «إيلين» ما حدث، وأن تستعد في نفس الوقت لجولة أخرى قررت أن تخطوها في نفس الليلة:

ويبدو أن هذه الفتاة كانت تمتلك ملكات فذة بحق، فلم يفتها - على سبيل المثال - أنه كان في البيت خادمة واحدة متوسطة العمر، وأنها كانت تقوم على خدمتهم بمساعدة السيدة «جروتروود»... وكان هذا غريباً، ففي مثل هذا البيت، كان لا بد وأن يكون هناك اثنان على الأقل - في مناسبة كهذه - يقومان بالخدمة!

على مائدة الطعام جاءت جلسة «إيلين» إلى جوار صاحب البيت وكان لا بد لهما بطبيعة الحال أن يتبادلا الحديث، وحسب الأصول المتبعة، كان على صاحب البيت أن يأخذ زمام المبادرة... ذات لحظة قال وهو يضع قطعة لحم أمام «إيلين»:

- لا بد لي أن أطري ذوقك في اختيار المناسب من الملابس!

- أية ملابس تقصد!

هكذا سألته «إيلين» في تحد سافر وواضح، ذلك أن جملته بدت لها مراوغة أكثر مما ينبغي... ولقد ضايقها - بصرف النظر عن حلها- أن يستهين هذا الرجل بذكائها إلى هذا الحد... ذلك أن الجملة كانت تحتل معنيين لا ثالث لهما، الملابس الداخلية التي ساعدت زوجته على اختيارها... أو رداءها الذي كانت ترتديه في تلك الليلة... وعلى كل، فما إن سألته ذلك السؤال حتى ابتسم، ثم ضحك ضحكة خفيفة وهو يغمغم:

فهل أطري ذكاءك أيضًا؟!..

لم ترحمه، قالت:

- لكنك لم تجب عن سؤالي!..

هنا حدث ما لم تتوقعه «إيلين» على الإطلاق... فلقد أطلق «فريدريك هينرتش» ضحكة عالية جلجلت في المكان ولفنت الأنظار فساد الصمت والتقت كل المدعويين نحوه وقد استبدت بهم الدهشة، بينما تظاهرت «إيلين» بالانهماك في تناول الطعام وكأن الأمر برمته لا يعنيها... ما لبث الرجل أن هتف موجهاً حديثه إلى «فرناندو»:

- «أيها الشاب... إنني أهنتك على اختيارك!»

بدا «فرناندو» مرتبكاً تماماً، فلم يكن يعرف ما الذي يقصده رب البيت بالضبط... غير أن هذا أفرغ كل ما كان في كأسه من شراب، ثم قال ملوحاً بإصبعه في وجه «فرناندو»:

- وإن كنت أنصحك بالحذر، ففتاة مثل الأنسة «إيستمان» تملك عقلاً شديد اليقظة! في تلك اللحظة بالذات، أدركت «إيلين» أنها أخطأت في الحساب، فما كان ينبغي أن تكشف عن ذكائها بمثل هذا السفور مع رجل بدا لها غير عادي بكل المقاييس... كان لا بد لها من التظاهر بالسذاجة والوقوع في فخ أسئلته حتى يظن أنه - بثقته في نفسه- قد سيطر عليها، حتى إذا حانت اللحظة المناسبة انقضت عليه... هكذا كانت أصول اللعبة لكنه أفلح في استفزازها... ولقد كانت مستغرقة في التفكير لا تسمع ذلك الإطراء الذي انهال عليها من زوجة الرجل ومن «فرناندو» على السواء... كانت الآن في موقف لا تستطيع التراجع عنه، وهو موقف، من وجهة النظر الأمنية، يبدو شائكاً!!

في النهاية قالت إيلين لنفسها، إن «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» قد كسب الجولة الأولى، هذا ما يجب أن تعترف به، ولكن... وسوف يصبح عليها ألا تتيح له أن يتيه بنصره طويلاً، عليها أن تقرر بداية الجولة الثانية - ولكن كيف!!

8 - قاتلة باردة الأعصاب!

الإنذار!

الذي لا شك فيه، أن شخصية «هر فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»، كانت مفاجأة كاملة بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» التي لا بد وأن تكون قد أنبتت نفسها كثيرًا لأنها أعطته الفرصة لاستقرازها وجرها إلى مناقشة كشفت عن حدة ذكائها، فلم يكن هذا مطلوبًا بأي معنى من المعاني... والآن، وقد قال ما قال على مائدة العشاء، لم يكن هناك مجال للتراجع، وإذا كانت قد هُزمت في الجولة الأولى، فإن المعركة لم تنته بعد، وعليها أن تفكر ألف مرة قبل أن تتخذ الخطوة التالية!

كانت الآن أمام خيارين... أولهما أن تبادر بالهجوم، وبأسلوب لا ينتظره، أسلوب يزعزع تلك الثقة الزائدة بالنفس، والتي وصلت - من وجهة نظرها إلى - حد الغرور... أما الخيار الثاني فهو الانتظار حتى تفكر في الأمر بترؤ، وحتى تختار الوقت المناسب كي توجه إليه ضربتها!

غير أنها سرعان ما وجدت أن الانتظار يمثل خطرًا من نوع آخر، فماذا لو كان العرض الذي طرحه «فريدريك» على «فرناندو» عن طريقها ليس سوى طعم يريد به شيئًا آخر؟!... ماذا لو أنه عرض الأمر على «فرناندو» بالفعل، ومماذا لو أن «فرناندو» وافق؟!!

إن أمرًا مثل إعطاء «فرناندو» وظيفة في هذا المصنع، لا بد وأن تسبقه اختبارات ولقاءات وحوارات وربما لأهمية المصنع وإذا صحت المعلومات التي وردت لها عنه، مراقبات أيضًا؟!... وإذا كانت المعلومات لديه الآن أنها مرتبطة بـ «فرناندو»، فلا بد أن تشمل تلك المراقبات، إن تحققت، شخصيتها أيضًا!

كانت في مأزق، وكان لا بد وأن تسرع بالهجوم ولا تضيع وقتها مهما كان الأمر! وهكذا وجدت «إيلين» نفسها وهي لا تزال جالسة إلى مائدة العشاء، تفكر بسرعة شديدة، وسرعان ما استغرقها التفكير... وحتى لا تلفت الأنظار، اتخذت سمة الفتاة البريطانية المحافظة التي تتقنها جيدًا، وقبل أن تغادر البيت، كانت قد وصلت إلى حل بالفعل، فعندما كانت تودع السيدة والسيد «هينرتش» عند انصرافها مع «فرناندو»، وبينما الرجل يصافحها احتفظت بيده لثوانٍ وهي تقول:

- إذا كانت هناك مشكلة خاصة بإنسان يعمل في مصنعكم، فهل أطمع في مساعدتك لحل هذه المشكلة؟!!

كان السؤال غريبًا بكل المعاني، وكان بالتالي يمثل بالنسبة لرجل مثل «فريدريك» مفاجأة غير متوقعة، مما دفعه إلى التردد لثوانٍ كانت كافية لأن تنتهز زوجته الفرصة لرد الجميل، وكانت بالطبع تقف إلى جوار زوجها، فلقد قالت بترحاب شديد:

- بالطبع يا عزيزتي، إن «فريدريك» لا يستطيع أن يرفض لك طلبًا!

قالت جروتروود هذا وهي تتطلع إلى زوجها في شغف قاتلة:

- «أليس كذلك يا عزيزي؟!»

وهكذا ضيقت هذه السيدة المسكينة على زوجها فرصة المناورة، وكان لابد أن يقول:

- بالطبع... بالطبع!

وعندما أطلقت «إيلين» يده من يدها رمته زوجته بنظرة نارية وهو يضيف:

- إن كان هذا في استطاعتي!

- إذن، فلسوف أكون ممتنة لو أنك وجدت من وقتك الثمين بضع دقائق في الأيام القادمة!

قالت هذا دون أن تذكر شيئاً عن المشكلة أو صاحبها، ودون أن تعطيه فرصة للرد، التفتت نحو «فرناندو» وهي تخطو نحو الباب قائلة:

فرنسي!..

وكان اسم التذليل هذا الذي نادى به «فرناندو» كفيلاً بأن يصعد بأحلام الفتى إلى عنان السماء!!

.....

.....

إن المتأمل لطبيعة هذا الحوار الذي دار بين «هانز فولر» و«تانيا راديونسكا»، لابد وأن يكتشف عنف الصراع الذي بدأ بينهما منذ اللحظة الأولى... وإذا كانت المعلومات التي توفرت للمحققين بعد اختفاء تلك الفتاة، لم تستطع أن تملأ مساحات ظلت مجهولة تماماً لكل من أراد البحث عن القصة كاملة... إلا أنه في مثل هذه الأمور، يصبح على المحقق أن يميلاً هذه الفراغات باحتمالات لابد أن تكون أقرب ما تكون إلى الحقيقة!

لقد كان السؤال الذي ألقته «إيلين» على «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» كفيلاً بأن يدفع الرجل إلى التفكير فيمن تكون هذه الشخصية التي تعاني مشكلة في المصنع، والتي تريد منه «إيلين» أن يساعدها، وما هي طبيعة المشكلة، وهل هي مشكلة شخصية أم أنها خاصة بالعمل... وكان لابد - بالتالي - أن يجنح تفكيره إلى سؤال: هل أخبرت زوجته «إيلين» بشيء عن هواجسها فيما يختص بسكرتيرته، وهل المشكلة تخص مسز ماك كورميك!!؟

وعلى كل الأحوال، فالسيدة جروتروود - زوجته - كانت هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يلقي الضوء على حالة الرجل في تلك الليلة... ولقد كانت هذه السيدة - بعد قرابة ثلاثة أعوام عندما جلس إليها المحققون، في حالة انهيار حقيقي رغم مضي الزمن... وفيما يختص بتلك الليلة، فلقد أجابت عندما سألوها عن تلك الشخصية التي تحدثت عنها «إيلين» أو عن طبيعة المشكلة التي كانت تعاني منها:

- ... لم أعرف شيئاً لا عن المشكلة ولا عن صاحبها فلا «إيلين» أخبرتني، ولا «فريدريك» تحدث إلي في الموضوع بعد ذلك، ولا أنا سألته... كنت قد نسيت الأمر برمته!

وعندما سألتها أحد المحققين عن حالة زوجها بعد انصراف المدعويين، سهمت قليلاً ثم كست وجهها غلالة من حزن وهي تقول:

- كنت أظن أنه عاد إلي أخيراً، لكنني اكتشفت في تلك الليلة أنني كنت واهمة!
لزمت الصمت لثوانٍ صعد فيها الدمع إلى عينيها، حتى إذا تماكنت نفسها أضافت:
- نعم... إنني أذكر الآن جيداً أنه كان عصبياً بعض الشيء، وعندما سألته عن رأيه
في «إيلين» انفجر وهو يقول إنني لم أعد أحسن اختيار الأصدقاء... وكان معنى هذا
أنه يرفض «إيلين» تماماً، وأنه غير راضٍ عن علاقتي بها مما سبب لي حرجاً
شديداً!

وعندما سألتها المحقق إن كانت قد استجابت لرأيه هذا أجابت:
- لم يكن أمامي سوى التظاهر بهذا، لقد كانت «إيلين» صديقة حميمة، وكانت طيبة
وحنوناً... وإن كان البعض قد روج فيما بعد أنهما كانا يلتقيان. إلا أنني لا أصدق هذا،
لا أستطيع أن أصدق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد كانت «إيلين» هي الأخرى في تلك الليلة، في حالة استغراقٍ وتفكير عميق...
هكذا قال «فرناندو كورتيز» الذي كانت السعادة قد أخذته أخذاً، ليس فقط لأنه
أصبح موقناً أن «إيلين» تبادلته الحب خاصة بعد أن نادته باسم التذليل هذا «فرني»
أمام الآخرين، ولكن لأن «الهرهينرتش» طلب منه رقم تليفونه لأن ثمة أمراً يريد
أن يناقشه فيه... لم يكن الفتى يعرف طبيعة هذا الأمر، وراح يضرب أخماساً في
أسداس، وعندما سأل «إيلين» - وهما في السيارة في طريقها إلى البيت - إن كانت
تستطيع أن تخمن السبب، قالت في اقتضاب وكأن الأمر لا يعنيها:

- إنه يفكر في إلحاقك معه بالعمل في المصنع!
تضاعفت سعادة «فرناندو» بطبيعة الحال، راح يتقافز في جلسته خلف عجلة القيادة
وهو يسأل:

- هل أنت موقنة من هذا يا حبيبتى!؟

- أجل!!

هكذا قالت في اقتضاب، وعندما هم بالسؤال، كان نصيبه نظرة صارمة جعلته
يحدث نفسه مغمغماً:

- إن أمراً مثل هذا هو حلم أحلامي جميعاً، سوف أعود إلى المعامل مرة أخرى...
سوف أعود إلى عملي الحقيقي!

ولم تعلق «إيلين»، ولم تنطق حرفاً حتى غادرت السيارة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولابد أن «إيلين» ظلت تفكر طوال الليل فيما يجب عليها أن تفعله في الخطوة
التالية، كانت موقنة أشد ما يكون اليقين أن سؤالها هذا الذي ألقته على «فريدريك»
سوف يلقي به في أتون من التكهانات لا نهاية له... كانت تعلم أنها تركت له الأمر
برمته، وأن عليه هو أن يتصل بها... غير أن أمراً آخر كان يشغل ذهنها وإن كان لم
يحظ منها، حتى انفردت بنفسها، باهتمام خاص... فقد لاحظت أن «فريدريك» كان
يختطف منها، بين الحين والحين نظرات إعجاب لا تخفى، ولقد أدركت أن الرجل

إلى جانب ذكائه الحاد، زير نساء من طراز خاص... ولقد كان هذا يمثل لها نقطة ضعف شخصيته سوف تساعدنا حتمًا على الوصول إلى ما تريد منه وتبغى!

في صباح اليوم التالي وصلها خطاب عن طريق ذلك الفتى ابن التاسعة عشرة، والذي كان الآن قد ارتبط بها ارتباطًا شديدًا، وقنع منها بلقاءات متباعدة مع نظرة امتنان كلما جاءها بخطاب من الأهل!! - من ابن عمها في لندن!!

كان الخطاب طويلًا ومكونًا من صفحة ونصف الصفحة، وكان ابن العم يتحدث فيه عن العائلة وأحوالها، ويتساءل عن سر انقطاعها عن الكتابة في الفترة الأخيرة، مما دفعه إلى السؤال عن أحوالها وإن كانت في حاجة إلى المساعدة!!

ما إن قرأت «إيلين» فحوى الخطاب حتى انكبت عليه كي تحل شفرته، ورغم طول الخطاب، فلقد كان في حقيقته مكونًا من سطر ونصف يقول: لا بد من معرفة كل شيء عن هذا المصنع الذي يعمل فيه «الهر هانز فولر» الذي اتخذ لنفسه اسم «فريدريك هينرتش»!!... وكان معنى هذا، أنهم في موسكو يتعجلون الأمر، وينتظرون منها فعلًا إيجابيًا في أسرع وقت!

ولقد مضت الأيام دون أن يتصل بها فريدريك... كما أنه - على الجانب الآخر - لم يتصل بـ «فرناندو كورتيز»... ولم يكن هذا باعثًا على القلق، وإن كان باعثًا على التفكير!!

وعلى كل، فلقد وقع في تلك الأيام حادث شغلها بعض الشيء، وأضاف إلى همومها، همًا آخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات مساء كانت تجلس في مكتبها في المحل تراجع بعض الأوراق الخاصة بالبضائع، عندما دلف إلى المحل شاب في حوالي الأربعين من عمره بصحبة سيدة في حوالي الخامسة والثلاثين... كان واضحًا - من النظرة الأولى، ومن أسلوب تعاملهما - أنهما زوجان انقضى على زواجهما سنوات... ولقد أدركت «إيلين» من النظرة الأولى، أنهما من أصل روسي!

ولقد ظنت في البداية أنهما من موظفي السفارة السوفياتية في أوتوا، ثم شكت في أن يكونا مبعوثين من الـ «كي. جي. بي» - المخابرات السوفياتية - جاء كي يرقبا بنفسيهما أسلوب عملها في المحل... غير أنها سرعان ما طردت الفكرة من رأسها ليقينها أن المخابرات السوفياتية من المحال أن تستعمل معها أسلوبًا فجًا كهذا... ذلك أن الرؤساء في موسكو، إن أرادوا معرفة شيء عنها. فمن المستحيل أن يرسلوا روسيين سوف ينكشف أمرهما لها من أول وهلة... ولقد رأت - حتى تحسم الأمر - أن تقوم هي على خدمتهما بنفسها، لكنها أرادت أن تترك الأمور تسير سيرها الطبيعي، فعادت إلى الأوراق من جديد، حتى إذا ما انتهت مما في يدها نهضت في تكاسل واقتربت منهما!

لم تدهش كثيرًا عندما سمعتهما يتحدثان بالروسية، ولقد كانا يتجادلان حول نوعين مختلفين من الملابس... وبطبيعة الحال، لم تكن العاملة التي تقوم على خدمتهما تفهم شيئًا مما كانا يقولان، توقفت صامتة في انتظار أن يستقر رأيهما على صنف بعينه... وهنا، اقتربت منها «إيلين» وتصنعت معها حوارًا أدى إلى انصرافها للقيام بعمل آخر.

كانت بسمتها وإشراقه وجهها كافيتين تمامًا لأن يلفتنا نظر الشاب وزوجته... ولقد أراد الشاب أن يحسم الأمر في النهاية، فالتفت نحو «إيلين» سائلًا إياها - بالإنجليزية طبعًا- عن رأيها... وسرعان ما جرتها إلى حديث طويل عن كل ماركة ومميزاتها: وحول الألوان والموديلات والقديم والجديد... كان حديثها - إلى جانب إلمامها الكامل بأسرار هذا النوع من الملابس، ومعرفتها المطلقة فيما يختص بمميزات كل نوع وعيوبه- مرحًا بسيطًا وكأنها صديقة قديمة مما دفع الزوجين إلى الإفصاح عن طبيعة الخلاف بينهما طالبين رأيها في الموضوع... وكانت هذه الفرصة التي تنتظرها، قالت:

- ربما كان سبب الخلاف بينكما في الرأي، هو التقصير في أدائنا هنا!
كانت الإجابة غريبة، وكانت في نفس الوقت صريحة مما دفع الزوجة إلى التساؤل في دهشة:

- «وكيف كان ذلك؟!»

وجاءتها إجابة «إيلين» أكثر صراحة:

إن هناك نوعًا آخر من الملابس قد يوفق بين وجهتي نظركما ويلبي رغباتكما معًا!
- حقًا؟!!

هكذا سأل الزوج وقد أعطى «إيلين» اهتمامه، فأجابت في بساطة:

- للأسف، لقد نفذ هذا النوع في صباح اليوم، كان المفروض أن ننتبه إلى هذا حتى لا نفقد عملاء مثلكما، لكني انتبهت اليوم فقط، فإذا كان في استطاعتكما الانتظار، فلسوف أستطيع إرضاءكما خلال يومين أو ثلاثة!

كان من المحال، أمام هذا المنطق، ألا يوافق الزوجان، وعلى كل، فلقد التفت الرجل نحو زوجته متسائلًا:

- ما رأيك... هل ننتظر؟!!

- ولم لا؟!!

هكذا أجابت الزوجة، وعندما التفت نحو «إيلين» قالت:

- «إذن فلنتركا رقم التليفون: حتى إذا توفر لدينا هذا النوع، بادرت بالاتصال بكما!»

هم الرجل بالحديث فأردفت:

- مع وعد بالأيتأخر الأمر أكثر من أيام ثلاثة!

وهكذا حصلت على رقم التليفون الخاص بهما، وكان هذا هو كل ما تريده الآن منهما... غير أن جملة قالها الزوج للزوجة بالروسية، وهما ينصرفان، جعلت «إيلين» تنتفض، فلقد سمعته يغمغم:

- لولا أن لهجة هذه الفتاة إنجليزية قح، لقلت إنها من أصل روسي!

ولقد كان هذا، بالنسبة لـ «إيلين»، إنذارًا، وكان، في الوقت نفسه، يتطلب عملاً سريعًا!

9 - قاتلة باردة الأعصاب! أوامر بوقف التجسس!

كان عام ونصف العام تقريباً قد انقضى منذ وطئت قدما «إيلين» أرض كندا لأول مرة... ولقد أثبتت التحريات بشكل قاطع، أن شبكة التجسس التي كونتها هذه الفتاة العجيبة، كانت في ذلك الوقت تقوم بواجبها على الوجه الأكمل، وأن المعلومات كانت تنهال على الاتحاد السوفياتي بوفرة غير طبيعية... معلومات الاقتصاد والصناعة وخاصة في الأبحاث العلمية التي كان بعضها يتم بالتعاون مع بعض المؤسسات الهامة في الولايات المتحدة، مما دفع جواسيس الأمريكيين في موسكو إلى تحذير واشنطن من تلك الشبكة البالغة الغموض، والتي عجز هؤلاء الجواسيس - رغم أن بعضهم كان يحتل مراكز حساسة كما ثبت فيما بعد - عن معرفة أفراد الشبكة أو من هو الرأس المدبر لها، أو مكانه، وما إذا كان في أوتوا أو مونتريال أو كيبيك أو تورنتو... وتقول سجلات الحكومة الكندية السرية، أن ثمة مبعوثاً أمريكياً من الـ «سي. أي. إيه» قد زار كندا خصيصاً كي يتباحث في هذا الأمر الذي أصبح يورق حكومة الولايات المتحدة أيضاً... ولما كان للاتحاد السوفياتي - على الناحية الأخرى- جواسيس في واشنطن، فلقد وصل «إيلين» أمر صارم بوقف النشاط تماماً!!

هكذا وصلت لعبة التجسس والتجسس المضاد إلى ذروة رفيعة حقاً في الأداء من الطرفين!!

ولقد أدركت «إيلين» يوم وصل إليها هذا الأمر، من خلال مكالمة تليفونية - من ابن العم في لندن - !!- أن لا سبيل إلى المناقشة، وأنها مجبرة على وقف النشاط مهما كان الأمر... ولقد فعلت، فخلال الأربع والعشرين ساعة التالية، قامت بإجراء عدد لا بأس به من المكالمات التليفونية، من تليفونات عمومية متفرقة، أصدرت فيها الأوامر، بصرامة شديدة، بالكف تماماً عن أي نشاط مهما كانت أهميته!!

بذلك... وجد المبعوث الأمريكي، مع رجال الأمن في كندا، أنفسهم يتحركون في ظلام دامس امتد إلى بضعة أشهر... ولا أحد يدري، إن كانوا قد أدركوا أن تحذيراً وصل إلى الشبكة أم لا... لكن الثابت أن احتياطات صارمة اتخذت في موسكو فيما يختص بنشاط «إيلين»، بحيث يتعذر على أي جاسوس، مهما كانت مكانته، أن يعرف شيئاً عن نشاطها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبطبيعة الحال، فلقد كان مثل هذا الأمر بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، فرصة ذهبية كي تعيد ترتيب أوراقتها، وتلتقط أنفاسها، ولكي تتأمل في هدوء ما كانت قد وصلت إليه، خاصة فيما يتصل بذلك الألماني «فريدريك هينرتش» الذي أصبح يمثل لها تحدياً شخصياً لا على المستوى الاجتماعي فقط، ولكن على مستوى الأداء المهني نفسه... ذلك أنها منذ تلك الليلة التي تناولت فيها العشاء في بيته، لم تستطع أن تمنع ذلك الإحساس الغامض الذي راح يلاحقها، بأن لهذا الرجل وجهاً آخر لا بد من كشفه... وإذا كان هو لم يبادر بالاتصال بها كما كانت

تأمل، كما أنه لم يتصل بـ «فرناندو كورتيز» كما وعده، فلقد كان أمامها الآن وقت كاف لأن تنتظر مهما طالّت المدة... كانت على يقين من أن هذا المتعجرف، لا بد وأن يخوض صراعه معها حتى نهاية المطاف!!

كان ثمة شيء غريب في شخص «فريدريك» هذا، لم يكن مستغرباً ألا يتصل هو بها، بل إنها - بشكل ما - كانت تنتظر هذا منه، فلربما أراد التفكير في أمر المشكلة التي حدثت عنها، وربما حامت شكوكه حول معرفتها - عن طريق زوجته - بعلاقته بسكرتيرته «لويز ماك كورميك» والتي كان الجنين في أحشائها يعلن يوماً بعد يوم عن وجوده مما كان يسبب له بالقطع أرقاً... كانت هناك احتمالات كثيرة لكن اللافت للنظر حقاً، أن «جروتود» - زوجته - بعد ليلة العشاء تلك لم تتصل بها على الإطلاق، رغم أن الصداقة بينهما كانت قد توطدت في الفترة الأخيرة... وعندما قلبت «إيلين» الأمر على وجوهه، لم تجد سبباً لانقطاع هذه السيدة، سوى أن زوجها كان السبب وراء هذا الانقطاع... فلماذا؟!!

كان هذا هو السؤال الذي أثار الكثير من الشكوك في ذهنها، وإذا كان التقرير الذي جاءها من موسكو يقول: إن «هانز فولر» الذي اتخذ اسم «فريدريك هينرتش» ليس في ماضيه ما يشين، إلا أن السؤال ظل قائماً وملحاً... فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا غير اسمه؟!!

إن طبيعة هذا الرجل، كما شاهدته في ليلة العشاء تلك، تؤكد بما لا يقبل الشك لديها، تلك النزعة النازية التي ترسبت في وجدان جيل بعينه، ولد ونشأ وتربى في أحضان الفكر النازي والزعامة الهتلرية وتفوق الجنس الآري على غيره من الأجناس... فهل تثبت الأيام صحة ظنها؟!!

كانت مدركة أن الجواب لن يأتيها بين يوم وليلة، كما كانت تدرك أيضاً، أن ذلك الأمر الذي وصل إليها من موسكو بالتوقف عن النشاط لن يستمر إلى الأبد... ولذلك، فلقد راحت تستعد، في هدوء شديد، لما هو قادم من أيام، وكان قرارها الأول، أن تدخل بيت هذا الرجل وتعيش فيه وتعرف عنه كل كبيرة وصغيرة!!!

عرفت «إيلين» قبل وصولها إلى كندا أهمية مكاتب الترخيم في مجتمع مثل المجتمع الكندي... ذلك أن مثل هذه المكاتب التي يديرها في العادة يهود تمرسوا على هذا النوع من العمل، كانت تستطيع أن ترسل إلى أي بيت يطلب خادماً أو خادمة أو حتى جليسة أطفال سواء بشكل دائم أو لأيام معدودة، من يستطيع أن يمدها بأخبار هذا البيت وما يدور فيه... ولما كانت «إيلين» قد لاحظت ليلة العشاء، أن التي كانت تقوم بالخدمة خادمة واحدة، فلقد كان معنى هذا أن هذه الخادمة مستديمة لم يستأجرها أصحاب البيت لمدة محدودة... ولقد أكد لها هذا، حركة الخادمة في تلك الليلة، والتي كانت تمثل، إلى جانب حرية الحركة، نوعاً من التناسق بينها وبين «جروتود» التي كانت تساعدنا بطبيعة الحال بين الحين والحين... ولما كانت «إيلين» قد أعطيت، قبل أن تصل إلى كندا عنوان المكتب الرئيس لإحدى شركات الترخيم التي كانت فروعها تنتشر في عدد من المدن الكندية، فما كان عليها - عندما وصلت إلى أوتاوا - إلا أن تتصل بإنسان معين كي تطلب منه، حسب شفرة لفظية خاصة، جليسة للأطفال لمدة ثلاثة أيام متوالية، كما كان عليها أن تعطي هذا الشخص عنوانها حتى يوافيها في ساعة معينة.

ولابد أن «إيلين» قد فعلت هذا بعد أن استقلت وافتتحت محلها الجديد وانتقلت إلى مسكنها الصغير ذاك، لابد أنها التقت الشخص المطلوب وأنهما اتفقا على أسلوب التعامل، غير أنه من المرجح أنهما لم يلتقيا بعد ذلك، إلا ذلك اللقاء الذي شهد به أحد جيراتها في تلك الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر!

فلقد تصادف أن هذا الجار كان يعرف الرجل، وعندما جلس إلى المحققين قال إنه في أحد أيام نوفمبر قبل عامين شاهد ذلك الرجل وهو يدخل بيت «إيلين» فلقد كان يعرفه، وكان قد تعامل معه أيضًا!

كان الرجل الذي زارها في تلك الليلة من ليالي نوفمبر يرتدي قلنسوة صوفية، وكان أبيض الوجه إلى حد الشحوب، كما كان معروفًا لدى المحيطين والمتعاملين معه باسم «الثعلب»، ليس لأن وجهه النحيل كان يشبه وجه الثعلب فقط، ولكن لأنه كان يستعمل المكر والخداع مع كل من تعامل معه، وكان من الصعب على أي ممن عرفوه أو احتكوا به، أن يتقوا في كلمة مما كان يقول إلا إذا كانت له مصلحة في ذلك... غير أن «إيلين» - بطبيعة الحال - كانت تعرف كيف تتعامل معه، فلقد كانت، قبل كل شيء، مزودة بقدر كاف من المعلومات عنه بحيث تجعله طوع بنائها... ولا أحد يدري ما الذي تم بينهما من حوار في تلك الليلة القارسة البرد... لكن المؤكد، أن الخادمة التي لازمت عائلة «هينرتش» لقربان عام، اعتذرت فجأة لظرف عائلي يضطرها إلى مغادرة أوتوا إلى تورنتو حيث تعيش ابنة لها متروجة من بحار يعمل على إحدى سفن الأسطول الكندي التجاري.

وهكذا كان على فراو «هينرتش» أن تتصل بمكتب الترخيم هذا، طالبة منه أن يمدّها بخادمة محل السيدة التي لم تعطها مهلة لأكثر من ثماني وأربعين ساعة... وكان الغريب في الأمر، أن الخادمة الجديدة، كانت هي هي نفسها، تلك السيدة التي كانت تعمل في إحدى المغاسل العامة، والتي كانت واحدة من «فريق الحماية» - المخصص للعنف والقتل - الذي زودت به «إيلين» بعد وصولها إلى أوتوا بقليل!!

من حسن الحظ، أن هذه السيدة الضخمة الجثة، والتي كانت تحمل وجهًا ملائكيًا، كما تحمل اسم «مارجريت فريش» لم تستطع الفرار أو الاختفاء في الوقت المناسب... وعندما ألقى القبض عليها، لم تقاوم، بل أدلت باعترافات كاملة!

قالت مسز «فريش» إن «إيلين» في البداية لم تطلب منها سوى العمل بإخلاص شديد، كما طلبت منها أن تجلس إلى الخادمة السابقة قبل سفرها، كي تستعلم منها عن عادات هذه العائلة وما يضايق أفرادها، وكان كل المطلوب منها بعد ذلك، أن تكتسب ود السيد «هينرتش» وزوجته واحترامهما معًا!

ولقد دهشت هذه السيدة التي كانت تعلم يقينًا أن العنف هو عملها الوحيد في تلك المنظمة التي كانت تدفع لها راتبًا شهريًا مجزيًا - هكذا أطلقت على الشبكة - وهي عندما حاولت أن تعبر عن دهشتها، رمتها «إيلين» بنظرة صارمة وهي تقول:

- ليس عيبًا أن تتعامل مع الآخرين بإنسانية!!

- ولكن ما هو المطلوب بعد كل هذا!؟!

- لا شيء أكثر من لقاء أسبوعي سوف نحدد مواعده فيما بعد!!

ولقد قالت مسز «فريش» للمحققين، إن تلك كانت فترة من أكثر فترات حياتها راحة وازدهارًا في نفس الوقت. فلقد كان عملها في المغسلة العامة يستغرق أغلب ساعات اليوم نظير أجر لم يكن يفي بحاجاتها الضرورية، في حين أن عملها عند المستر «هينرتش» لم يكن يستغرق سوى بضع ساعات في الصباح، وأحيانًا كانت تعمل لساعة أو ساعتين في المساء لقاء أجر إضافي إذا كانوا في حاجة إليها!

لم تكن مسز «فريش» تعلم في البداية، أن «إيلين» وضعتها في هذا البيت، تحسبًا لما هو قادم من أيام!

ولقد قالت هذه السيدة إنها لاحظت منذ اليوم الأول، أن العلاقة بين الرجل وزوجته، كانت متوترة على الدوام، وأنها لم تكن علاقة زوج بزوجته، بل كان ثمة شيء يجمع بينهما قسرًا... وإنها سمعت اسم «إيلين» ذات مرة يتردد بينهما لكنها لم تفهم مما قيل شيئًا لأنهما عادة كانا يتعاركان بالألمانية، كما سمعت مسز «هينرتش» تتحدث ذات ليلة وهي تذرف الدمع عن السكرتيرة التي أصبحت علاقة زوجها بها على كل لسان، وكان التشاحن ليلتها بالإنجليزية، وعقب دعوة على العشاء دُعي إليها نفر قليل من الأصدقاء.

وعلى كل، فلقد كانت أخبار هذه العائلة تصل دائمًا إلى «إيلين» - بفضل هذه السيدة الجميلة الوجه المتحجرة القلب - بدقة ملاحظتها وكأنها تعيش معهما!

لم تكن السيدة «فريش» بطبيعة الحال، تعرف في البداية حقيقة السبب وراء تواجدها في هذا البيت، حتى لقد شكت في لحظة، أن ثمة علاقة تربط «إيلين» بالسيد «هينرتش»، وأن هذه الفتاة الصغيرة السن، قد وقعت في غرام الرجل الذي كان، لفرط جاذبيته، من السهل عليه أن يوقع بفتاة في مثل سنها في حياته!

.....

.....

وعلى كل... فبوجود هذه السيدة في بيت «فريدريك هينرتش» وزوجته، اطمأنت «إيلين»، وراحت تمارس عملها في المحل على أكمل وجه... وكان طبيعيًا - قبل أن تتقضي ثلاثة أيام على زيارة ذلك الروسي الأبيض وزوجته، والذي عرفت أنه يحمل اسم «فاسيليف إيفانوني»، والذي استطاعت حاسته القومية أو الوطنية، أن تكتشف أن الدماء التي تجري في عروق «إيلين» سلافية، وأنه لولا لهجتها الإنجليزية القح، لقال إنها روسية - أن تتصل بهما حسب وعدها معلنة أنها استطاعت أن توفر لهما النوع المطلوب من الملابس، وأنها سوف ترسله لهما مع إحدى عاملات المحل، إن لم يكن لديهما الوقت الكافي للمرور عليها!!

وكان هذا مبعث سعادة الزوجة «إيفانوفنا» حقًا، فلقد رحبا بزيارة العاملة، وكان أيضًا مبعث سعادة لـ «إيلين» فلقد حصلت على عنوان البيت دون أن تبذل جهدًا يذكر، وعندما استأذناها في أن تمر بهما العاملة بعد ساعات العمل حتى يكونا قد عادا إلى البيت، قالت، إنه ليس في الأمر أية مشكلة على الإطلاق!

في المساء، كان الزوجان في انتظار العاملة وهما ممثلتان بالامتتان... وعندما دق الجرس في الموعد تمامًا، كانت المفاجأة أن «إيلين» بنفسها كانت هناك وهي تحمل عددًا لا بأس به من الأنواع المختلفة والجديدة من الملابس الداخلية للسيدات!

عقدت الدهشة لساني الرجل وزوجته، بينما اعتذرت «إيلين» عن حضورها دون أن تخبرهما، ذلك أنها اكتشفت أن العاملة التي كان المفروض أن ترسل معها البضاعة، كان لديها موعد مع صديقها في ذلك المساء... و...

- وبصراحة... لم يطاوعني قلبي أن أحرمها موعدًا غراميًا، فرأيت أن أحضر بنفسي كي أبر بوعدي... وأرجو ألا يكون حضوري قد سبب لكما أي نوع من الإزعاج!.

قالت «أنا إيفانوفنا» بعد عامين من اختفاء زوجها المفاجئ وهي تجيب عن أسئلة المحققين... إن «إيلين» كانت في غاية الدمثة... وأنها قامت بواجبها على الوجه الأكمل معهما وأنهما قدما لها شرابًا احتسته في رقة فتاة أرستقراطية... وأنهما - زوجها وهي- قد سعيا بعد ذلك إلى صداقتها التي استمرت إلى ما بعد اختفاء زوجها، فلقد كانت «إيلين» هي أول من هب إلى الوقوف إلى جوارها بعد اختفاء «فاسيلي» - اسم التذليل لزوجها- المريب والغريب!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كتب أحد المتخصصين في هذا المجال تقريرًا قال فيه: ... إن عبقرية هذه الفتاة تكمن في تلك المقدرة الفذة على اكتساب ثقة الآخرين، حتى لقد قامت بدورها، بما يشبه المعجزة!.

بدخول «إيلين» بيت السيد «إيفانوف» عرفت عنه كل شيء... عرفت أنه ولد في كندا - وكان هذا بالنسبة إليها تفسيرًا للغة الإنجليزية الخالية من أية لكنة غريبة- وأن أباه جاء إلى هذه الأرض وهو صبي صغير في صحبة جده الذي استطاع الهرب بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا... وأنه أصبح واحدًا من القلة الذين برعوا في علم الإلكترونيات، بحيث أصبح مشرفًا في إحدى الشركات العملاقة، على قسم كامل كان يمد الطائرات والسفن - خاصة الحربية منها- بكل ما يستجد من اكتشافات في هذا المجال الذي كان الاتحاد السو... يتي يسعى جاهدًا لمعرفة كل شيء عنه في الغرب!

كان «فاسيليف إيفانوف» وزوجته «أنا»، صيدًا ثمينًا بحق.

لكن الغريب في الأمر، أن المحققين اكتشفوا أنه في أثناء كل هذا النشاط المفزع، كانت «إيلين» تمارس حياتها بشكل طبيعي تمامًا، حتى لقد قال أحد الذين كرسوا وقتًا ثمينًا لدراسة حياة هذه الجاسوسة البارعة... إنه لا بد وأن يكون الإنسان فيها قد استيقظ أخيرًا... ذلك أنه لم يعرف منها، منذ وطئت قدمها الأراضي البريطانية، أنها أقامت علاقة عاطفية مع مخلوق... غير أنها، في تلك الأيام بالذات، كانت قد طورت علاقتها بـ «فرناندو كورتيز» إلى حدّها الأقصى، حتى لقد قال «فرناندو» للمحققين بعد اختفائها:

أيها السادة، أنتم مخطئون، فمن المحال أن تكون هذه الفتاة الشديدة الرقة والعدوية، والتي كانت تخطط معي في تلك الأيام للمستقبل، جاسوسة!.

قال «فرناندو» هذا ثم انفجر باكياً!

حتى إذا ما كان صباح، جاءها عبر الهاتف نداء هو إلى الاستغاثة أقرب، كانت المتحدثة هي «جروتروود هينرتش» التي هتقت باكياً، وربما صارخة:

«إيلين»... إني في حاجة إليك، ليس هناك من أستطيع اللجوء إليه إلا أنت!«
لم تكن «إيلين» تستطيع، إلا أن تلبى هذا النداء.

غير أنها - هي الأخرى- لم تكن تدري، أن هذا النداء بالذات، كان هو بداية الطريق
الذي سلكته نحو العنف، نحو القتل الذي اتخذت قرارها فيه بدم شديد البرودة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10 - قاتلة باردة الأعصاب! جروتروود تبوح بالحقيقة!

لم يكن ما قالته «جروتروود هينرتش» عندما التقت بـ «إيلين» جديدًا عليها... ذلك أن تلك السيدة «مارجريت فريش» التي احتلت مكان الخادم، قالت في اعترافاتها إن «إيلين» كانت تسألها في كل لقاء، عن أدق التفاصيل في حياة هذين الزوجين، وبخاصة تصرفات «الهرهينرتش»، حتى لقد كانت تسألها عن موعد تناوله فنجان القهوة في الصباح أو كأس شرابه بعد العشاء... ومتى وكيف وهل يغير من عاداته أم أنه يحافظ عليها في دقة؟!... ولقد لاحظت مسز «فريش» أن ما كان يعني «إيلين» في المقام الأول هو ما إذا كان «الهرهينرتش» تأتيه مكالمات غريبة بين الحين والحين، أو أنه كان يستقبل زوارًا يلتقي بهم في مكتبه وحده... غير أن شيئًا من هذا لم يحدث أثناء وجودها، ففوق أنها لم تكن موجودة طوال اليوم، ولم يكن هناك ما يدفعها إلى البقاء بعد انتهاء ساعات العمل ما لم يطلب منها هذا، فإن كل ما لاحظته أن العلاقة بين الزوجين كانت تسوء يومًا بعد يوم حتى أصبحت حياتهما نوعًا من الجحيم من الصعب احتماله.

كان واضحًا أن «مارجريت فريش» هذه، رغم قلبها المتحجر، كانت متعاطفة تعاطفًا شديدًا مع الزوجة التي كانت تنهار يومًا بعد يوم... حتى كان ذلك اليوم الذي اتصلت فيه «جروتروود» بـ «إيلين»، فلقد تعالت أصوات الزوجين واحتدم الشجار بينهما بالإنجليزية على غير العادة، حتى لقد سمعت «فريدريك» وهو يهدد زوجته بإرسالها إلى ذويها في ألمانيا الشرقية إن لم تكف عن ملاحظته ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة... ولقد سمعته، وهو يغادر غرفة النوم - كان البيت من طابق واحد- وهو يدمدم قائلاً:

- «إن الحياة معك أصبحت مستحيلة، ويبدو أنني سوف أزور أعمامي في القريب»
وكان معنى هذا أن الرجل يفكر في طلاق زوجته!

في ذلك الصباح الذي تحدثت فيه «جروتروود» إلى «إيلين» طالبة لقاءها، رحبت «إيلين»... وحينما أعادت السماع إلى مكانها، راحت تفكر، كانت الآن في حاجة إلى معرفة ما حدث قبل أن تلتقي تلك السيدة البائسة، وهي عندما نظرت في ساعة يدها، أدركت أن مسز فريش كانت لا بد قد وصلت إلى البيت، ولذلك... فلقد ظلت في بيتها لم تبرحه حتى أيقنت أن «جروتروود» قد غادرت البيت، فهتمت بأن تطلب مسز «فريش» في التليفون، لكنها ما كادت تفعل، حتى دق جرس التليفون وكانت المتحدث مسز «فريش»!

مرة أخرى ينتاب «إيلين» ذلك الإحساس الغامض الذي ينبئ عن مستقبل سوف تتسارع فيه الأحداث رغم الأوامر التي جاءت من موسكو بالتوقف عن النشاط... غير أنها قبل أن تغادر البيت للقاء «جروتروود هينرتش» أحست أنها أمام طريق مسدود، لم يكن من الممكن أن تتوقف، كما أنها وجدت أنها لا بد أن تتسلح لما قد يفاجئها من أحداث غير متوقعة... فما إن انتهت من حديثها مع «مارجريت فريش»،

والتي أمدتها بكل ما أرادت أن تعرفه عما حدث، حتى طلبت رقمًا كان واضحًا أنها تحفظه جيدًا.

كان الحوار من طرف واحد، طلبت ممن أجاوب عليها، وعلى جناح السرعة، كل شيء عن حياة «لويز ماك كورميك» سكرتيرة «فريدريك هينرتش» الآن... كانت تريد أن تعرف ما وصلت إليه علاقتهما، وموقف هذه البائسة من الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها، وهل عاد السيد «هينرتش» إلى زيارتها أم أنهما يلتقيان في مكان آخر.

وهكذا، ذهبت «إيلين» للقاء «جروتروود» وهي تعرف ما حدث بين هذه السيدة البائسة وبين زوجها بالتفصيل، وكان عليها، وهي في الطريق إليها حيث واعدتها على اللقاء في أحد محلات الوجبات السريعة، والذي تعودت «إيلين» أن تتناول فيه الإفطار بين الحين والحين، أن تفكر بسرعة، فلقد كانت هذه فرصة لا تعوض لكي تكشف سر هذا الرجل الذي قال عنه الرؤساء في موسكو، إن ماضيه ليس فيه ما يشين!!!

.....

.....

وجدت جروتروود في حالة انهيار كامل، كانت دموعها أسبق من كلماتها، وبدا الأمر غريبًا في ذلك المحل الذي كان يتسع في مثل هذا الوقت من اليوم عددًا محدودًا من الرواد مما قد يلفت الأنظار، ولذلك همست «إيلين»:

- لا بد أن تتماسكي «جروتروود»، إننا في محل عام وأخشى أن يراك أحد أصدقاء زوجك أو معارفه ولن تكون النتيجة مرضية!

توسلت جروتروود:

- لم أعد أستطيع «إيلين» إن الخوف يشل تفكيري!

- إذن هيا بنا!

كان هذا بالضبط ما تريد «إيلين»... كانت تريد الاختلاء بها في مكان تستطيع هذه السيدة أن تتحدث بلا حرج، وأن تبوح بما لا تستطيع أن تبوح به في محل عام... لقد صحبتها في سيارتها الصغيرة إلى بيتها، وهناك، قدمت لها شربًا قد يساعدها على أن تهدأ قليلًا... ثم تحدثت في الهاتف مع العاملة المسئولة عن المحل في غيابها، تعلمت أن تتحدث أمام «جروتروود» وبصوت واضح، قالت إنها لن تستطيع أن تذهب إلى المحل في فترة الصباح فثمة أعمال هامة عليها أن تنجزها، ثم راحت بعد ذلك تلقي ببعض الأوامر والتعليمات في استقامة صاحب العمل الواثق تمامًا من نفسه، مما دفع «جروتروود» إلى القول، بعد أن أعادت «إيلين» السماع إلى مكانها:

- لست أدري كيف أعتذر لك «إيلين».....

قاطعتها «إيلين»:

- لا عليك يا عزيزتي... المهم أن نعرف كيف نخرج بك من هذا المأزق المشين!

وراحت جروتروود تقص عليها كل ما حدث، والذي كانت «إيلين» تعرف معظمه من «مارجريت فريش»، حتى إذا ما انتهت، قالت وكان الكأس يرتجف في يدها:

- سوف أبوح لك بسر لا يعرفه مخلوق سواي!
 ربتت «إيلين» على كتفها ومسحت على رأسها في حنان وهي تقول:
 - فكري ألف مرة قبل أن تبوحى بأسرارك «جروتروود»!
 - لكنني في حاجة إلى البوح بما يثقل صدري!
 - لم لا تنتظري حتى ينحسر عنك الغضب!
 - لم أعد أستطيع، أشعر وكأني أحتق!
 نهضت «إيلين» وهي تتصنع الانفعال قائلة:
 - إن للحيطان آذانًا، وأنت تعرفين أن كندا مليئة بالسامعين الذين لا يريدون نسيان ما حدث لهم في ألمانيا إبان حكم هتلر!
 ما إن قالت «إيلين» هذا حتى سقط الكأس من يد «جروتروود هينرتش» وقد شحب وجهها شحوبًا عظيمًا... تحطم الكأس وسال ما به من شراب فوق الأرض وكانت هذه السيدة المسكينة ترتجف وهي تحملق في وجه «إيلين» وقد جحظت عيناها، ما لبثت أن قالت في فحيح من داخله رعب قاتل:
 - إذن فأنت تعرفين!
 تشاغلت «إيلين» برفع بقايا الكأس المحطم وتنظيف الأرض وكان الأمر لا يعنيهها... ما إن انتهت حتى جلست على مقعد مقابل لـ «جروتروود» وقد استرخت ملامحها. ها هي اللحظة الحاسمة تأتيها دون طلب، لقد قالت ما قالت ولم تكن في انتظار أن يأتي الجواب بهذه السرعة، كانت تلمح بطبيعة الحال إلى ما يمكن أن يفعله الإسرائيليون بالنازيين الذين كانوا يلاحقونهم في أربعة أركان الدنيا... ساد الصمت على المكان لثوانٍ فعادت «جروتروود» إلى القول بصوت مرتجف:
 - هل كنت تعرفين طوال الوقت؟!
 - ليس من الصعب أن يتكهن الإنسان بما يحاول الآخرون إخفاءه!
 - إن اسمه الحقيقي ليس فريدريك!
 - كفي عن هذا الحديث ولا تنسي أن الرجل زوجك مهما كان الأمر!
 - لقد كان عضوًا في الشبيبة النازية!
 كان هذا هو كل ما تريد تلك الفتاة البارعة معرفته، صح حدسها وانكشف المستور وجاءها تفسير كل الظواهر التي لفتت نظرها والإجابة عن كل الأسئلة التي راودتها... رغم غبظتها الشديدة وإحساسها الغامر بالانتصار فلقد نهضت قائلة في صرامة:
 - «جروتروود»... إنك لا تعرفين مدى الخطر الذي يتهدد زوجك لو أن هذه الحقائق وصلت إلى البعض!
 لانت ملامح «جروتروود»، وراح الدمع يهطل من عينيها وهي تردد:
 - كم أنت رائعة «إيلين» أنا لا أكاد أصدق نفسي!
 مالت «إيلين» نحوها وهي تقول:

- مهما كانت أخطاء زوجك أو حتى خطاياها... فهل يستحق منك أن تسلميه إلى الإسرائيليين؟!

صمتت «جروتروود»:

- ولكنني أشهد أمام الله أنه شديد الإخلاص لهذا الوطن!

- أعرف هذا!

- لكنك لا تعرفين كم عدد المغريات التي تحيط به، ولا تعرفين مدى صلابته في حبه لهذه الأرض وكأنه ولد فوقها!

ابتسمت «إيلين» وهي تقول:

- ها أنت تدافعين عنه لمجرد الإحساس بما يحيط به من خطر!

- بماذا تتصحين إذن؟!

وهكذا راحت «إيلين» تتحدث عن الضغوط التي يعانيها العلماء والعباقرة، وعن خطورة الأبحاث التي يقومون بها والسرية اللازمة، لإنجاح هذه الأبحاث فقط، ولكن أيضًا حتى لا تتسرب إلى الآخرين!

ولقد مضت ساعتان كاملتان تحدثت فيهما «جروتروود»، أفضت لـ «إيلين» بالحقيقة كاملة...

كانت تشعر كما قالت بعد أنها تخفتت من ثقل هائل كان يجثم فوق صدرها، ولقد قالت هذه السيدة للمحققين:

- لقد اكتشفت أن سر عصيبي هي رغبتى الدفينة في الانتقام من هانز بعد كل ما صنعتته من أجله، وبعد كل ما صنعه هو بي... وما كان من «إيلين» إلا أن أزاحت هذا الكابوس من فوق صدري، وجعلتني أعود إلى البيت وقد عادت كل الأشياء والأفكار إلى حجمها الطبيعي... وإن أنس فلن أنسى أن «إيلين» طلبت مني ألا أذكر لهانز كلمة عما دار بيننا، ذلك أن معرفته بأن سره قد خرج، قد يعوقه عن الإبداع والعمل!

لزمت الصمت لثوانٍ ثم أردفت:

- كم كانت رائعة هذه الصديقة... كم كانت رائعة!!!

.....

.....

وفي حقيقة الأمر، فلقد كانت «إيلين» تخشى أن تبوح هذه السيدة بسر زوجها فيطير العصفور بكل ما لديه من معلومات من يديها، لم يكن يعنيه بطبيعة الحال أن يعثر عليه الإسرائيليون أو يغتالوه، كان همها كله منصباً في الحصول على ما وصل إليه من هذا القسم السري من مصنع الكيماويات الذي يعمل به!

ولقد سأل المحققون «جروتروود»، إن كانت «إيلين» قد سألتها أو تحدثت معها عن المشروعات السرية التي كان زوجها يقوم بها، فجاءهم الجواب حاسماً:

- أبداً... إنها حتى لم تفكر في الحديث حول هذا الأمر!

وعندما أبدى أحد المحققين دهشته طالبًا منها أن تتذكر جيدًا ما دار بينها وبين «إيلين»، قالت:

- «وحتى لو كانت قد سألتني، فأنا لم أكن أعرف شيئًا عن هذا المشروع، كل ما عرفته من هانز أن ثمة مشروعًا سرّيًا وخطيرًا يعمل به، لكنه أبدًا لم يتحدث معي عنه!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء جاءت المعلومات الخاصة بالسكرتيرة، فبدت لـ «إيلين» غريبة... بل بدت لها بعيدة عن المنطق... قال أحد جيران هذه السيدة وهو يردد في مشرب قريب من البيت، إن ذلك السيد الثري الذي كان يتردد عليها، لم يزرها خلال الأسابيع التي انقضت منذ غادر البيت غاضبًا، سوى مرة واحدة، وأن الزيارة، حسب ما قالته له زوجته، لم تدم لأكثر من ثلاثين دقيقة غادر البيت بعدها وكان يبدو راضيًا... وأن «لويز ماك كورميك» انقطعت بعدها عن الذهاب إلى العمل وقد انتفخت بطنها بشكل واضح، ولا أحد يعرف كيف كانت تعيش، لكن المؤكد - هكذا قال من رآها بعد تلك الزيارة- إنها كانت في حالة نفسية جيدة، وأن البسمة عادت إلى شفتيها مرة أخرى... وكانت كل تصرفاتها تدل على أن شيئًا لم يعد يشغل بالها سوى ذلك الجنين الذي كان ينمو في أحشائها يومًا بعد يوم، وأنها باتت تترقب وصوله بشغف شديد!

ولقد راحت «إيلين» تضرب أخماسًا في أسداس في محاولة لمعرفة السبب وراء هذا التغيير الذي طرأ على سكرتيرة الهر «هينرتش»، بل إنها كرست الأيام التي تلت ذلك في محاولة معرفة السر دون جدوى، فلقد ظل هذا الأمر سرًا مغلقًا لم تستطع الوصول إليه رغم تعدد الأساليب التي اتبعتها، والتي كان منها أن دفعت - عن طريق أحد أصدقائها- مبلغًا من المال إلى مساعدة الطبيب الذي كانت «لويز» تتردد عليه لمتابعة حملها، وكان كل ما استطاعت مساعدة الطبيب هذه أن تصل إليه، أن «لويز» قد استراحت - بعد تردد طال- عندما اتخذت قرارًا بالإبقاء على الجنين، وأنها سوف تعيش، وحتى تضع المولود المنتظر، على مدخراتها التي ادخرتها طوال السنوات الماضية!!

كان هذا كل ما استطاعت «إيلين» أن تتوصل إليه وهو لم يكن مقنعًا بأي حال من الأحوال... ولا بد أنها اعتبرت نفسها قد فشلت في الوصول إلى الحقيقة التي أفضت بها «لويز ماك كورميك» بعد ذلك للمحققين... فلقد قالت والحزن يعصرها اعتصارًا... إن «فريدريك» عندما زارها تلك الزيارة الأخيرة، بدا لها مسكينًا تمامًا، بل كان يبدو محطمًا... قال إنه لم ينجب أطفالًا، وأن شوقه إلى طفل كان أكبر من شوقه إلى أي شيء آخر... قال إنه لا يستطيع الانفصال عن زوجته لأن هذا قد يقضي عليها، فوق أن هذا الانفصال من الممكن أن يدمر مستقبله بل حياته كلها... ثم أضاف: إنه لا يعارض في الإبقاء على الجنين، بل إنه تعهد، وقد أقسم بشرفه، أنه سوف ينكفئ بمصروفات الحمل والوضع كاملة، فوق أنه سوف يخصص لها مبلغًا شهريًا من المال، شريطة أن تستقيل من عملها وأن تتفرغ للجنين... قال هذا ثم أضاف باسمًا:

- لا أريد لولدي أن يولد عليلاً أو ضعيفاً!!

ثم بعد لحظات أضاف:

- ولن أمانع إذا ما أعطيته اسمي، شريطة أن يظل هذا سرًا بيننا!

لكن صرامته عادت إليه وهو يردد:

- على أنك لا بد ألا تتوقعي أن تدوم علاقتنا، إن استمرار العلاقة من شأنه أن يؤثر على حياتي، وبالتالي، سوف يؤثر على أدائي في العمل... وأنت تعرفين خطورة المشروع الذي أعمل فيه دون شك!

قالت مس «ماك كورميك» هذا ثم أضافت:

أنا لم أكن أريد أكثر من ذلك... لم أكن أريد سوى الاحتفاظ بطفلي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا عادت «إيلين» إلى الكمون مرة أخرى مستجيبة لأوامر الرؤساء في موسكو... غير أنها لم تكن تدري أنه مع نهاية فصل الشتاء. سوف تهب عليها الأحداث كالأعاصير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11 - قاتلة باردة الأعصاب! السير فوق حافة الخطر!

قال أحد الذين خاضوا في حياة تانيا راديونسكا وتتبعوا آثارها بعد اختفائها ذلك المريب، إن فصل الشتاء ذلك، كان يعتبر من أجمل الشهور التي مرت بهذه الجاسوسة الرهيبة... ذلك أن الهدوء كان هو السمة الغالبة في حياتها... فمن ناحية، لم يكن مطلوبًا منها أن تتشط بأي حال من الأحوال، بل كان عليها أن تعيش حياة عادية للغاية، كأية فتاة من فتيات كندا اللواتي يملكن قدرًا من اليسار وفرتة لها تلك التركة التي ورثتها... وبدخولها عالم الكمون، منيت كل التحريات التي اشترك فيها رجال الأمن الكندي مع مندوبي المخابرات الأمريكية بالفشل الذريع، فعلى مدى شهور ثلاثة أو أربعة، لم يستطع هؤلاء الذين كانوا يبحثون عن تلك الشبكة الرهيبة للتجسس، والتي كانت تمد موسكو بذلك الكم الهائل من المعلومات، أن يصلوا إلى شيء، أم حتى خيط يستطيعون فيما هو قادم من أيام أن يتبعوه.

ومن ناحية أخرى، فلقد ساد بيت «الهرهينرتش» الهدوء، وخفت حدة الخلافات بينه وبين زوجته، بعد اتفاه الذي أبرمه مع سكرتيرته «لويز ماك كورميك» والذي جعل «فراو هينرتش» تشعر بمزيد من الأمان والاطمئنان بعدما أخبرها زوجها أنه قرر الاستغناء عن سكرتيرته، بل وقرر فصلها من عملها بالمصنع كله، حتى يريح نفسه من تلك المعاناة التي أقحمتها فيها دونما سبب حقيقي!! حتى لقد قالت جروتروود لـ «إيلين» بعد أسبوعين أو ثلاثة من لقاها ذلك الأخير، وكانت تشعر بالسعادة:

- لقد عاد «فريدريك» إلى رشده أخيرًا!

وعندما أبدت «إيلين» - التي كانت تعرف بالطبع كل التفاصيل - دهشتها، أضافت جروتروود:

لقد عاد إلي أخيرًا «إيلين»، عاد إلي مرة أخرى!

ولقد كانت «إيلين» تعرف - عن طريق مسز «فريش» - كل هذا، لكنها لم تنس أن تنبه جروتروود إلى عدم ذكر أية تفاصيل عن الحوار الذي دار بينهما حول زوجها، مضيعة في لهجة الصديقة الوفية:

- إن الرجل، أي رجل، لا يشعر بالأمان مع زوجة تبوح بأدق أسراره حتى لأقرب صديقاتها!!... وعلى كل...

فلقد كانت تلك الشهور كفيلة بأن توطد الصداقة بين «إيلين» وبين صديقها الروسي الأبيض «فاسيليف إيفانوف» وزوجته «آنا»، اللذان كانا دائمًا ما يوجهان لها الدعوة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما، مما سهل عليها معرفة كل شيء عنهما... وكان أهم ما عرفته في تلك الفترة أن «فاسيليف» هذا يعمل في مشروع لتطوير أجهزة التنصت الإلكترونية، والتي كانت تخطو - في تلك الأيام - نحو ثورة في هذا العلم، خاصة تلك الأجهزة الخاصة بالتجسس، مما جعل «إيلين» تتحرق شوقًا لمعرفة كنه هذه التطورات الجديدة، وكان هذا في حد ذاته، كفيلاً بأن يجعلها تقترب منهما أكثر... حتى إذا ما كان مساء خرجت معهما لتناول العشاء في أحد

المحلات، وشرب السيد «إيفانوف» كمًا لا بأس به من الفودكا الروسية، راح يتحدث فيها عن روسيا الحقيقية لا الاتحاد السوڤيتي الذي استولى عليه شرذمة من الرعاى... ثم همس وقد تلاعب الخمر برأسه قائلاً: إن السوڤيت تقدموا في بعض علوم الإلكترونيات تقدماً دفع الغرب إلى التسابق معهم في هذا المضمار، وأنه كان وراء اكتشاف جهاز للتنصت ابتكره الروس - كان يكره كلمة سوڤيت ويرفض استعمالها حتى في حياته العادية- وأن اكتشافه هذا قاده إلى طريق جديد ساعده على ابتكار جهاز جديد للتنصت بدأت تجاربه الأولى تبشر بنتائج مذهلة... ولقد كانت «إيلين» - هكذا قالت «أنا إيفانوفنا» فيما بعد- تبدو متململة كلما تحدث زوجها في مثل هذه الأسرار، وعندما أبدى فاسيلي - اسم التدليل- دهشته، قالت له «أنا»:

- كيف لبائعة ملابس داخلية أن تفهم في مثل هذه الأمور العلمية المعقدة!

وبلا أدنى شك، فلقد كانت هذه براءة من «إيلين إيستمان» تؤكد قدرات هذه الجاسوسة الفذة؛ ذلك أن فاسيليف كان يتحدث شوقاً لأن تبدي هذه الفتاة البريطانية المحافظة بعضاً من الاهتمام به... ولم يكن هذا يخفى على «إيلين» بطبيعة الحال، فكانت - في بعض الأحيان- تسأله - وكأنها تجادله- عن أخبار جهازه الجديد ومدى التقدم الذي أحرزه... فإذا ما انطلق في الحديث شارحاً، انتابها الملل في وضوح لم يكن يخفى على زوجته... وعلى كل، فقد عثر في بيت «إيلين» بعد اختفائها، على قصاصات من ورق في مخبأ سري خلف أحد أدراج دولاب ملابسها، وقد كتبت فيه بعضاً من تلك المعلومات التي كان «فاسيليف» يثرثر بها!!

أما «فرناندو كورنيز»، فالذي لا شك فيه أنه كان يعيش في ذلك الوقت أجمل أيام عمره على الإطلاق... كانت علاقته بـ«إيلين» قد أصبحت شبه رسمية، فلقد كانت تزوره في مسكنه أكثر من مرة في الأسبوع... وبدت تلك الفتاة في مجتمع أوتوا، فتاة بريطانية جذابة ونشيطة وتعيش حياة مثالية بعدما تأكد للجميع أن العلاقة بينها وبين «فرناندو» تكاد تكون رسمية، وإن كان هنالك ما يعوق إعلان خطبتهما، فإن الأمر أصبح أياماً أو أسابيع!!

ولقد قال «فرناندو» للمحققين: إنه لم يشعر في حياته بالاستقرار والأمان، حتى وهو يعيش في وطنه وفي بيت أبيه، مثلما عاش تلك الشهور القارسة البرد، التي حولتها «إيلين» إلى شهور شديدة الدفء... حتى العاملات اللواتي كن يعملن في المحل، شهدن جميعاً بأن «إيلين» في ذلك الشتاء كانت بالنسبة لهن ملاكاً... فلقد كانت تهتم بمساكلهن وحياتهن وحتى علاقاتهن الغرامية... ولقد قالت إحداهن، وكانت مخطوبة لبحار في البحرية الكندية: إن كرم «إيلين» ورقتها وصلتا إلى حد أنها تكفلت بكل المصروفات الخاصة بحفل الخطوبة الذي أقيم في أحد الفنادق المتوسطة!

.....

.....

ذات مساء كانت جروتروود تقضي المساء مع زوجها أمام جهاز التلفزيون، وعندما نهضا كي يأويا إلى الفراش راحا يثرثران في أمور شتى، وكان طبيعياً أن يعرج الحديث على «إيلين»، وإذا بهذا المهندس الألماني المتعجرف يعترف لزوجته بأنه أخطأ في تقديره لهذه الفتاة... مما دفع «جروتروود» - بتوجيه من زوجها- إلى دعوة «إيلين» مع «فرناندو» إلى العشاء مرة أخرى، لكن «إيلين»، بحاسة الجاسوسة

المدربة كانت تدرك أن أية علاقة مع هذا النازي السابق، سوف تدفعها إلى كسر فترة الكمون التي تعيشها فاعتذرت... ولقد قالت «جروتروود» إن الدعوة قد تكررت بعد ذلك مرة أخرى، لكن «إيلين» اعتذرت أيضاً، حتى إذا ما حل الربيع وحن موعِد عيد الفصح، اقترح على «جروتروود» أن تكرر الدعوة لـ «إيلين» و«فرناندو» لقضاء عطلة عيد الفصح على إحدى الجزر التي يمتلئ بها مجرى نهر سانت لورانس، وعندما فعلت، كان الرد سلبياً للمرة الثالثة، مما دفع «الهرهينرتش» إلى الاتصال بـ «إيلين» شخصياً!

كان هذا الاتصال مفاجأة لم تتوقعها «تانيا راديونسكا» أو «إيلين إيستمان»... وعندما دق جرس التليفون ذات مساء في بيتها، كانت تفكر في عدم الرد... ذلك أنها كانت، منذ ساعات قليلة، قد تلقت أمراً من الرؤساء في موسكو يطلبون منها معاودة النشاط ولكن بحذر شديد، مع تحديد عدد من المهمات الملحة... وكانت «إيلين» قد قررت تخصيص الليلة في الاستعداد لما سوف تقوم به من نشاط وكيف ومتى وأين وبأي أسلوب... غير أن التليفون ظل يدق في إلحاح دفعها لأن ترفع السماعة متصنعة النوم، فإذا صوت «فريدريك» يأتيها محتدماً:

- أريد جواباً صريحاً أنسة «إيستمان»، لماذا ترفضين كل دعوة نوجهها إليك!
في ذلك المساء، عاود «إيلين» ذلك الإحساس الغامض بأن المستقبل يخفي في أيامه أحداثاً ليست في الحسبان.

كان صوت الرجل رغم محاولته إضفاء نوع من المرح عليه، يحمل تحدياً من نوع خاص... تذكرت الأنباء التي جاءت قبل أسبوعين بأن سكرتيرته قد وضعت مولوداً ذكراً، وأن باقة من الورود قد وصلتها عشية ذلك اليوم، ومعها بطاقة تهنئة موقعة باسم «فريدريك» ليلة العشاء... ولذلك، فلقد قررت أن يكون ردها حاملاً لنفس لهجة التحدي، قالت:

- لأنني على يقين من أن كل دعوة كانت تأتيني من «جروتروود»، كنت أنت تقف وراءها!

كان الرد حاسماً ورادعاً مما أوقع الرجل في مأزق، ولقد لزم الصمت لثوانٍ قال بعدها:

- ما الذي يدفعك إلى مثل هذا القول؟!

- تصرفاتك!

كانت «إيلين» الآن ودون ترتيب سابق، تعرف يقيناً أن تسير على حافة الخطر، أجاب «فريدريك»:

- وماذا إذا كان الأمر كذلك؟!

- إذا كان الأمر كذلك، فلم لا تفعله أنت؟!

هم «فريدريك» بالرد على الطرف الآخر، فإذا هي توجه إليه لطمة لم يكن يتوقعها:

- لا تنس «هرهينرتش» أنني بريطانية تؤمن بالديمقراطية!

كانت جملتها تمثل طعنة وجهت إلى الرجل الذي جاءها صوته يحمل لمحة من ارتجاف:

- ما الذي يعنيه قولك هذا؟!
- إن له معنى واحداً ومحددًا!
- هل لك أن توضحه بعض الشيء؟!
- ببساطة، هناك فرق كبير بين الديمقراطية البريطانية والنازية الهتلرية!
- هوت إجابتها على «فريدريك» مثل صفة أدارت رأسه، لكنه تمالك كي يقول:
- ألم يصل إلى علمك أن النازية قد اندحرت، وأن هتلر قد انتحر، وأن في ألمانيا الآن ديمقراطية ربما علت الديمقراطية الإنجليزية!
- إن الشكل لا يخفي الحقيقة «هر هينرتش!».
- هل أفهم من هذا أنك تتهميني بالنازية؟!
- أنا لم أقل هذا... بل ربما لم يخطر لي على بال!
- كيف وأنت تقارنين بين نازية هتلر وديموقراطية تشرشل!
- ربما كان هذا ناتجًا عن إحساس غامض أحسست به في لقائي الوحيد معك!
- وما هو هذا الإحساس؟!
- إن بقايا من نازية هتلر لا تزال عالقة بثيابك!

كان الحوار ساخناً، بل كان ملتهباً، مما دفع الرجل إلى صمت دام لثوان، وكانت «إيلين» تشعر في تلك اللحظات بقوة وتدفق أعطاها ثقة بالنفس، فلم تأبه للحذر ولم تفكر فيه... ورغم طول فترة الصمت فهي لم تتحدث، ولم تفكر في أن تسأل إن كان لا يزال على الطرف الآخر... تلك كانت لحظات رهيبة قامرت فيها «إيلين» بكل شيء، بكل نجاحاتها التي حققتها منذ أن بدأت العمل في كندا، ورغم تلك الثقة بالنفس، فإنها كانت ترتجف شوقاً لمعرفة رد فعله، إذ على هذا الرد بالذات تتوقف أشياء كثيرة بالغة الأهمية... وعلى كل، فقد جاءها صوته أخيراً كي يقول:

- فماذا لو أنني قلت لك إنه يسعدني أن تقضيا - «فرناندو» وأنت- إجازة عيد الفصح معنا؟!

- لا أستطيع أن أعطيك جواباً الآن، فلا بد أن أناقش «فرناندو» لأن لنا مشاريع أخرى!

كان ردها عليه علامات انتظار كاسح!

.....

.....

قالت «جروتروود هينرتش»، أرملة «فريدريك» فيما بعد: إن زوجها عاد إلى البيت في تلك الليلة شاحب الوجه، وأنه لم يبح لها بسر سهومه وشحوبه، لكنه أخبرها أنه تحدث مع «إيلين» ووعدت بالرد بعد مناقشة «فرناندو»، قال هذا ثم أردف:

«جروتروود»... إن صديقتك هذه تملك عقلاً من الصعب أن يتجاهل الإنسان قدراته! لكنه لم يتفوه بكلمة عن السبب في قوله هذا!

إن مثل هذا الحوار يبدو لنا شديد الأهمية، لا لأنه يجري بين جاسوسة مدربة ورجل على قدر عظيم من الذكاء؛ ولكن لأنه حوار يشي بصاحبيه دون مواراة... حوار اعترف فيه «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» أنه كان نازياً، وإن كان اعترافه جاء ضمناً وغير مباشر، فإن تهديد «إيلين» له كان مباشراً وينبئ عما تريده بالتحديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدو هذه الجزر الصغيرة في مجرى نهر سانت لورانس بكندا، مثل نتوءات صخرية تعترض مجرى النهر، حتى إذا جاء الربيع وانحسر برد الشتاء، تحولت هذه الجزر إلى جنات صغيرة متناثرة على صفحة مياه هذا النهر الذي يصل فيما بين المحيط الأطلسي شمالاً، وبحيرة أوناريو جنوباً... فما إن يهمل الربيع حتى تنمو الزهور في كل مكان وتتفتح كي تحيل المشهد كله إلى لوحة طبيعية أخاذة، فإذا ما أضفنا إلى كل هذا أن أصحاب هذه الجزر يبنون فوقها أكواخاً تتناسب في أحجامها مع مساحة كل جزيرة، بدا الأمر كله كأنه حلم!

لقد وصل «فريدريك» وزوجته ومعهما «إيلين» و«فرناندو» ليلة عيد الفصح إلى إحدى تلك الجزر... والذي لا شك فيه أن الرحلة كانت ممتعة رغم طول الطريق، كما أن كثيراً من الجليد قد ذاب بين «فريدريك» و«إيلين» مما جعل «جروتروود» تبدو في حالة من السعادة لم تذقها من قبل... بعد يوم قضياه في الكوخ الجميل المؤثت بأناث بسيط وإن كان مريحاً، دعا «فريدريك» «إيلين» إلى رحلة صيد في صباح اليوم التالي... تركا «فرناندو» و«جروتروود» وحدهما، وانطلقا في زورق صغير إلى جانب من الشاطئ بدأ ملائماً للصيد... ما إن استقر بهما المقام، حتى سأل «فريدريك» متودداً:

- ماذا في ذلك الشخص الذي كان يعاني من مشكلة في المصنع «إيلين»؟!

نظرت إليه «إيلين» في دهشة، فإذا به يردف:

- لقد تحدثت معي بشأنه ليلة أن تناولت العشاء عندنا!

وهنا... حدث ما جعل الدهشة تجتاح «فريدريك»، ومع الدهشة، كان هناك خوف عريبيد قد استولى عليه... فلقد انطلقت «إيلين» تضحك وتضحك حتى دمعت عيناها، وكان في ضحكاتها رنة سخرية لم تخطئها أذنا الرجل، فماذا كان وراء تلك الضحكات التي بدت له شيطانية؟!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12 - قاتلة باردة الأعصاب!

الحوار الدامي..

ما إن استقلت «إيلين» مع «فريدريك» ذلك الزورق المطاطي الصغير حتى أدركت أن الرجل يعرف تضاريس المكان جيداً، فلقد وقع اختياره على منحني من الشاطئ تحيط به أشجار الشمال الساقعة... كان المشهد أمامهما ساحراً بكل المعاني، فعلى مرمى البصر كانت الجزر الصغيرة تنتشر مزدانة بورودها التي كانت تتمايل مع هبات حانية من ريح لاتزال تحمل برد الشتاء... على البعد كانت السفن العملاقة تعبر النهر من الشمال نحو الجنوب أو العكس... ورغم البرودة التي حملتها رياح الشمال فإن الجو كان صحواً، وكانت الشمس ترسل أشعتها الواهنة من خلال نتف السحاب السابحة في الفضاء... كل شيء كان يوحي بأن هذا الرجل وهذه الفتاة، إنما يجلسان في خلوة غرامية، ومن المحال أن يفكر أحد أن الحوار الذي كان يدور بينهما وهما يرقبان معنوياتهما، إنما هو حوار دامٍ سوف يؤدي - بعد أيام قليلة- إلى أن يصدر أحدهما أمراً بالاستعداد لقتل الآخر!

والذي لا شك فيه أن «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»، قد أحس بالإهانة لضحكات «إيلين» التي أطلقها وكأنها سمعت نكتة عندما سألها عن ذلك الشخص الذي حدثته عنه يوم تناولت طعام العشاء في بيته... اربد وجهه، وركز عينيه نحو الصنارة، حتى إذا ما انتهت من الضحك سألها:

- هل لي أن أعرف سبب ضحكائك؟!

اختفى الضحك والتظاهر بالمرح واكتسى وجه الفتاة بطبقة جليدية صارمة وهي تلتفت نحوه مسددة إليه نظرات بالغة القسوة... سألته بدورها:

- «هر هينرتش... أمازلت مقتنعاً بأن الجنس الألماني يفوق كل أجناس الأرض؟!».

احتقن وجه «فريدريك» وهو يدمدم في غضب:

- «إيلين إيستمان... إن هذه الفكرة... ..».

قال هذا ثم أمسك عن الكلام، فلقد أدرك أن الفتاة قد استطاعت أن تقفده أعصابه... انتبه إلى أنه - نتيجة انفعاله- كان يتحدث بالألمانية... وعندما نظر إلى «إيلين» لم يجد سوى ابتسامة هادئة تشي بذلك.

لم تجب «إيلين».. التزمت الصمت.. فوق الرجل في حيرة. ورغم أن خيط صنارته الآن كان يلعب الكرة الصغيرة فوق الماء مما يدل على أن ثمة سمكة قد التهمت الطعم واشتبكت بالصنارة، فإنه ظل جامداً في مكانه حتى جاءه صوت «إيلين» دقيقاً حالماً كأنها قد تحولت في لحظة بصر إلى إنسان آخر:

- فريدريك، إن صنارتك تناديك!

هكذا بلا ألقاب، وهكذا ألقت بشباكها حوله فسقط دون إرادة منه - حاول جذب الصنارة لكنه كان مرتبكاً، وضعت صنارتها جانباً ونهضت كي تساعد، تشابكت أذرعهما في لحظة وهي تدير عجلة الخيط ساحبة السمكة من المياه، حاول

مشاركتها فلم يستطع، ترك قيادة الصنارة ولم يكن يعلم أنه يترك لها قيادة حياته إلى حيث تريد!

ولقد مضت لحظات بعد إخراج السمكة ساد فيها الصمت، عادت إلى مكانها بينما كان هو يرتجف بالانفعال والرغبة معاً، كان يشعر بالهزيمة الساحقة، استطاعت «إيلين» أن تسيطر حتى على أفكاره، لكنه في محاولة لاستجماع نفسه قال:

- إنك لم تجيبي عن سؤالي حتى الآن!

- لا بد لي من الاعتذار أولاً لأنني ناديتك باسمك الأول ودون ألقاب!

- لا عليك... أجيبي عن سؤالي من فضلك!

- لقد سألتني عن ذلك الشخص الذي كان يعاني من مشكلة في المصنع، أليس كذلك؟

- هو كذلك!

هكذا هتف في نفاذ صبر، فقالت:

- لقد كان هذا منذ بضعة أشهر.

كان يعلم أنها على حق وأنه كان مخطئاً فنظر إليها في عتاب بدا صارخاً فأردفت:

- لقد حُلت مشكلته ولم يعد هناك ما يدعو لأن تشغل بالك بالأمر.

- وكيف حُلت مشكلته؟!

- قدم استقالته من المصنع.

قالت ببساطة جعلته يرتجف، وإذا كانت أفكاره في البداية قد حامت حول سكرتيرته «لويز ماك كورميك»، فلقد كانت إجابتها الآن تنطبق على «لويز» التي أنجبت له منذ أسابيع طفلاً كان يتحرق شوقاً لرؤيته.

- وهل وجد عملاً آخر؟!

هكذا سألها كالمتوسل فضحكت متسائلة بدورها:

- ما سر اهتمامك بإنسان لا تعرفه؟!

- ربما كنت أعرفه.

- وهل من حقي أن أبوح بأسرار أصدقائي دون استئذان؟!

كالمطرقة التي تهوي فوق رأسه جاء جوابها:

- ألم يحن الوقت كي نكف عن هذه المباراة السخيفة!

- ألم تعد «فرناندو» بأن تتصل به تليفونياً بعد أن سألتني إن كان يقبل العمل في مصنعكم؟!

هتف «فريدريك» في استنكار:

- لا أحسبك قد أخبرته بالأمر!

- وهل كان الأمر سرّاً كي أحجبه عنه؟!

هم بالرد فأردفت:

- ألم تلجأ إليّ كي أسأله إن كان يقبل؟!

- ولكني... ..

قاطعته:

لقد ظننت عندما أخبرني أنك طلبت منه رقم تليفونه أن الأمر ليس سرًّا، وأنتك... ..

لم يمهلها، صاح في عصبية:

- أنت تعرفين أن مثل هذه الوظائف تحتاج إلى الكثير من الخطوات قبل البت فيها!

- فلم عرضت الأمر عليه وعليّ بالتالي قبل أن تبت فيه؟!

- «مس إيستمان، إن هذه المصانع لا توظف سوى الموثوق بهم!».

- هل تقصد ذلك المشروع السري الذي تعمل فيه؟!

قالت «إيلين» هذا، فشحب وجه «فريدريك» شحوبًا دفعها إلى السؤال:

- هل أخطأت في حديثي؟!

- من الذي أخبرك أن هناك مشروعًا سريًا يعمل فيه المصنع؟!

- صديقي صاحب المشكلة!

تلقت «فريدريك» حوله في رعب كمن مسه شيطان، راح يدمدم بالألمانية فاستغرقت «إيلين» في مراقبة صنارتها... كانت الآن مدركة أن الرجل فقد كل قدرة له على التفكير السليم... وأن انكشاف الأمر بالنسبة إليها أصبح يخيفه ويؤرقه... غير أنه تمتم بعد لحظات:

- هل تحدثت إليك «جروتروود» في هذا الموضوع؟!

- لولا يقيني أن «جروتروود» ألمانية الأصل والعرق، لقلت إن عنصرينك تأبى ألا تنسب إليها ما يشين!!

- ما الذي تعنيه بالله عليك؟!

واجهته في صرامة:

- صدقني أنك لا تستحق زوجة مثل هذه السيدة المسكينة!

- إيلين!!

- إن زوجتك أكثر حرصًا عليك من نفسك، إن جروتروود لم تتفوه معي بكلمة عن عمك، لا لشيء، إلا لأنها - وهذا يقيني - لا تعرف عنه شيئًا!

لم يعد أمام «فريدريك» إلا أن يسحب صنارته من المياه، وأن يترك مكانه مستأذنًا منها متوغلا بين أشجار الشاطئ وحده... ظلت «إيلين» في مكانها لا تبرحه، كانت الآن تستحلب طعم الانتصار، كما كانت مدركة أنها اكتسحت معاقل «فريدريك» حتى وصلت إلى القلب منه. فتركته لحاله، واستغرقت في التفكير.

كانت الخطوة التالية تستلزم منها الحذر الشديد، وإلا فقدت كل ما ربحته حتى الآن!

بعد دقائق قليلة عاد «فريدريك» كي يطلب منها أن تصاحبه في التريض وسط الأشجار، عندما نظرت إليه بدائها بدا كأنه قطع من الدقائق التي غاب فيها عشرين عامًا من عمره... ويقينًا، فلقد فكر «فريدريك» في تلك الدقائق التي مرت به وحده

أن أسلم السبل هو إبلاغ السلطات عن هذه الفتاة الغريبة... غير أنه وجد نفسه كمن يخطو بإرادته في سجن لا فرار منه... فماذا لو كان هذا الشخص الذي تحدثت عنه «إيلين» كان سكرتيرته «لويز ماك كورميك»... إن مثل هذا التبليغ كفيلاً بأن يضع «لويز» في موقف لا تحسد عليه، فماذا سيكون مصير ولده لو أن الأمر أدى إلى القبض عليها؟! وماذا لو قالت «لويز» إنه كان ضالعاً معها حتى لو كان الأمر من باب الانتقام؟! باب الانتقام؟! باب الانتقام! باب الانتقام!

أحس الرجل أنه محاصر بما لا قبل له به، وأن هذه الفتاة، وإن كانت تمثل له خطراً من ناحية، فإنها تمثل له تحدياً من ناحية أخرى... وهكذا، عاد إليها وقد اتخذ قراراً بأن يعقد معها هدنة تعطيه الفرصة لأن يفكر في روية!

ولقد مرت بهما لحظات صمت وهما يسيران بين الأشجار لم تحاول «إيلين» أن تقطعه... كانت تعلم بيقين المدرب والمتمرس أنه أصبح مثل الثمرة التي نضجت أكثر مما ينبغي، وأن عليها أن تقطفها برفق حتى لا تتمزق بين يديها وتصبح غير قابلة للتناول... كانت على يقين من أن ماضيه في الشبيبة النازية، مع علاقته بـ «لويز ماك كورميك»، فوق ذلك الفتور الذي يخيم على علاقته بزوجه... مضافاً إلى كل هذا أن ثقل المشروع السري الذي يعمل فيه قد فتت كل مقاومة لديه!

ولقد كانت «إيلين» على حق فيما ذهبت إليه.

ذلك أن «فريدريك» بعد لحظات بدأ الحديث.. قال إنها على حق، وأنه يعمل في مشروع سري لا يملك البوح به، وإن المسؤولية تثقل كاهله، فهو يعمل في اليوم أكثر من اثنتي عشرة ساعة، ولا يجد وقتاً يروّح فيه عن نفسه... قال إنه بالفعل تقدم باقتراح لضم «فرناندو» إلى فريق العمل الذي يرأسه، فهو يرى في هذا الشاب عبقرية من نوع فريد... غير أن كل التقارير التي جاءت تقول إن حياة «فرناندو» غموضاً غير مستحب، وإذا كانت السلطات تحاول معرفة كل شيء عنه، فلا بد أن الأمر يتطلب بعضاً من الوقت!

ركن الرجل إلى الصمت بعد ذلك لفترة ثم توقف عن السير ملتفتاً نحو «إيلين» وهو يقول:

- «هل أستطيع أن أثق بك؟!».

كانت نظراته الآن تقضح زير النساء فيه، ولقد أدركت «إيلين» هذا في لمحة بصر... كانت قد تعلمت منذ أيام «جاتزينا» - مدرسة الجاسوسية السوفياتية - أن الرجال سواء، مهما تنوعت جنسياتهم واختلفت أعراقهم... لذلك فهي لم تضع وقتاً، اقتربت منه حتى كادت تلتصق به... وضعت يدها فوق ذراعه فأحست به يرتجف، قالت في شبه همس:

- كنت أعرف عنك الكثير قبل أن أقبل دعوتك على العشاء.

- وكيف كان ذلك؟!!

- المصادفة الغريبة التي دفعنتني إلى الحديث عنك مع صديقي هذا الذي استقال من المصنع!

- ولكن كيف كان له أن يعرف أن ثمة مشروعاً سرياً نعمل فيه؟!!

ابتسمت «إيلين» الآن وهي تبتعد عنه سائرة وسط الأشجار فتبعها دون كلمة، قالت:
- ثمة أشياء يا صديقي يظن أصحابها أنها طي الكتمان وهي في حقيقة الأمر شديدة
الوضوح!

مرت ثوان قبل أن يقول «فريدريك»:

- معك حق... هذا حق!

- فهل لاحظت طوال الشهور التي انقضت منذ أن تعرفت بزوجتك، أنني لم أكن
محل ثقة؟!!

توقف مواجهًا إياها:

- هل تساعدني في معرفة شيء عن حياة «فرناندو»؟!!

- هل تخبرني بطبيعة مشروعك السري هذا؟!!

هكذا سألها، وهكذا اقتحمت منطقة الخطر في حياته وحياتها معًا... وهكذا وقف كل
منهما قبالة الآخر، في ذلك المكان ذي الطبيعة الساحرة، وكان على فريدريك أن
يختار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاستعداد للقتل!

قالت «جروتروود هينرتش»، كما قال «فرناندو كورتيز» فيما بعد للمحققين: إن «إيلين» و«فريدريك» عندما عادا من رحلة الصيد القصيرة تلك في نهر سانت لورانس، لم يكن يبدو على أي منهما ما يريب... عادا يحملان عددًا لا بأس به من السمكات، وإنهما كانا يبدوان في حالة مرح؛ مما أسعد «جروتروود» سعادة حقيقية؛ ذلك أن نمو الصداقة بين زوجها وصديقتها قد رفع عن كاهلها عبئًا أثقله طويلاً!

أما «فرناندو» فقد قال إنه لا يذكر في تلك العطلة أن شيئًا غريبًا أو غير مألوف قد حدث، وإنه قضى الوقت مع «جروتروود» أثناء رحلة الصيد هذه في تجهيز طعام العشاء، حتى إذا عادت «إيلين» مع «فريدريك»، جلست إلى جواره، بل جلست ملتصقة به كأبي فتاة تحب، كما كانت عادتها كلما دعيا إلى حفل أو شاركا بعض الأصدقاء في نزهة أو رحلة!

ولقد بدا هذا الأمر محيرًا بالنسبة لهؤلاء الذين حققوا الأمر فيما بعد... غير أن الاستنتاج المنطقي يقود بالقطع إلى أن «فريدريك» و«إيلين» لم يصلا في ذلك اليوم إلى موقف حاسم، ومن المؤكد أن «فريدريك» تردد وأحجم عن البوح بطبيعة هذا المشروع الذي كان يشارك فيه... كما أن «إيلين»، بدورها، لم تبج بحقيقة «فريدريك» ولا باسمه الأصلي... وأن النظرة المتأنية لمثل هذا الموقف، تقود من يفكر فيه إلى طريق واحد، هو أنهما قد توصلا إلى حل يبقي الأمر على ما كان عليه، وأنهما أجلا المواجهة إلى أيام قادمة.

غير أن أحد علماء النفس، ممن شاركوا في بحث هذه القضية، جزم بأن «فريدريك» في ذلك الوقت كان قد وقع في حب «إيلين» - أو على الأقل - كان قد وقع تحت تأثيرها الأنثوي، مما دفعه إلى تأجيل الأمر حتى يعطي لنفسه الفرصة للتفكير من ناحية، ولرؤيتها مرة أخرى من ناحية ثانية، وفي ظروف تتيح له الاقتراب منها أكثر... ولقد أكد هذا الظن أن «فريدريك» لم يبلغ عن «إيلين» عقب عودته من عطلة عيد الفصح، بل إن الأوراق الرسمية لم تشر من بعيد أو من قريب إلى شيء مثل هذا، فوق أن الرجل، رغم التزامه الصارم بالاتفاق الذي تم بينه وبين سكرتيرته السابقة «لويز ماك كورميك»، فإنه لم يحاول رؤيتها بعد ذلك، وإن كان قد تحدث إليها هاتفيًا، وأبدى رغبته في رؤية ذلك الطفل الذي أنجبته، ولقد قالت «لويز» بدورها، إنه وعداها بلقاء قريب، لكن هذا لم يحدث على الإطلاق!

وعلى كل الأحوال، فلقد كانت هناك مفاجأة في انتظار «إيلين إيستمان» بعد انتهاء عطلة عيد الفصح... ذلك أن برقية وصلت إليها من ابن العم في لندن يقول فيها إن ابنة العم «كاي» ترقد على فراش الموت، وإن من المستحسن أن تطير «إيلين» إلى الوطن كي تلقي عليها نظرة أخيرة قبل أن تغادر الدنيا!

كان معنى هذا أن الرؤساء في موسكو كانوا يطلبون منها السفر إلى لندن على جناح السرعة، وأن ثمة لقاء سوف يتم هناك، بعيدًا عن العيون بطبيعة الحال، لتتلقى فيه بعض التعليمات التي تحتاج إلى لقاء مباشر.

ولقد لبث «إيلين» طلب ابن العم، وطارت إلى لندن بعد يومين فقط من انتهاء العطلة... لكن الغريب في الأمر، والذي أدهش المحققين، أن كل التحريات التي أجريت في العاصمة البريطانية حول ذلك التاريخ الذي سافرت فيه «إيلين»، أكدت أنها حضرت بالفعل جنازة سيدة بريطانية كانت قد توفيت قبل وصولها بيوم واحد... وأنها شوهدت في الجنازة ومراسم الدفن لهذه السيدة التي كانت تحمل لقب إيستمان بالفعل... لكن أحدًا - على الإطلاق - لم يستطع العثور على عائلة بهذا الاسم، ولا على قبر يحمل شاهده اسم سيدة تحمل هذا اللقب الشائع في بلاد الإنجليز.

من ناحية، كان هذا دليلًا على براعة المخابرات السو-ييتية، ومن ناحية أخرى، كان يشير بوضوح إلى أهمية هذه الجاسوسة بالنسبة لجهاز «كي. جي. بي»، مما دفعهم إلى اصطناع جنازة بالفعل، حتى إذا ما كانت «إيلين» مراقبة، تأكد لمراقبيها أنها جاءت إلى لندن لتشييع جنازة ابنة العم الغالية تلك!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غير أن رجال المخابرات السو-ييتية الذين لجئوا إلى الغرب فيما تلا ذلك من سنوات أكد أن «إيلين إيستمان» كانت قد التقت مع واحد من الرؤساء من ذوي المكانة... ولقد تم اللقاء بالفعل في نفس ليلة وصولها إلى لندن... وإن كان لم يتم في العاصمة البريطانية نفسها، فإنه تم في إحدى قرى مقاطعة «كنت» التي تبعد عن لندن بحوالي نصف ساعة بالقطار!

رغم خطورة مركز ذلك الرفيق الذي اتخذ اسم «جريتشنكو»، فإن «إيلين» التقت به لقاء الواصل من نفسه ومن إنجازاته... كان عليها في تلك الليلة أن تقدم تقديرًا شفهيًا عن كل ما تم في أوتوا من إنجازات، ولقد بدأ الحوار في السادسة مساءً، لكنه لم ينته قبل السادسة صباحًا!!

وعندما عرج الحديث على «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»، قالت «إيلين» إن المعلومات التي جاءت من موسكو كانت تقول إن الرجل لم تكن له علاقة بالحزب النازي، وأن شيئًا في ماضيه لا يشين، وكانت هذه نقطة أخذت الكثير من الجدل، فلقد كان الرفيق «جريتشنكو» يؤكد أن كل المستندات التي عثر عليها السو-ييت في ألمانيا، تؤكد بُعد الرجل عن أي نشاط نازي، فوق أنه كان صغير السن قبل أن يغادر ألمانيا... لكن «إيلين» رفضت هذا المنطق، وأكدت للرفيق «جريتشنكو» أن «هانز فولر» كان عضوًا بالشبيبة النازية، وأن هذا هو السبب الذي يبدو موضوعيًا لتغيير اسمه... هكذا أكدت لها زوجته أثناء لقائها ذلك الذي كانت تعاني فيه من انهيار حقيقي خوفًا من إقدام زوجها على الطلاق... وعلى كل الأحوال، فلقد طلب من «إيلين» في ذلك المساء أن تتأكد من هذا الأمر، حتى إذا ثبت لها باليقين أنه صحيح، فسوف يصبح عليها أن تجند الرجل كي يعمل لحساب المخابرات السو-ييتية!

وقع الطلب على «إيلين» وقوع الصاعقة، أدركت على الفور أن هذا هو السبب الرئيسي لاستدعائها إلى لندن... كان آخر ما تفكر فيه، بل ربما لم يخطر ببالها على الإطلاق أن الأمر هو أن تجند «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» للعمل لحساب الـ «كي. جي. بي».

كانت المفاجأة بالنسبة لتلك الفتاة البالغة الذكاء شديدة... وعبثًا راحت تحاول إقناع ذلك الرفيق، بأن محاولة مثل هذه قد تمثل خطرًا داهمًا عليها وعلى الشبكة معًا... وأنها قد تستطيع بوسائل أخرى، منها على سبيل المثال أن تسعى إلى إلحاق «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع، وعن طريقه، سوف تعرف كل شيء عن هذا المشروع السري... قالت إنها على يقين من أن محاولة تجنيده سوف تبوء بالفشل الذريع، فالرجل ذو شخصية قوية، وما زالت التعاليم النازية عالقة بتفكيره، فوق أن حوارها معه، ينبئ بشكل قاطع، بأن ولاءه لكندا لا شك فيه... وليس هذا رأيها وحدها ولكن هو رأي زوجته أيضًا.

وعندما سألتها الرفيق جريتشنكو عن سبب اقتناعها الذاتي بذلك الولاء قالت إنها أحست ذلك عندما واجه كل منهما الآخر في رحلة الصيد القصيرة التي قاما بها أثناء عطلة عيد الفصح، وعندما طلبت منه معرفة طبيعة هذا المشروع السري الذي يشرف عليه، اربد وجهه واحتقن، رغم أنها عندما فعلت هذا، فعلته معطية إياه إحساسًا بأنها تمزح حتى لا يمسك عليها ما يمكن أن يدينها، أو - على الأقل - يضعها موضع الشكوك!

كانت «إيلين» منطوية تمامًا في حديثها، لكن الرفيق «جريتشنكو» - الذي بدا وكأنه يميل إلى رأي «إيلين» - قال: إن القيادة في موسكو لديها ما يؤكد أن هذا القسم السري الذي يعمل فيه «هانز فولر»، تجرى فيه الأبحاث حول نوع جديد من القنابل الكيميائية ذات قوة الدمار المتفوقة... كما أن الدراسات النفسية والاجتماعية بل والشخصية التي أجريت حول «فريدريك هينرثس»، تؤكد بما لا يقبل الشك أنه سوف يسقط في برائتها لو أنها عرضت عليه الأمر!

كان معنى هذا أن على «إيلين» أن تنفذ الأوامر حرفيًا، وأن تبدأ، فور تأكدها من صحة معلوماتها حول التحاق الهر فولر بالشبيبة النازية، خطوات تجنيده لحساب المخابرات السوفياتية!

ولكن كيف؟! وبأي أسلوب تبدأ هذه الخطوات؟!!

كان هذا هو السؤال الذي طرحته «إيلين» على الرفيق «جريتشنكو»... فإذا الرد يأتيها صاعقًا هو الآخر:

- بالاتصال البارد!

- هذا محال!

هكذا هتفت «إيلين» ولقد ثارت الفتاة ثورة عارمة مما أدهش الرفيق «جريتشنكو»... كانت تشعر أن المشروع مشروعها وأن البناء الذي تم، تم على يديها هي دون أحد سواها... وأنها أدري بالحقل الذي تعمل فيه، وأكثر قدرة على تحديد هوية الشخصيات التي تعمل معها، وأن الاتصال البارد الذي يطلبون منها أن تمارسه مع الرجل، سوف يكون مدمرًا بكل المعاني، بل ربما أدى إلى كشفها وكشف الشبكة.

وهنا، وبعد ثورتها تلك وحججها التي ساققتها، جاءها الأمر صارمًا:

- عليك بتنفيذ الأوامر أيتها الرفيقة «نانيا راديونسكا»!

وكان ذكر اسمها الحقيقي دون الاسم الذي اتخذته يوم وضعت قدمها على الأراضي البريطانية نذيرًا بأنها قد تخطت الحدود، وأن عليها أن تنفذ الأوامر دون أية مناقشة، ولم يكن أمامها سوى القبول على مضض!

كان معنى ذلك «الاتصال البارد» - وهي ترجمة حرفية لذلك الاصطلاح المستخدم في أجهزة المخابرات- أن تواجه «إيلين» ذلك المهندس الألماني بطلب التعاون مع المخابرات السوفياتية دون مواراة أو لف أو دوران.

لم يكن هذا في نظر هؤلاء الذين يمارسون هذا النوع من النشاط الإنساني غريبًا... نعم، لم يكن غريبًا ولا مستبعدًا، فلقد كانت «إيلين» تملك من المعلومات التي من الممكن أن تؤدي بمكانته الاجتماعية في أوتوا، عن طريق كشف علاقته بسكرتيرته السابقة، والتي كانت قد أعطت اسمه لولدها منه... كان هذا وحده، كفيلاً بأن يدمر كل علاقات الرجل الاجتماعية، وفوق أنه كان حرًا بأن يسبب له كارثة عائلية، فإن مكانته في المصنع أيضًا كان من الممكن أن تتأثر إلى حد بعيد!

فوق هذا، كان مجرد كشف اسمه الحقيقي، ولو لم يكن هناك دليل دامغ على انضمامه إلى شبيبة النازية، كفيلاً بأن تثير الشكوك من حوله... ليس هذا فقط، بل كان كفيلاً بأن تمارس جماعات الضغط اليهودية عليه هيمنة لا سبيل إلى الفكك منها!

ولم يكن أمام «إيلين»، وقد عادت إلى أوتوا بعد أن شيعت جنازة ابنة العم الغالية في لندن، سوى السير في الطريق الذي رُسم لها وأمرت به... لكنها من ناحية أخرى، كانت تملك حرية الحركة في اختيار الأسلوب والظرف المناسبين للإقدام على خطوة خطيرة كهذه!

وهكذا... ما إن وصلت إلى أوتوا، حتى طلبت «مارجريت فريش» تلك السيدة التي كانت تعمل في بيت «فريدريك هينرتش»، والتي كانت قد استطاعت، بما تملك من ملكات لا شك فيها، أن تقترب كثيرًا من نفس الرجل وزوجته... فلقد كانت - حسب توجيهات «إيلين»- تتفانى في خدمة الزوجين، بل إنها تعمل ساعات إضافية دون أن تطلب أجرًا عن ذلك، مما دفع الـ «هر هينرتش»، إلى أن يمنحها، في عيد الفصح، مكافأة شخصية بعد أن شكرها على المجهود الذي تبذله في إدارة البيت، مما جعله، هو وزوجته، راضيين، بل ممتلئين بالامتنان لها!

تم اللقاء بين «إيلين» و«مسز فريش»، في أحد المطاعم العامة التي يخدم فيها العملاء أنفسهم... كانت مارجريت هي التي وصلت أولًا- هكذا كان الاتفاق طبعًا، حملت صينية طعامها إلى إحدى الموائد في ركن من المحل. كانت المائدة خالية تمامًا من الرواد... وهكذا، عندما دلفت «إيلين»، وكان هذا قبل انتهاء ساعات العمل في الشركات والمحلات بساعة تقريبًا... حملت صينيتها كي تجلس بشكل عفوي وغير لافت للنظر، إلى نفس المائدة التي اختارتها «مسز فريش».

لم يكن صعبًا عليهما، أو مستغربًا، أن تتبادلا الحوار كأي سيدتين جلسنا إلى مائدة وحدهما، وإن كان من المستحسن ألا يلحظ أحد أنهما تتحدثان... ذلك أن المحل كان خاليًا من الرواد في مثل هذه الساعة!

كان الناظر إليهما يلحظ أن كلا منهما كانت تلتهم وجبتها بسرعة دون أن تلقي بالآلى إلى زميلتها على المائدة... ولقد بدأت «إيلين» الحوار - هكذا قالت «مارجريت فريش» فيما بعد- بقولها:

- قبل أن أأادر المائدة... سوف أترك زجاجة صغيرة مليئة بسائل سام!

- حسن!

هكذا أجابت «مارجريت» فأردفت «إيلين»:

- أنت بالطبع تعرفين موعد تناول «مستر هينرتش» قهوته أو شرابه!

- بالتأكيد.

- عندما يصلك منى الأمر، سوف تضعين في فجان القهوة أو كأس الشراب ثلاث نقاط فقط من هذا السائل!

- وإذا اكتشفت رائحة غريبة؟!

- إن السائل بلا رائحة.

- وكم يستغرق الأمر؟

- لست موقنة تمامًا، وإن كنت أرجح أنه لن يستغرق أكثر من عشرين ثانية.

- ثم؟!

هكذا سألت «مسز فريش» فأجابت «إيلين»:

- ثم لا شيء، سوف تسيرين في حياتك سيرًا طبيعيًا بعد أن تتخلصي من بقية السائل والزجاجة!

- وإذا ما اكتشفوا أنه مات مسمومًا؟!

- لن يكتشف أحد شيئًا.

- وكيف كان ذلك؟!

- إن السم لا يترك أي أثر في الجسد الإنساني.

قالت «إيلين» هذا، ثم أنهت طعامها، وفتحت حقيبة يدها كي تخرج منها صندوق سجائرها مع الولاة... وكان طبيعيًا، في أثناء الحركة والبحث في الحقيبة، أن تخرج بعض الأغراض التي كان من بينها تلك الزجاجة الصغيرة وتضعها فوق المائدة بشكل طبيعي تمامًا... أشعلت سيجارتها، وأعدت أغراضها إلى الحقيبة، لكن الزجاجة التي تحوي ذلك السائل السام، كانت قد اختفت!

وهكذا، انصرفت «إيلين» راضية تمامًا... غير أن هذا لم يكن كل شيء، كان ثمة مهام أخرى عليها أن تقوم بها، قبل أن تخطو تلك الخطوة نحو تجنيد ذلك النازي السابق، لحساب المخابرات السو □ يتية!

14 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تفكر في الهرب!

كان «فرناندو» شديد السعادة بعودة «إيلين» من لندن. لا لأن سفرتها لم تستغرق سوى بضعة أيام فقط، ولكن لأنها عادت من تشييع جنازة ابنة العم هذه أكثر إقبالاً عليه... حتى لقد قال الفتى للذين حققوا معه فيما بعد. وكان التأثر غالباً عليه:

«أحسست بشكل غامض، أنها كانت تودعني... كان إقبالها عليّ غريباً، كان... كان حقيقياً لا زيف فيه، ولا يمكن أن يكون هذا الذي فعلته غير حقيقي بأي معنى من المعاني!».»

لزم الصمت ثم أردف بعد ثوانٍ مختنق الصوت:

- كانت ودودة، ودافئة... كانت مثل أنثى عادت إلى عشاها بعد غيبة طالّت رغم أنها لم تغب عن أوتواوا أكثر من أسبوع!

سألته «إيلين» وهي تضع رأسها فوق صدره وكأنما كانت في رحلة شاقّة وأن لها أن تستريح:

- ألم يتصل بك «فريدريك»!؟

- لا... لم يفعل!

هبت مرتكزة على كوعها مسندة رأسها إلى كفيها ناظرة إليه:

- لو أننا فكرنا في الهجرة من كندا... إلى أية دولة تريد أن تذهب!؟

كان السؤال مفاجئاً، وكان غريباً، وكان بعيداً كل البعد عن ذهن ذلك الفتى الأسمر الذي كان غارقاً لأذنيه في حب تلك الفتاة التي أوردته الجنة وأعطته الأمان وأشعرته - لأول مرة في حياته- أنه كائن يعيش ويتنفس ملء صدره - كان هذا هو تعبيره بالحرف- ولذلك، فقد اعتدل جالساً وهو يسألها بدوره:

- ما الذي تفكرين فيه بحق السماء!

نظرت إليه طويلاً، كانت عيناها الآن ترسلان إليه نظرات حانية، كانتا - كما قال- عينين تضيئان من الداخل... ولقد أضاف «فرناندو كورتيز»، أن نظراتها لم تكن هي فقط التي أعطته هذا الإحساس الغامر بالحب... بل إن حديثها كان يشع بصدق باهر، كما كان صوتها رقيقاً حاراً متدفقاً، أجابته يومها:

- أريد أن أذهب معك إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد... أريد أن أحقق بك ومعك حلمي الكبير!

هتف «فرناندو» مقبلاً عليها:

أي حلم هذا!؟!

- بيت صغير ذو حديقة جميلة يمرح فيها عدد كبير من الأطفال!!

- إيلين!!

هبت جالسة على ركبتها مثل طفلة في الخامسة عشرة:

- هل تعدني بألا تقع في حب امرأة سواي؟!

وضع يده فوق قلبه قائلاً:

- أقسم بكل ما أؤمن به من مقدسات!

- وأن تحميني؟!

- وأن أحملك!

قال «فرناندو كورتيز»، إن «إيلين» ألفت بنفسها بعد ذلك فوق الفراش، وتركت لدمعها العنان!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألم يكن هذا الذي قاله «فرناندو كورتيز» أو «إيمانويل سييرا» سيراً طبيعياً بأي معنى من المعاني، وبرغم الضغوط التي مارسها عليه المحققون، وبرغم عدد المرات التي قص فيها قصة تلك اللحظات، والتي زادت على خمس مرات، فإن الشاب لم يخطئ في كلمة واحدة مما أكد صدق حديثه... وأكد بالتالي، أنه لا يزال في وصف ما حدث أو أن ذاكرته جنحت باللاوعي إلى ما كان يتمنى أن يحدث... لقد كان هذا الإحساس الذي انتاب «إيلين» بعد عودتها من لندن، محل بحث وتمحيص من علماء نفس وخبراء في فنون التخاطر والتجسس لفترة طويلة!

فهل كانت «إيلين»، بعد لقائها ذلك مع الرفيق «جريتشنكو» تفكر في الهرب؟!

هل وصل بها التعب والإجهاد إلى حد أنها فكرت في الاختفاء بعيداً عن العيون في بيت يضمها مع زوج ترجو منه الحماية، وتتطلع إلى أن تتجرب منه أطفالاً يمرحون في حديقة هذا البيت المأمول؟!

كان الأمر غريباً وباعثاً على التفكير والتمحيص حقاً... ومهما قال أساطين علم النفس، مهما بحثوا ونقبوا في نفسية تلك الفتاة ورغبتها، كأية أنثى في الدنيا، في تكوين أسرة وبيت... فإن هذا كله، لم يتفق أبداً، ولا يمكن أن يكون متسقاً أو منسجماً مع ما كانت تفعله أو ما فعلته بعد ذلك، حتى... حتى عندما وقعت في حب رجل آخر - وكان هذا بعد عام وبعض العام- كان يمثل خطراً داهماً على حياتها!

ولقد ظل هذا الحوار، كما ظلت تلك الليلة، وأغلب الظن أنها سوف تظل لفترة طويلة، محل دراسة جادة، وربما مضنية لمعرفة سر تلك الساعات التي يتغلب فيها الإنسان على الجاسوس... ولقد قال أحد علماء النفس الذين تخصصوا في دراسة نفسيات من يعملون في هذا الحقل من الرجال أو النساء، إن هذا الأمر سوف يظل سراً لا يملك مفتاحه سوى «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا» نفسها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما «جروتروود هينرتش» فلقد قالت إنها دهشت دهشة شديدة عندما علمت أن «إيلين» قد عادت إلى أوتواوا - وكان هذا بعد عودتها بيومين- دون أن تتصل بها... وعلى كل فلقد بادرت هي بالاتصال، واتفقت معها على اللقاء في أحد المحلات لتناول فنانج من القهوة... وأن زوجها «فريدريك»، عندما علم بعودة «إيلين» في مساء ذلك اليوم بادر هو الآخر بالاتصال بها كي يبثها عزاءه... ولقد أضافت «جروتروود» أنها دهشت من اهتمام زوجها هذا، لكنها عزته إلى رغبته في إرضائها لأن «إيلين» صديقتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقالت إحدى عاملات المحل الذي تملكه «إيلين»، جازمة بأنها عادت من رحلتها إلى لندن وكأنها شخصية أخرى... قالت إنها - ظاهرياً - لم تغير من عاداتها أو أسلوبها في الإدارة شيئاً... لكنها كانت تشعر بأن هذه الفتاة التي عادت من لندن، ليست هي «مس إيستمان» التي عرفتها، وعملت لديها، وأحببتها!!

وللدليل على وجهة نظرها هذه، قالت العاملة، وأيدتها بقية العاملات... إن «إيلين» - ولأيام عديدة بعد وصولها - كانت إذا ما وصلت إلى المحل، لزمّت مكتبها لا تبرحه إلا إن احتاج العمل إلى ذلك، وأنها كانت تبدو ساهمة، وربما استغرقت في قراءة جريدة أو كتاب... ولقد أكدت عاملة أخرى أنها:

- كانت تبدو لي في تلك الأيام وكأنها فقدت كل اهتمامها بالعمل، ولم يكن هذا من طباعها بأي معنى!

وقالت عاملة ثالثة:

- كانت تبدو وكأن في أعماقها جرحاً مخيفاً!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولقد لاحظ كل الذين كانوا قريبين من «فريدريك هينرتش»، أو على اتصال به... أنه في تلك الأيام كان يبدو كالتائه... وبالنسبة لزملائه ومرعوسيه في العمل، لم تكن علاقته بسكرتيرته السابقة «لويز ماك كورميك» خافية... فمن الصعب إخفاء مثل هذه العلاقات مهما بذل أصحابها من مجهود... وبطبيعة الحال، فلقد كان البعض منهم يعرف ما انتهت إليه هذه العلاقة. بل إن البعض ممن كانت تربطهم بـ «لويز» علاقة صداقة، كانوا يعرفون تفاصيل الاتفاق الذي تم بينهما... وكانوا موقنين أشد ما يكون اليقين أن «لويز» خرجت من حياته إلى الأبد!... ولذلك، فلقد كان غريباً أن يلحظ الجميع سهومه ذلك إلى الحد أنه كان في بعض الأحيان ينسى أشياء هامة في العمل... وقد وصل الأمر إلى حد أنه انصرف ذات يوم مبكراً بدعوى أنه يشعر ببعض التوعك، ولقد ظن الجميع يومها أنه عاد إلى البيت، لولا أن «مسز هينرتش» أكدت، أنه في ذلك اليوم بالتحديد، لم يصل إلى البيت في موعده، وكانت رائحة الخمر تفوح منه مما لفت نظرها إلى ذلك القلق الذي انتاب زوجها... وقد أضافت هذه الزوجة المسكينة، أنه قضى أغلب الليل في غرفة مكتبه لم يبرحها إلا قرب الفجر... وعندما سألتها عما به، أجاب في اقتضاب بأن ثمة مشكلة في العمل تشغل باله، وأنه يحتاج إلى بعض الوقت كي يجد لها حلاً... وعندما حاولت أن تسري عنه أو تساعد بإعداد كأس من الشراب، هتف غاضباً:

«جروتروود»... اتركيني وحدي أرجوك!

فتركته وحده، لكنها لم تعرف للنوم طعماً حتى عاد إلى غرفة النوم!

وحتى اليوم... مازالت تلك الساعات التي قضاها «فريدريك» منذ أن غادر المصنع، وحتى عاد إلى البيت، لغزاً لم يصل أحد إلى معرفة المكان الذي كان فيه، وإن كان المرجح، بطبيعة الحال، أنه قضاها في حانة وحده!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ضحى اليوم التالي اتصل «فريدريك» بـ «إيلين» تليفونياً، كان الحوار بينهما - كالعادة- مقتضباً، قال:

- أعتقد أنه قد حان الوقت كي نلتقي!

- أتظن ذلك؟!

- هذا رأيي على كل حال!

- ولكن أحداً لم يطلب مني موعداً أو لقاءً!

- وها أنا أفعل!

- فأين تريد أن يتم اللقاء؟!

- في مكان أستطيع أن أتحدث فيه إليك بحرية دون أن يقاطعنا حدث أو مخلوق!

لزمت «إيلين» الصمت، كانت الآن تفكر بسرعة، إن الرجل يخطو بإصرار نحو حقيقته، وهذا اللقاء الذي يطلبه لن يحتمل منها تردداً، ولسوف تخلع القناع، كما طلب منها وتعرض عليه التعاون مع المخابرات السوفيتية، وكان احتمال رفضه قائماً، فماذا تفعل لو أنه رفض فعلاً؟!

- «إيلين»... هل أنت هناك؟!

- إني أفكر في هذا المكان الذي تريد أن تتحدث فيه دون أن يقاطعك أحد!

لم يكن هذا هو أسلوبها في الحديث معه، ولذلك، فلقد تردد قليلاً ثم قال:

- هل أكون متطفلاً لو أنني طلبت أن نلتقي في بيتك؟!

ارتابت «إيلين» في الرجل... إن عنوان بيتها لا يعرفه سوى القليلين وليس منهم «فريدريك هينرتش»، فهل توصل هذا المهندس النازي المنشأ إليه؟!

قالت كمن يهم بإنهاء المكالمة:

- حسن... ليكن ذلك في السادسة مساءً!

جاءها صوته في لهفة:

انتظري أيتها الفتاة.

- ماذا هنالك؟!

- ألا تعطيني العنوان؟!

داخلتها الطمأنينة إلى حد ما... أعطته العنوان وأعدت السماع واستغرقت في التفكير.

.....

.....

كانت «تانيا راديونسكا» تعلم يقيناً أن اللحظة الحاسمة قد حانت... وأن عليها أن تنفذ أوامر الرؤساء في موسكو دون تردد... غير أن سؤالاً واجهها الآن: ماذا لو أن «الهر هانز فولر» يريد أن يبوح لها بحبه؟!...

هي لم تنس نظراته ليلة أن تناولت العشاء في بيته، وهي لم تنس ذلك الارتباك الذي ألم به عندما تشابكت أيديهما وهي تجذب معه خيط الصنارة في رحلة الصيد التي خرجا فيها معاً... هي موقنة بالفعل أن الرجل وقع صريع هواها وأنه يعاني من حبها... فهل يقبل التعاون معها فيعفيها من مهمة تبدو لها في الأفق دامية؟!!

ومهما كان الأمر، فلقد كان عليها أن تستعد لهذا اللقاء حتى لا تترك شيئاً للمصادفة أو الظروف. وهو استعداد كان في حاجة إلى العديد من اللقاءات والترتيبات، ولم يكن أمامها سوى ساعات قليلة عليها أن تنجز فيها الكثير... ذلك أن الهاجس الذي ألم بها كان يلح عليها إلحاحاً متصلاً.

ماذا لو أن «فريدريك» ركب رأسه ورفض التعاون معها؟!!

بل...

ماذا لو أنه أبلغ عنها سلطات الأمن الكندية؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عليها أولاً، وقيل كل شيء، أن تلتقي بـ «مارجريت فريش»، تلك القاتلة التي تعمل في بيت الرجل... رفعت سماعة التليفون، وطلبت الرقم، وما إن جاءها على الطرف الآخر صوت «مسز فريش»، حتى فوجئت بما لم يخطر لها ببال... كانت «جروتروود هينرتش» تقف أمامها في المكتب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15 - قاتلة باردة الأعصاب! ماذا أفعل بعد أن يلفظ أنفاسه؟!

كان وصول «جروتروود هينرتش» مفاجأة كاملة لـ «إيلين» التي لم تتعود أن تستقبل أحدًا بلا موعد... غير أن وجه تلك السيدة الألمانية كان يشي بشيء جديد، فكرت «إيلين» أن تعيد السماع إلى مكانها ولكنها قررت ألا تفعل فلربما كان في الأمر من الأبناء ما قد تحتاج إليه... دق جرس التليفون على الطرف الآخر في بيت «فريدريك»، في الوقت الذي كانت «إيلين» تمنح فيه «جروتروود» ابتسامة مرحبة وهي تشير إلى المقعد أمام المكتب، رُفعت السماعة وجاءها صوت «مسز فريش»:

- منزل مستر هينرتش!

سألت «إيلين»:

- هل أستطيع الحديث إلى مستر بلاك؟!

أجابت «مسز فريش» على الفور:

- أعتقد أن الوقت لا يسمح باستدعائه!

- إذن فأرجو أن تبلغوه أننا في حاجة إلى ثلاثة صناديق من ماركة الحصان الأبيض!

- إن المتوافر لدينا الآن لا يزيد على صندوقين!

- لا بأس، على ألا يكون هناك أي نوع من التأخير!

- أو.كي.!

وهكذا انتهت تلك المكالمة الغربية، والتي كانت تعني بلغة الشفرة المتفق عليها، أن «إيلين» تريد لقاء «مسز فريش» في الثالثة، لكن «مارجريت» فضلت أن يكون اللقاء في الثانية بعد الظهر!

أعدت «إيلين» السماع إلى مكانها... كانت هذه هي الخطوة الأولى، نظرت في ساعة يدها، وأدركت أنها تستطيع أن تعطي «جروتروود» بعضًا من الوقت، التفتت نحوها مرحبة وهي تنهض متسائلة:

- هل لك في فنجان من القهوة؟!

- «إيلين»!

هكذا هتفت «جروتروود» فضحكت «إيلين» ضحكة خفيفة وهي تقول:

- لا تقولي شيئاً، إن وجهك يشي بما يعتمل في صدرك!

قدمت لها فنجان القهوة وعادت إلى مكتبها مستطردة:

- والآن، ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟!

- أخشى أن أعطل عمالك!

- أمامي اليوم الكثير مما يجب إنجازه، وإن كنت أستطيع أن أمنحك خمس عشرة دقيقة!

قالت «جروتروود» فيما بعد، إن «إيلين» في ذلك اليوم كانت معها رقيقة كالعادة، وأن «جروتروود» راحت تشكو لها حال زوجها في الأيام الأخيرة، وعندما سألتها «إيلين» إن كانت تشك أن «فريدريك» عاد سيرته الأولى مع سكرتيرته، هتفت هذه نافية الأمر تمامًا، قالت إن «فريدريك» على عكس ما كان يحدث في الشهور التي انصرمت، أصبح رقيقًا معها حنونًا كما لم يكن من قبل... غير أن شيئًا ما أصبح يشغل باله!

- ألم تخبريني أنه يعمل في مشروع هام؟!

- نعم «إيلين»، هذا حقيقي، وهو ليس هامًا فقط، بل إنه سرِّي إلى أقصى درجة، لكنني موقنة تمامًا أن العمل ليس هو ما يشغل بال «فريدريك» بأي حال!

وكان هذا كل ما تريد «إيلين» معرفته الآن... إذن، فلقد سقط الرجل صريع هواها، أو خوفًا منها... ولذلك، فلقد راحت تهدئ من روع جروتروود قائلة: إن حبها الشديد لزوجها يجعلها في حالة قلق دائم عليه، وأن هذا القلق بالذات، من الممكن أن يؤثر على عمله... قالت هذا ثم أردفت:

- فهل تريد يا عزيزتي أن تكوني عقبة في سبيله أم تكوني عونًا له؟!

كانت جملة «إيلين» هذه بلسًا أرضاها تمامًا، احتست «جروتروود» فنجان قهوتها وانصرفت راضية بعد أن زودتها «إيلين» بنصائحها الثمينة، قالت «جروتروود» هذا وهي تتلمل أمام المحقق، ثم ما لبثت أن أردفت:

- لست أدري بالتحديد ما هي التهمة التي توجهونها لتلك الفتاة الرائعة، لقد كانت نعم الصديق!

ولقد علق أحد الذين حققوا هذه القضية فيما بعد، أنه - برغم خبرته التي استمرت ربع قرن من الزمان - لم يلتق بجاسوس على هذا القدر من الذكاء والفتنة، بل والرقعة أيضًا... لقد كانت هذه الجاسوسة تذبح خصومها بخيوط الحرير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أطراف أوتواوا، كما في أطراف كل عواصم الدنيا، تنتثر محلات الوجبات السريعة متباعدة، وإن كانت تشكل منظومة من المطاعم التي تملكها شركة عملاقة... إلا أنه - دائمًا - ما يجد المسافر، فيما بين هذه المطاعم محلات خاصة يملكها أفراد... وتتميز هذه المحلات عادة بالجو العائلي... ذلك أن صاحب المطعم يعمل فيه عادة مع زوجته وربما أولاده، وهو قد يستأجر عاملًا أو اثنين في ذروة المواسم، لكنهم في النهاية، يعيشون جميعًا في نفس المكان الذي يقع على جوانب الطرق السريعة التي توصل فيما بين العاصمة والمدن الأخرى!

في الطريق الموصل بين أوتواوا ومدينة كورندول الغربية، يقع مطعم صغير يحمل اسم «كيتشن» أي المطبخ، وهو عبارة عن مبنى صغير برتقالي اللون، ينقسم إلى عدة أقسام تقوم على مساحة صغيرة من الأرض... القسم الرئيسي منها يطل على الطريق مباشرة، وهذا هو المطعم، وفي الخلف يقوم البيت الذي يعيش فيه رجل من أصل بريطاني يحمل اسم «سميث»، وهو اسم إنجليزي دارج، وهو يدير المطعم

مع زوجته الهولندية وابنه وابنتيه... بجوار المطعم والبيت، وعلى بعد لا يزيد على المائتي متر، تقوم المزرعة الصغيرة التي يربي فيها «المستر سميث» الدجاج وبضعة خراف مما يغذي المطعم بما يحتاجه... على يسار المزرعة، بناء صغير عبارة عن مخزن للبضائع يحوي، ضمن معدات أخرى، ثلاجة كبيرة كلفت «المستر سميث» بضعة آلاف من الدولارات الكندية!

ولقد تعودت «إيلين» بين الحين والحين، أن تخرج في نزهة إلى هذا المطعم كي تتناول فيه وجبة دسمة... إذا ما كانت في حاجة إلى مثل هذه الوجبة... وهي، في ذلك اليوم، عندما وصلت إلى «المطبخ»، كانت تبدو - على غير عاداتها كلما جاءت إلى المكان - في عجلة من أمرها!

كانت - دون شك - محظوظة في ذلك اليوم، فلم يكن بالمطعم رواد رغم أن فصل الربيع قد بدأ، والزهور تملأ المكان، والخضرة تصبغ الدنيا بلونها الزاهي... وهي، عندما دلفت إلى المحل، كان «مستر سميث» يجلس في ركن من المكان بجوار نافذة تطل على الطريق، وهو يطالع جريدة يومية كانت قد وصلت منذ ساعة وبعض الساعة... ولا بد أنه كان قد شاهد سيارة «إيلين» لحظة وصولها، لكن الأمر، على ما يبدو، لم يكن يعنيه كثيرًا.

ألقت «إيلين» عليه تحية الصباح فنهض إليها في تكاسل واضح... كان كل منهما يعرف الآخر جيدًا، ففوق أنها كانت تتردد على المحل بشكل شبه منتظم، فلقد بدا أن بينهما نوعًا غامضًا من الصداقة... اختارت مكانًا بجوار نافذة في عمق المكان، تستطيع من خلال زجاجها أن تشاهد كل من يذلف إلى الساحة المنبسطة... وعندما سألتها «سميث» عما تريد، قالت في اقتضاب وهي تمنحه ابتسامة فاترة:

- أريد وجبة سريعة ومغذية في نفس الوقت!...

- هل تريدين شرابًا بعينه؟!

ألقت ببصرها نحو الساحة من خلال الزجاج ثم ارتدت ببصرها إليه قائلة:

- لك أن تختار فليس لدي وقت للاختيار!

كان جوابها غامضًا وإن كان موحياً فأدرك الرجل أن في الأمر شيئاً... ولذلك، فسرعان ما دلف من باب خلفي، اختفى لدقائق ثم عاد مع زوجته التي رحبت بـ «إيلين» في حرارة واضحة وبدأت على الفور في إعداد وجبة من لحم الحملان الذي تحبه «إيلين» حباً شديداً، بينما صنع الرجل مزيجاً من العصائر حملها إليها وجلس قبالتها... ما إن رشفت رشفة حتى سألت:

- مستر فريديريك هينرتش!

- ماذا عنه؟!

- أريد أن أعرف كل شيء عن خطواته من الآن وحتى يعود إلى بيته في المساء!

بدا وكأن الأمر لا يستحق كل هذا التوتر الذي لحظه الرجل بعينه المدربتين.

- أهذا هو كل شيء؟!

- هناك مشكلة أتمنى أن نتغلب عليها!

- وما هي؟!

- سوف ألتقي بـ «المستر هينرتش» في السادسة، فهل نستطيع أن ننتبع مكالماته التليفونية منذ عودته إلى البيت وحتى صباح الغد؟!!

ركن الرجل إلى الصمت لثوانٍ قال بعدها:

- لا بد أن الأمر هام!

- إلى درجة الخطورة!

زفر «مستر سميث» زفرة ثم قال:

- حسن... سندبر هذا الأمر!

حدجته «إيلين» في تساؤل فأضاف:

- قد نتكلف بعضًا من المال!

- سوف أنسى فوق المائدة خمسمائة دولار... هل هذا يكفي؟!!

قال مغمغماً:

- المهم أن نقوم بالمهمة على وجه مرضٍ!...

- والاتصال؟!!

- كالعادة، هل تغادرين البيت الليلة؟!!

- ستجدني بجوار آلة التليفون!

وجاءت زوجة الرجل، تحمل لها وجبتها المفضلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- في أية ساعة في الصباح تذهبين إلى بيت «مستر هينرتش»؟!!

- إني أذهب عادة في التاسعة!

- معنى هذا أنه يكون قد غادر البيت إلى العمل!

- هذا هو الموعد!

- هل تستطيعين أن تدبري المبيت لديهم ليلة أو ليلتين؟!!

بدت الدهشة على وجه «مارجريت فريش»، غمغمت.

قالت «إيلين» وكأن الأمر لا يعنيهها كثيرًا:

- لست أدري تمامًا... وإن كان هذا هو الوضع المثالي!

- قد أستطيع ابتكار قصة تدفعهم لدعوتي لقضاء الليلة عندهما!

- هل هناك مكان لمبيتك؟!!

- إن لديهما غرفة للخادم، لكنها لا تستعمل عادة!

- لو استطعت تدبير الأمر فلسوف تكون المكافأة مجزية!

- إذن فلسوف أستطيع!

كانت - «إيلين» و «مسز فريش» - تجلسان في نفس المطعم الذي التقتا فيه من قبل، وإن كانت «إيلين» قد اكتفت بتناول فنجان من القهوة السوداء، فإن «مسز فريش»

تناولت وجبة مضاعفة تتناسب مع جسدها الهائل... لزمتم «إيلين» الصمت لثوانٍ
أشعلت سيجارة، فأردفت «مارجريت» متسائلة:

- ما المطلوب بالضبط!

- إذا دق جرس التليفون، ليلاً أو نهاراً، دقة واحدة ثم توقف. ثم دق دقتين وتوقف
بعدها، فإن عليك أن تقومي بالمهمة!

- السم؟!!

هزت «إيلين» رأسها إيجاباً فتساءلت «مسز فريش»:

- هل أنت واثقة أن ضرراً لن يلحق بي؟!!

- رمتها «إيلين» بنظرة صارمة فزفرت «مارجريت فريش» قائلة:

- لقد قلت إن السم لن يستغرق طويلاً حتى يلفظ السيد أنفاسه، فماذا أفعل بعد ذلك؟!!

- لا شيء... تصرفي بشكل طبيعي ولا تتركي السيدة «هينرتش» وحدها في
المحنة!

قبل أن تنهض «إيلين»، كانت بضعة أوراق من فئة المائة دولار قد وصلت حقيبة
«مارجريت» دون أن يلحظ أحد من رواد المطعم شيئاً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن... كان كل شيء معداً، في دقة، لاستقبال «فريدريك هينرتش».

وكانت إيلين، في السادسة، تجلس في انتظاره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تخلع القناع!

اهتم المحققون اهتمامًا خاصًا بتلك الليلة التي كاشفت فيها «إيلين إيستمان» «فريدريك هينرتش» بحقيقة أمرها... وبمعنى آخر، ليلة أن اتصلت به اتصالًا باردًا... ذلك أن الأحداث في ذلك اليوم وفي تلك الليلة كانت متشابكة ومعقدة أشد ما يكون التشابك والتعقيد، فوق أن معرفة ما وقع خلال الأربع والعشرين ساعة هذه كانت كفيلة بأن تكشف عن الكثير من الجوانب الغامضة في أداء تلك الجاسوسة الخطيرة.

ولقد ذكر رجل المخابرات السوفياتي الذي لجأ إلى الغرب فيما بعد بسنوات، عندما سُئل عن «إيلين إيستمان»، أنها كانت رافضة لفكرة الاتصال البارد مع «فريدريك»، وكانت ترى أن غياب الرؤساء في موسكو وإصرارهم على موقفهم سوف يؤدي بها إلى مأزق هي في غنى عنه.

فمن ناحية، كان غرام «فريدريك» بها، كفيلاً بأن يدفعه إلى استرضائها بإلحاح «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع، وكان هذا وحده كافيًا لأن تعرف كل شيء عن هذا المشروع السري دون مخاطرة... لكنها - على الناحية الأخرى - لم تكن تستطيع عصيان أوامر الرؤساء وإلا أدى هذا - بالنسبة إليها - إلى ما لا تحمد عقباه.

غير أن الوصول إلى حقائق تلك الليلة العصبية، لم يكن له سوى طريق واحد، هو معرفة تصرفات وخطوات «هر هينرتش» بأكبر قدر من الدقة.. ولقد قالت زوجته «جروتروود» فيما بعد إنها تذكر أحداث ذلك اليوم جيدًا... فهي تذكر مثلاً، أن «مارجريت فريش» عندما جاءت في الصباح، لم تكن مهندمة كما تعودت أن تراها، بل بدت ملابسها شبه مبتلة، وشعرها غير مصفف... وأنها ما إن دلفت إلى البيت، حتى اختفت في الحمام لفترة ليست وجيزة كي تصلح من شأنها وتستعد لأداء عملها، وعندما خرجت كانت عيناها حمرابين مما أكد لـ «جروتروود» أنها كانت تنكي... وعندما سألتها عما بها تهربت في البداية من الإجابة، ولكن مع الإلحاح انهمرت دموعها، ومع الدموع، قالت «مسز فريش» إن زوجها طردها من البيت في منتصف الليل في نوبة من نوبات السكر التي تتناوب بين الحين والحين، وإنها قضت جزءًا كبيرًا من الليل في خميلة بإحدى الحدائق العامة... غير أن ما كان يحيرها الآن أنها لا تستطيع أن تعود إلى البيت قبل يومين أو ثلاثة، وهي لا تدري إلى أين تذهب وليس معها من المال ما يكفي للنزول في فندق ولو كان رخيصًا...

وهكذا استطاعت هذه القاتلة المحترفة أن تجيد تمثيل دور الزوجة المضطهدة، وتدفع «جروتروود» لأن تعرض عليها أن تبقى عندهم هذين اليومين، فهناك غرفة للخادم لا تستعمل عادة، وكل ما عليها أن تجهزها للمعيشة... ولقد شكرتها «مسز فريش»... ودمعها ينهمر... ثم أضافت «جروتروود هينرتش» أنه عندما عرضت الأمر على زوجها رحب هو الآخر، فلقد كان يكن احترامًا حقيقيًا لهذه السيدة التي كانت تتقانى في خدمتهما... ثم قالت إنه في ذلك اليوم، عاد من عمله مبكرًا عن مواعده، وقد برر هذا بأن شخصية مهمة من الشركة الأم في الولايات المتحدة قد

وصل إلى أوتواوا، وأن ثمة عشاء عمل عليه أن يحضره في ذلك المساء مع هذه الشخصية... كان «فريدريك» يبدو متوترًا، فلقد راح يستعد لهذا العشاء بانتقاء ملابس تليق بالمناسبة، ولما كانت «جروتروود» تعلم أن مثل هذا العشاء عادة ما تحضره الزوجات، فلقد راحت هي الأخرى تستعد له... وعندما سألها «فريدريك» عن سبب استعدادها هذا، قالت:

- ألم تقل إنه عشاء عمل؟!!

- نعم... لقد قلت هذا فعلاً!

- ألم تجر العادة على حضور الزوجات مثل هذا العشاء؟!!

بدا الارتباك على «فريدريك» لثوانٍ، غير أنه اقترب منها في تودد قائلاً:

- إن هذا عشاءً مختلف «جروتروود»!

نظرت إليه مستفسرة فأردف:

- إنه في البداية عشاء سري، وكنت سوف أطلب منك ألا تذكرني أمره لأحد، خاصة زوجات الزملاء والأصدقاء في المصنع إذا حدث أن التقيت بإحداهن!

- هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟!!

- جروتروود... لقد عانيت كثيرًا في الأيام الأخيرة من شكوكك في سلوكي، وليس أمامي الآن؛ حتى نعيش في سلام، إلا أن أبوح لك بسر.

- أنت تعرف فريدي أن أسرارك في صدري لا أبوح بها لمخلوق مهما كان.

- المشروع الذي أعمل به، ليس على قدر كبير من الأهمية فقط، بل على قدر كبير من السرية أيضًا!

راحت تنتظر إليه في انتظار أن يكمل حديثه. لكنه سرعان ما هتف:

- هذا كل ما في الأمر، أنا لا أستطيع أن أبوح لك بأكثر من هذا.

قالت «جروتروود» إن زوجها في تلك اللحظات، وعلى غير العادة، كان يبدو مثل طفل ارتكب ذنبًا... ولقد لفت نظرها أنه راح يتأنق أكثر مما كان يفعل في هذه المناسبات، وأنه طلب منها أن تساعد في اختيار البذلة المناسبة ورباط العنق المناسب، فوق أنه اعتنى بتصفيف شعره... لكن الغريب في الأمر أنه استعمل نوعًا من العطور كانت قد أهدته له في إحدى المناسبات لكنه رفض استعماله وقتها بحجة أنه يصلح للشباب لا لرجل في مثل عمره، قالت هذا ثم أضافت:

- نعم... كانت تصرفاته غريبة في ذلك اليوم، لكنني عزوت الأمر إلى أنه كان يريد أن يلقي قبولاً حسنًا لدى هذه الشخصية المهمة... ثم إنني أحسست من حديثه أن ثمة تزكية أو منصبًا سوف يعرض عليه، وأنه فضل ألا يذكر لي هذه الحقيقة حتى يتيقن منها!

ركنت «جروتروود» إلى الصمت لثوانٍ أردفت بعدها مختنقة الصوت:

- كنت سعيدة من أجله سعادة غامرة... ولقد ودعني قبل خروجه بقبلة كانت دافئة بحق!

في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، تلقت «إيلين إيستمان» مكالمة من «المطبخ» وكانت لا تزال في مكتبها بمحل بيع الملابس الداخلية الذي تملكه - وكان صوت المتحدث أجش ويبدو كأنه في عجلة من أمره... قال صاحب الصوت إن الشحنة الجديدة خرجت من المصنع وهي في طريقها الآن إلى المخزن... وكان معنى هذا أن «فريدريك» غادر المصنع في طريقه إلى البيت... ولقد أنهت «إيلين» المكالمة بعد أن شكرت صاحبها، ونظرت في ساعة يدها وقد اعتراها بعض التوتر وعادت إلى ما كانت فيه... وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة، دق جرس التليفون دقة واحدة ثم صمت، فأدركت أنه وصل إلى البيت، فلقد كانت هذه الدقة إشارة من «مسز فريش».

وهكذا تيقنت «إيلين إيستمان» من أن «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» أصبح تحت رقابة صارمة منها، فأية حركة، أو مكالمة تليفونية، أو حتى حديث بينه وبين زوجته، سوف تحاط علمًا به. وكان عليها الآن، أن تستعد للقاءه.

غير أنها، قبل أن تغادر مكتبها بدقائق، دق جرس التليفون، وعندما رفعت السماعه كان المتحدث هو «فرناندو كورتيز»... ما إن سمع الشاب صوتها حتى تدفق في الحديث معاتبًا، فلقد انقضت أيام ثلاثة دون أن يراها أو حتى يسمع صوتها. كان «فرناندو» يتحرق شوقًا للقاءها... ولم يكن صعبًا عليها أن تسترضيه، وأن تعتذر له بكثرة المشاغل، وأنها كانت تستعد في ذلك المساء للقاءه لولا دعوة على العشاء تلقتها من عميل مهم، وفي النهاية، وعدته بلقاء قريب...

ولم يكن أمام «فرناندو» سوى الخضوع للواقع، فراح يبيتها حبه، لكنها أعادت السماعه إلى مكانها معذرة بأن ثمة عميلًا وصل... وما لبثت أن غادرت مكتبها معذرة للعاملات معها في المحل، ثم أصدرت بعض التعليمات، وانصرفت بسرعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الموعد المحدد تمامًا، وصل «فريدريك هينرتش» إلى البيت... غير أنه لم ينس، أن يقف بسيارته بعيدًا عن البيت. وأن يقطع المسافة حتى بيتها سيرًا على الأقدام!

عندما دلف «فريدريك» إلى البيت، كانت «إيلين إيستمان» في أهبى حللها... كانت قد صفت شعرها بأسلوب مغاير لما تعوده منها، وارتدت فستانًا حديثًا يبرز مفاتها... وكان هذا وحده كافيًا لحمل الرسالة إليه، فلقد كانت تقول له بهذا الأسلوب إنها إنسانة أخرى مغايرة تمامًا لتلك التي كان يعرفها... في ركن من المكان، كان ثمة مائدة صغيرة تناثرت فوقها أطباق المشهيات التي كانت تتم عن معرفة كاملة لما تحتاجه الطبقة الأرستقراطية، وكان من بينها طبق اشتهر به إقليم «الساار» الألماني، والذي ينتمي إليه «هر فولر» أو «هر هينرتش».

بالنسبة لفريدريك، كانت المفاجأة سارة بكل المعاني، ولا بد أنه فسر الأمر على غير ما أرادت «إيلين»، لقد فسره - وكانت هي بالقطع قد وضعت هذا في الاعتبار - على أنه نوع من الترحيب الخاص به!

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي دخل فيها «فريدريك» إلى بيت «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»... ولقد نظر إليها ذلك الرجل الألماني الصارم

نظرة كانت تحمل، إلى جانب الإعجاب الصارخ، ضعفا ووهنا لم يغيبا عن فطنة تلك الفتاة التي كانت تبتسم له ابتسامة من الصعب على من كان في مثل حالته أن يقاومها!

ما إن استقر «فريدريك» في مقعده، حتى قال وكأنه يزيج من فوق كنفه عبئاً ثقيلاً:

- «إيلين»... لا بد لي من أعترف لك بشيء يتقل صدري.

فنهضت كي تعد له كأساً وهي تقول وكأن الأمر لا يعنياها:

- قبل أن تعترف بأي شيء، عليك أن تخبرني بما استقر عليه رأيك!

- بخصوص!

عادت إليه حاملة كأسه وهي تقول ساخرة:

- لعلك لم تتس حوارنا على شاطئ النهر!

- استمعي إليّ جيداً أيتها الفتاة... إن الـ.....

كان يتناول الكأس من يدها وهي تقاطعه في صراحة:

- عليك أنت أن تستمع هر فولر!

كانت «إيلين» الآن تخلع القناع، وكانت موقنة من أنها سوف تخوض معركة مخيفة، معركة يتوقف على نتيجتها حياتها أو حياته! راحت ترمقه في إمعان وكان وجهها الآن شاحباً شحوباً عظيماً... مضت لحظات صمت قال بعدها:

- من أين لك بهذا الاسم؟!

تصنعت الدهشة وهي تراه يبذل جهداً خارقاً كي يسيطر على أعصابه، جلست قبالته وهي تتساءل:

- أي اسم تقصد؟!

- لا داعي للمراوغة «إيلين»!

- أه... تقصد هانز فولر؟!

احتدم بالغضب، قفز من مكانه ناهضاً وهو يدمدم:

- لقد أخبرتك هذه الملعونة بالحقيقة!

- ملعونة؟!

هكذا تساءلت فاستدار نحوها وكان الخوف يعصف به، قال:

- نعم... «جروتروود»... هي الوحيدة في هذا العالم التي تعرف الحقيقة!

- لا داعي للخوف، كما أنه لا داعي لتوجيه التهم جزافاً!

تقدم منها محتدماً بغضب هائل:

- هي الوحيدة... قلت لك هي الوحيدة التي تعرف الحقيقة.

- ربما... لكنها لا تعرف أنك أصبحت أباً لطفل يحمل اسم «ردولف هينرتش».

كمن أصابته صاعقة كان فاغر الفم، كان مرتعداً في غير خفاء مرتجف الأوصال راح يحمق فيها غير مصدق، حاول أن يقول شيئاً لكنه لم يستطع... أخيراً وجد

صوته فجاءها كالفحيح:

- كيف لك أن تعرفي كل هذا؟!!

أشعلت «إيلين» سيجارة، ورشفت من كأسها رشفة، نظرت نحوه بعينين كالزجاج، في هدوء وبرود جاءه صوتها كسكين يقطع لحمه، قالت: إن كنت تظن أن «هرفولر» الأب قد أحرق كل المستندات التي تشير إلى انضمامك إلى الشبيبة النازية، فثق يا عزيزي أنك واهم!

بدا «هانز فولر» الذي اتخذ لنفسه اسم «فريدريك هينرتش»، كمن يترنح تحت ضربات قاصمة... اكتشف هذا الرجل المتعجرف أن حياته لم يعد فيها سرٌّ، وأنه أصبح عاريًا تمامًا أمام تلك الفتاة التي كان قلبه لا يزال يخفق بإعجاب شديد نحوها... عاد إلى الجلوس مرة أخرى، أخذ يحملق فيها وهي ترشف من كأسها في تُلذذ المنتصر، تساءل:

- من أنتِ بالله عليك؟!!

نهضت من مكانها متجهة نحو المائدة المعدة وهي تقول:

- ليس في الأمر سرٌّ، أنا «إيلين إيستمان»!

- وماذا تريدين؟!!

- أن نتبادل ما يثري حياة كل منا!

- وما معنى هذا؟!!

- معناه أن تعمل على إلحاق «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع.

- هل هذا هو كل شيء؟!!

- ومعناه أيضًا أننا سوف نتكفل بكل نفقات طفلك وتعليمه حتى يشب ويصبح رجلًا!

- في مقابل؟!!

- أن تتعاون معنا، وتمدنا بكل الحقائق عن مشروع هذا السلاح السري الذي تعمل في إنتاجه!

- أمركم... ومن أنتم!

- كي. جي. بي. المخابرات السوفيتية!

وسقط الكأس من يد «هانز فولر»... وتحطم بين قدميه!

17 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاغتيال..

لولا ذلك التقرير الذي اطلع عليه رجل المخابرات السوفييتي الذي لجأ إلى الغرب فيما بعد، والذي كتبه «إيلين راديونسكا»، لما استطاع أحد أن يعرف شيئاً عن تلك اللحظات التي تلت سقوط الكأس من يد «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»... فعندما سقط الكأس من يد الرجل كان يرتجف ارتجافاً عنيفاً، وكان جسده - لفرط انفعاله- يرتج أمام الفتاة في غير مقدرة منه للسيطرة على نفسه... فما كان من تانيا راديونسكا» أو «إيلين إيستمان»، إلا أن نهضت من مكانها في هدوء كي تأتي بجاروف صغير ملون، وراحت تجمع فيه بقايا الكأس المحطمة وكأن ما حدث شيء طبيعي لا غرابة فيه... ثم وكأية ربة بيت حريصة على نظافة بيتها، أخذت تجفف المشروب المراق بين قدميه... أما هو فكان يتتبعها في حركتها تلك الهادئة بعينين جاحظتين... كانت الآن راکعة بين ساقيه، انحنت فتهدل شعرها الذهبي وصنع حول رأسها إطاراً أخذاً... لم يستطع «فريدريك» المقاومة، ما لبث أن أمسك بكتفيها في عنف فراح جسدها يرتج بين يديه، شدد الضغط على كتفيها فلم تتذمر ولم تتأوه، بل لم يبدُ عليها أنها تشعر بأي قدر من الألم... سددت نحوه عينيها الزرقاوين، فازدادت ضربات قلبه، وازداد انفعاله وارتجافه... مضت لحظات ساد فيها الصمت تماماً، ما لبث «فريدريك» أن تساءل في فحيح المهزوم:

- من أنت بالله عليك!؟

- إيلين إيستمان!

جاءه الرد بارداً كالسيف القاطع، جاء هادئاً مثل صفة مكتومة... دفع بها بعيداً فسقطت فوق الأرض، نهض من مكانه إلى حيث المائدة الصغيرة، أعد لنفسه كأساً من شراب قوي طوح به في جوفه وكان واضحاً أنه يبذل جهداً عظيماً للسيطرة على انفعالاته... استدار نحوها فإذا هي تكمل تجفيف الأرض في هدوء... في صوت متوسل هتف:

- «إيلين»!

التفتت نحوه، رمته بنظرة تسيل رقة، تقدم منها خطوة وهو يتساءل:

- هل أنت جادة فيما قلت أم أنه نوع من الهذيان!؟

نهضت وهي تتمتم في استعلاء:

- لن نصل إلى نتيجة ما دمت منفعلاً إلى هذا الحد.

- لا بد أنك مجنونة!

قالت وهي تحمل الفوطة الورقية المبللة بالشراب إلى الداخل:

- لم لا نناقش الأمر في هدوء!؟

هم بالحديث لكنها استدارت نحوه مردفة:

- عليك أن تختار، فلن يجبرك أحد على شيء!

قبل أن ينطق حرفاً آخر، كانت قد اختفت!

كانت «إيلين» الآن تضرب على وتر هي موقنة من تأثيره عليه، وكان الاستعلاء والتعالي الذي تتحدث به إليه، يكاد أن يصيبه بالجنون، كانت موقنة أشد ما يكون اليقين من ذلك الإحساس الدفين لدى النازيين بأنهم من جنس أرقى من الآخرين، وكان هذا التعالي الذي تعمدته كفيلاً بأن يحطمه... وهكذا تركت له الفرصة كي يسترد نفسه ويهدأ قليلاً... وبالفعل، وجدت «فريدريك» عندما عادت من الداخل وقد هدأ بعد أن ألقى في جوفه بكأس أخرى، قالت وكأنها تسترضي طفلاً في العاشرة:

- والآن... هل نستطيع أن نتفاهم؟!!

الغريب في الأمر أن الرجل انصاع لاقتراحها... كان في تلك اللحظات يشعر بأنه محاصر من كل جانب، فعلاقته بالشبيبة النازية أصبحت تهدد حياته ومستقبله، وحتى لو لم يتبين عليه شيء، فهو خير من يعرف ما الذي يمكن أن يفعل به ومعه هؤلاء اليهود المندسون في كل فروع الحياة، لا في كندا وحدها، بل في الولايات المتحدة وأوروبا... كما أن علاقته بـ «لويز ماك كورميك»، وذلك الطفل الذي أنجبه منها، كانت كفيلاً بأن تحطمه اجتماعياً... ولم يكن أمامه سوى الخضوع... عاد إلى مقعده فجلست قبالة... كانت رغم ضآلة جسدها تبدو شامخة قوية راسخة... غير أنه قبل أن ينطق حرفاً دق جرس التليفون، فانتظر منها أن ترد لكنها لم تفعل ولم تغادر مكانها، وأوماً نحو التليفون متسائلاً:

- ألا تحييين؟!!

هزت كتفيها في لا مبالاة وهي تقول:

هناك ما هو أهم!

.....

.....

كانت «جروتروود» هي التي تطلب «إيلين» في تلك الساعة، ظلت السماعه في يدها لفترة، ولما لم تجد جواباً أعادتها إلى مكانها... ولقد قالت «جروتروود» فيما بعد دامعة العينين إنها تذكر تفاصيل تلك الليلة بدقة... فما إن غادر زوجها البيت حتى اعترها قلق غامض، قلق غريب أخذ يتصاعد ويشند حتى استولى عليها تماماً... تذكرت أن «فريدريك» لم يذكر لها مكان ذلك العشاء المهم الذي دعي إليه، وقعت في الحيرة، انقضت ساعة وأخرى دون أن يفارقها ذلك القلق الغريب، جلست أمام التليفزيون، حاولت الاستغراق فيما كان يعرضه، غيرت القنوات وانتقلت من قناة إلى أخرى لكنها اكتشفت أنها لم تكن تشاهد شيئاً... أغلقت التليفزيون. وعندما همت بالنهوض فوجئت «بمارجريت فريش» تقف فوق رأسها... انتفضت، تراجعت، فابتسمت «مارجريت» قائلة:

- هل هناك ما يشغل بالك إلى هذا الحد يا سيدتي؟!!

هزت «جروتروود» رأسها إيجاباً وهي تتمتم:

- يعتريني قلق غريب «مارجريت»!

- ما رأيك في كأس من اللبن الساخن؟!!

قالت «جروتروود»، إن تلك السيدة كانت حنونة كالأم، فما إن سألتها ذلك السؤال حتى وافقت... لكنها كانت في حاجة إلى من تتحدث إليه، من تبثه قلقها، ولم يكن هناك سوى «إيلين إيستمان».

ولكن «إيلين» لم تكن في البيت فقد ظل جرس التليفون يدق لدقيقة وبعض الدقيقة دون أن تجيب.

هكذا قالت «جروتروود»، ولذلك... عندما جاءت «مارجريت» بكوب من اللبن الساخن، طلبت منها الجلوس إليها. وراحت تثرثر في لا شيء، وكانت هذه تستمع إلى تثرثرها وهي تبثسم في حنان... ما إن انتهت «جروتروود» من الحديث، حتى كانت قد أتت على كوب اللبن الساخن.

- الغريب أنني بعد أن تحدثت إلى «مسز فريش» داخلني الهدوء، وراودتني رغبة شديدة في النوم... وكانت الساعة تشرف على التاسعة مساءً!

- وهل أويت إلى الفراش في ذلك الوقت؟!

- واستغرقت في النوم!

.....

.....

قالت «مارجريت فريش» للمحقق!

- بكل تأكيد استغرقت في النوم، لأنني وضعت لها في كأس اللبن حبة من مهدئ قوي!

- ولماذا؟!

أجابت في هدوء وكأنها تتحدث عن نزهة!

- لأنني كنت مدركة أن الليلة تحمل الكثير في حناياها، ولذلك أردت أن يتم كل شيء في هدوء ودون مفاجآت!

كان الحوار بين «فريدريك» و«إيلين» يحتدم لحظة بعد أخرى، هتف بها:

- لست أدري كيف تتورط فتاة ناجحة وذكية مثلك في مثل هذا العمل المشين؟!

- إنك ترى الأمور من جانب واحد!

- «إيلين»، استمعي إلي جيداً!

- إنني أستمع بانتباه شديد!

- لا بد لي من الاعتراف بأنني معجب بك أشد الإعجاب، بل إن الأمر تعدى الإعجاب منذ كنا معاً في تلك الرحلة التي قمنا بها في إجازة عيد الفصح!

- أيها الرجل... عليك أن تنتبه إلى أنك لست من جنس أرقى كما لقنوك وأنت صغير!

- لا تجنحي بالحديث إلى رافد آخر.

- فلماذا تشعر أنك تحن على الآخرين بحبك وإعجابك!

- ليس هذا حقيقياً!

- لو أنك نظرت إلى الوجه الآخر للقضية، لأدركت أنك تشارك في جريمة ضد البشرية كلها!

- لقد أترف الشيوعيون عقلك!

كان الرجل يظن، حتى تلك اللحظة، أنها بالفعل بريطانية، ولم يخطر بباله أنه يجلس إلى فتاة روسية تعلمت في واحدة من أخطر مدارس الجاسوسية... ولقد كانت «إيلين» تدرك هذا بطبيعة الحال، فهتقت به وكأنها تدافع عن مذهب سياسي:

- إن السلاح الذي تعمل الآن في إنتاجه، سوف يعطي البعض فرصة لتدمير الآخرين!

- أمن أجل هذا تتعاونين مع السوفييت؟!

- من أجل هذا أريدهم أن يعرفوا سر هذا السلاح، لأن وجوده في أيديهم سوف يمنع الأمريكيين من السيطرة على هذا الكوكب التمس!

- ولكن السوفييت يعملون على ابتكار أسلحة أشد فتكًا.

- وهناك منهم من يعمل لحساب الأمريكيين.

- أنت بالتأكيد مجنونة!

- ربما... ولكن عليك أن تعترف أنك مكابر!

- ليس في الأمر مكابرة... لكني لا أستطيع أن أخون الوطن الذي آواني!

- ولكنك في شبابك كنت تقف في المعسكر المضاد، وكنت تعمل على تدمير هذا الوطن!

قبل أن يرد أردفت:

- تمامًا، مثلما فعل أبوك!

كان «فريدريك هينرتش» الآن قد تمالك نفسه، كما أنه استعاد رباطة جأشه بعد أن زال، مع الحوار، تأثير الصدمة التي تلقاها منها... نظر في ساعة يده وكانت تشير إلى العاشرة، ابتسم، وكانت ابتسامته حزينة، قال:

- لقد أتيت إليك أحمل في قلبي مشاعر حميمة!

- والآن!

نهض واقفًا كمن استقر رأيه أخيرًا وهو يقول:

- إنني أعلم تمامًا أنك تستطيعين تدميري بما لديك من معلومات، ولا بد من الاعتراف أن كل ما ذكرته صحيح تمامًا... ولكن، وبالرغم من كل شيء، أنا لا أستطيع أن أجاريك فيما أنت فيه.

نهضت مواجهة إياه وهي تقول في صوت متكسر كان يحمل شحنة أنثوية صارخة:

- ألا تعطي نفسك فرصة للتفكير؟!

لزم «فريدريك» الصمت لثوان، كان واضحًا أنه يقاوم إغراءً كاسحًا، لكنه لم يلبث أن قال:

- ولسوف أعطيك أنت أيضًا نفس الفرصة!

- فكر في مستقبلك .

في مرارة وتصميم قال :

- لقد أصبح مستقبلي وراء ظهري!

- فكر في ولدك!

- إذن فهو تهديد؟!!

- سمه ما شئت!

قالت هذا فلزم الصمت... سار حتى الباب، كانت تقف في مكانها كتمثال للحسن لا يبارى، قبل أن يغادر البيت ألقى عليها نظرة، ثم قال في حسرة:

- ليس أمامي سوى طريق واحد.

ثم انصرف!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحست «إيلين إيستمان» أن الغضب يجتاحها اجتياحًا، ازداد يقينها من غياب الرؤساء في موسكو، فلو أنهم أخذوا بوجهة نظرها لما وجدت نفسها في مثل هذا المأزق... ذلك أن الأمر لم يكن في حاجة إلى تردد أو تفكير، كانت جملة «فريدريك» الأخيرة واضحة المعنى والدلالة معًا، وكان استرداده لرباطة جأشة دليلًا على عناده وتصميمه، وقبل أن يأتيها أي تقرير من المطبخ عن تحركات الرجل الذي غادرها منذ دقائق، رفعت سماعة التليفون وطلبت بيت «فريدريك».

كانت «جروتروود» مستغرقة في النوم في ذلك الوقت، ولم يكن «فريدريك» قد وصل إلى البيت بطبيعة الحال... دق جرس التليفون دقتين ثم توقف، ثم دقة واحدة وكف، فأدركت مارجريت فريش، وكانت مستيقظة، أن الأمر قد صدر، وأن عليها أن تغتال الرجل!

غير أن «إيلين» كانت تعلم أن وراءها الكثير لكي تفعله... فماذا لو كان «فريدريك» قد غادرها كي يبلغ عنها في نفس الليلة... ولأنها لم تكن تترك شيئًا للمصادفات، فلقد أسرع إلى دولا ب ملبسها، ومن درج سري في الدولا ب أخرجت بضعة أشياء على عجل، كان من بينها جواز سفر باسم آخر، كما كانت هناك باروكة شعر سوداء، ثم صندوق صغير لأدوات المكياج... جلست أمام المرآة وكانت الآن في انتظار ما سوف يأتي من المطبخ... قبل أن تخط خطًا واحدًا على وجهها دق جرس التليفون، رفعت السماعة في لهفة، جاءها الصوت عبر الأسلاك ثابتًا:

- مس إيستمان؟!!

- أنا هي؟!!

لقد وصلت البضاعة إلى المخزن!

- شكرًا!!

قالت هذا وهي تتنفس الصعداء، لقد وصل «فريدريك» إلى البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت «مارجريت فريش» إن الرجل عندما عاد من الخارج كان يبدو مستغرقاً في التفكير مهموماً... سألتها عن زوجته فقالت له إنها شعرت برغبة في النوم فأوت إلى الفراش منذ ساعة وبعض الساعة... أبدى دهشته من استيقاظها حتى تلك الساعة فقالت:

- خشيت أن تحتاج لشيء يا سيدي!

ابتسم «فريدريك» في امتنان، ثم ما لبث أن قال وهو يتجه إلى غرفة مكتبه:

- أكون شاكرًا لو أنك أعددت لي كأسًا!

وكان هذا بالتحديد ما تنتظره «مارجريت فريش»... راحت تعد الكأس بينما خلع هو معطفه ودلف إلى غرفة المكتب... كانت تعرف بالضبط ما يجب أن تفعله، جهزت الكأس، أخرجت زجاجة السم، وأسقطت في الكأس ثلاث نقط.

عندما دلفت إلى الغرفة كان الرجل يجلس إلى المكتب كي يستعد للعمل، وضعت الكأس أمامه ثم سألته:

- هل من خدمة أخرى يا سيدي؟!

لم يرفع رأسه نحوها، بل قال وهو يعد بعض الأوراق:

- لا شيء «مارجريت»، أشكرك وتصبحين على خير!

غادرت «مارجريت» الغرفة لكنها لم تأو إلى فراشها... بل ظلت جالسة في انتظار سماع حركة أو نداء... مضت الدقائق... دون أن تسمع شيئاً... بعد عشرين دقيقة خرجت من غرفتها متسائلة، عبرت البهو على أطراف أصابعها إلى حيث كان باب غرفة المكتب نصف مغلق، عندما ألقت نظرة على الداخل، كان «هرهينرتش» منكفئاً على مكتبه جثة هامدة!

18 - قاتلة باردة الأعصاب! فاتح شهية لمزيد من القتل!

قال كل الذين سئلوا كيف كانت «إيلين إيستمان» في ذلك الصباح الذي اكتشف فيه اغتيال «فريدريك هينرتش»، إنها ظلت هادئة تمامًا. متمالكة لأعصابها، لبت نداء صديقها «مسز هينرتش» التي كانت في حالة يرثى لها... ذلك أن «جروتروود»، ما إن اكتشفت وفاة زوجها المفاجئة لم تجد أمامها سوى اللجوء لـ «إيلين» التي لبت النداء بسرعة، بل كان اللافت للنظر أن «إيلين» كانت وراء ذلك التصميم الذي أبدته «جروتروود» على تشريح جثة زوجها لمعرفة سبب الوفاة، رغم أن الطبيب الذي استدعي على عجل، أكد أن الوفاة جاءت نتيجة هبوط مفاجئ في الدورة الدموية... وجاءت نتيجة التشريح لتؤكد ما ذهب إليه الطبيب، وفيما بعد... فلقد أكدت «فراو هينرتش» أنه لولا وجود «إيلين» وسرعة تصرفها لما استطاعت أن تفعل شيئاً!

ولقد علق المحققون على تصميم «إيلين» على تشريح جثة الرجل الذي أمرت بقتله، بأن هذه الفتاة الغربية، ذات الأعصاب الفولاذية، إنما أرادت بتصميمها هذا، أن تتأكد من أن السم الذي أمدها به «فرناندو كورتيز»، لا يترك أثرًا بالفعل في جثة المتوفى، وأن هذا دليل لا سبيل إلى التفاوض عنه، على أن هذه الجاسوسة كانت تملك كل مقومات الجاسوس القوي الأعصاب، والقادر تمامًا على مواجهة أية عقبات مهما كانت خطورتها!

وعندما قصت «مارجريت فريش»، بعد أن اعترفت بكل شيء، قصة تلك الليلة، قالت إنها عندما رأت «مسز هينرتش» منكفئة فوق مكتبه، لم تشأ أن تدخل الغرفة أو تفعل شيئاً قبل أن تتأكد من أن «جروتروود» مستغرقة في النوم فعلاً... وعندما تأكدت من هذا، عادت إلى غرفة الكتب كي تقوم بما كان يجب عليها أن تقوم به!!

بداية - هكذا قالت «مسز فريش» - فلقد تأكدت بعد أن جست نبض الرجل، أنه بالفعل قد فارق الحياة... فلم تقترب منه، بل رفعت الكأس من أمامه، وأفرغت ما كان فيها من شراب، ثم غسلتها وجففتها جيداً، وأعادتها إلى مكانها، ثم التقطت كأساً أخرى أحاطتها بفاطمة صغيرة، ووضعت فيها قليلاً من الشراب مما يومئ بأنه استعمله، ثم مسحت بصماتها من فوق الزجاجية وحملتها كي تضع عليها بصمات القتل، وكذلك فعلت بالكأس... وقبل أن تنصرف، لفت نظرها تلك الأوراق الموضوعة فوق المكتب، وكان ثمة بضعة أسطر لا تزيد على العشرة، كان «فريدريك» قد خطها... وفي حرص شديد سحبت الورقة مع ورقتين أخريين تحتها وطوت الأوراق كي تسلمها لـ «إيلين» في اليوم التالي... ثم، وعندما اطمأنت إلى أن كل شيء على ما يرام، غادرت الغرفة، وأوت إلى فراشها، واستغرقت في النوم!

كانت رواية «مسز فريش» غريبة إلى الحد الذي دفع المحقق إلى سؤالها:

- هل قرأت ما كان مكتوباً فوق تلك الورقة؟!

- لم أكن في حاجة إلى هذا!

- ألم يدفعك الفضول إلى قراءة ولو سطرًا واحدًا؟
- نعم حدث هذا... فلقد وجدت الخطاب موجهاً إلى «مستر ج. ويمبلي»!
- هل هذا هو كل شيء؟!؟
- هذا هو كل شيء؟!؟
- هل تعرفين من هو «مستر ويمبلي» هذا؟!؟
- ومن أين لي أن أعرف؟!؟
- وماذا فعلت بالأوراق؟
- لقد قلت إنني سلمتها لـ «مس إيستمان»!
- متى؟!؟

قالت «مارجريت فريش» وهي تشعل سيجارة:
 - في الصباح التالي عندما استدعتها مسز هينرتش!
 - هكذا؟!؟

رفعت حاجبيها دهشة وهي تقول:

- لم يكن هناك أحد في البيت، فلقد وصلت «مس إيستمان» قبل وصول الطبيب، وكانت «جروتروود» تجلس إلى جوار جثة زوجها باكية، وعندما فتحت الباب لـ «إيلين» كان لا بد أن أتخلص من تلك الأوراق فلم أكن أدري ما الذي سوف يحدث بعد ذلك، فقدمتها لها كي تأخذها وتضعها في حقيبة يدها دون كلمة!

لم تكن «مارجريت فريش» تعلم أن «مستر ويمبلي» هذا الذي قرأت اسمه، كان مديرًا لإدارة الأمن في مصنع الكيماويات الذي كان «فريدريك» يعمل به... وبالقطع، فلقد استنتج المحققون أن الرجل كان جادًا في تهديده لـ «إيلين»، وأنه ما إن عاد إلى البيت، حتى شرع في كتابة تقرير عما دار بينه وبين «إيلين» من حوار! ومن المؤكد أن هذه الأوراق كانت دليلًا جديدًا لـ «إيلين» بأن حاستها تلك الغامضة، دائمًا كانت تقودها إلى الطريق الصحيح، فلو أنها تأخرت ليلة واحدة عن اتخاذ القرار بقتل «فريدريك»، لحدث ما لا تحمد عقباه!

أما «جروتروود هينرتش»، فلقد قالت إنها استيقظت في حوالي الساعة السادسة صباحًا، وهذا هو الموعد الذي تعودت أن تستيقظ فيه عادة، كي تعد الإفطار وفنجان القهوة لزوجها قبل أن يستيقظ... ولقد دهشت هذه السيدة عندما لم تجد زوجها إلى جوارها مما دفعها إلى مغادرة الفراش بسرعة... وكان اللافت لنظرها أنها وجدت البهو مضاءً، كما أن غرفة المكتب هي الأخرى كانت مضاءة والباب مفتوحًا... هرولت قاطعة البهو وكانت تظن أن زوجها ظل يعمل طوال الليل، غير أنها رآته منكفئًا فوق المكتب، فظنت أنه نائم... ما إن اقتربت منه، وربنت على كتفه منادية إياه، حتى مال جسده وسقط فوق الأرض... وهنا، أطلقت صرخة أيقظت «مارجريت فريش» التي جاءت مهولة كي تجد جروتروود راكعة إلى جوار زوجها وهي تناديه في جزع.

وأضافت «جروتروود» أن «مسز فريش» كانت ترتدي قميص نوم من نوع رخيص، وكان النوم لا يزال يداعب عينيها، وأنها ساعدتها في حمل «فريدريك» إلى الأريكة حيث أوسدته هناك... مالت «مارجريت» بعد هذا كي تضع أذنها فوق صدر الرجل، لكنها ما لبثت أن رفعت رأسها قائلة لـ «جروتروود»، إن عليها أن تتمالك نفسها، فلقد فارق زوجها الحياة!

.....

.....

بعد يومين من دفن «فريدريك هينرتش»، أو «هانز فولر»، في احتفال عائلي بسيط، حضره عدد من زملائه في المصنع، كما حضرته «إيلين إيستمان» - التي لازمت جروتروود طوال الوقت- في ملابس الحداد، وكان في صحبتها «فرناندو كورتيز»... ولم يكن غريباً بعد أن أصرت «جروتروود» بإيحاء من «إيلين» على تشريح الجثة، أن وصل إلى البيت في نفس يوم الوفاة، عدد من رجال التحقيق الجنائي بصحبة «مستر ويمبلي» مدير الأمن في المصنع، لرفع البصمات وتحليل ما تبقى في الكأس من شراب... غير أن النتائج جاءت كلها سلبية، وكانت النتيجة التي توصل إليها الطب مع رجال التحقيق الجنائي... أن السيد «فريدريك هينرتش» توفي نتيجة إرهاب شديد في العمل... وهكذا أغلق الملف تماماً!!

كانت «إيلين» في الأيام التي تلت الوفاة هادئة تماماً، ولقد ظلت «مسز فريش» تعمل في خدمة «جروتروود» لبضعة أسابيع تالية، حتى اعتذرت لها «جروتروود» قائلة إنها لا تستطيع أن تدفع لها أجرها، وهكذا انسحبت تلك القائلة في هدوء من حياة تلك السيدة... وبينما كانت «إيلين» تمارس حياتها بشكل طبيعي، كانت تتصل بين الحين والحين بصديقتها الأرملة لتطمئن عليها أو لتدعوها على كأس أو عشاء خفيف في مقصف قريب!

انقضت الأيام بعد ذلك حتى اتصل بها الروسي الأبيض وزوجته أنا... وكانا قد علما من إحدى عاملات المحل بوفاة زوج صديقتها، فأرادا أن يُرَفَّها عنها لإخراجها من الجو الحزين الذي أحاطتها به تلك الوفاة المفاجئة... ولذلك، فلقد انتهزا فرصة إقامة عشاء خاص لمجموعة من الأصدقاء المقربين في بيتهما، فوجها الدعوة إلى «إيلين» التي أبدت تردداً دفع «فاسيليف إيفانوف» إلى القول:

- إنه عشاء من نوع خاص، فكل المدعوين، ما عداك. من الروس!

- أشكركما على هذه الدعوة ولكن... ..

قاطعتها «أنا إيفانوفنا»:

- لا تترددى «إيلين»، فهي فرصة لا تعوض!

- فرصة؟!!

هكذا تساءلت «إيلين» فأجاب «فاسيلي»:

- إذا أردت أن تقومي بسياحة إلى الماضي فاقبلي الدعوة!

ابتسمت «إيلين» مبدية عدم فهمها لما قال، فلاحقتها «أنا» قائلة:

- إن أردت أن تعيشي في روسيا، لا في الاتحاد السوفياتي، فإن هذه فرصة لا تعوض... إن الجميع من الروس البيض، ومنهم اثنان يعيشان في الولايات المتحدة! وبطبيعة الحال، كان هذا صيدًا ثمينًا من الصعب أن تتعاضى عنه «إيلين»، ولذلك، فلقد تمتت قائلة إنها مرتبطة بشاب وإنها على موعد معه في نفس المساء، فما كان من أنا إيفانوفنا إلا أن هتقت:

- إنه يسعدنا أن نستقبل صديقك «مس إيلين»!

وهكذا وجهت الدعوة إلى «فرناندو كورتيز»، الذي ما إن اتصلت به «إيلين»، حتى زف إليها خبرًا غريبًا، قال:

- إنك لن تصدقي ما حدث!

- ماذا حدث فيرني؟!!

قفز به اسم التدليل هذا إلى آفاق سعادة بلا نهاية... قال:

- وصلت دعوة من مصنع الكيماويات لمقابلة أحد المسؤولين هناك!

لم يكن الأمر مفاجأة لـ «إيلين»، فاستقبلت الأمر ببرود... كانت موقنة أن «فريدريك هينرتش» لم يكن ليضيع الفرصة من بين يديه، وإذا كان «فرناندو» يملك تلك المواهب التي حدثها عنها، وإذا كان الراحل العزيز كان يود التقرب منها بأي ثمن... فلم يكن من الطبيعي أن يهمل أمر تعيينه في المصنع!

في تلك الليلة، كان «فرناندو كورتيز» أو «إيمانويل سييرا» في حالة من السعادة حلقت به فوق السحاب، أضافت الدعوة التي تلقاها في المصنع، مع لقائه «إيلين» سعادة فوق سعادة... كانت أيام طويلة قد انقضت منذ أن التقى بها مع عشاء، وكان حبه لها يشتعل يومًا بعد يوم... ولقد قال للمحققين واصفًا حالته في تلك الليلة:

- ... الغريب في الأمر يا سيدي، أن «إيلين» كانت تتعامل معي في خط أفقي لاذبذبة فيه على الإطلاق، فهو أسلوب لا يرتفع ولا ينخفض، دقيق كل الدقة في مراحل مختلفة... وكان هذا مثيرًا إلى حد الجنون!

- وكيف كان هذا؟!!

- إنها أبدًا لم تشعرني في يوم من الأيام بأني غير محبوب أو أن عاطفتها نحوي قد فترت، بل على العكس، كانت هناك لحظات كانت تشعرني فيها بأني قد أصبحت كل شيء في حياتها!

- وماذا في ذلك؟!!

- وكانت تلك اللحظات تختفي مع انتهائها كي يحل محلها ذلك البرود الإنجليزي القاتل!

- إذن فلقد كان هناك صعود وهبوط!

- إطلاقًا، كان برودها هذا دافعًا لي كي أبدأ البحث عن تلك اللحظات من جديد!

- ثم...؟!!

- ثم تأتي تلك اللحظات كي تختفي ثم أبحث... وهكذا!

تململ المحقق في جلسته وهو يسأل:

- ومتى تم استدعاؤك إلى مصنع الكيماويات؟!
- قبل ذلك العشاء في بيت «فاسيليف إيفانوف» بيوم واحد!
- ومن الذي استقبلك؟!
- رجل يدعى «هنري بلاك»، وكان واحدًا من المدعوين في بيت «مستر هينرتش» ليلة أن تناولت العشاء في بيته بصحبة «إيلين».
- وكيف كان اللقاء؟
- هو شيء محير يا سيدي، لقد وجدت أمام الرجل ملفًا به كل شيء عن حياتي في المكسيك، كل شيء عن عمي الذي يعيش هناك، ورغم هذا، فإن المستر «بلاك» قال لي إنني مستوفٍ لكل الشروط، وأن المصنع في حاجة ماسة إلي... خاصة بعد رحيل «مستر هينرتش» الذي أوصى بتعييني قبل وفاته، لكن ثمة عقبة في الطريق كان الرجل يرجو أن يتخطاها!
- ألم يخبرك عن هذه العقبة!
- لا... لم يحدث، لكنه وعدني بالاتصال بي في خلال أسبوع.
- وهل اتصل بك؟!
- اعتدل «فرناندو كورتيز» في جلسته قائلاً:
- إنني أعمل في المصنع منذ عامين تقريبًا يا سيدي.
- هل كنت تبوح لـ «إيلين» بأسرار عملك؟!
- تردد «فرناندو» لبرهة، بدا عليه الخجل لكنه تمتم:
- ليس تمامًا!
- هز الرجل رأسه قائلاً وهو يزفر:
- لنعد إلى ذلك العشاء في بيت «فاسيليف إيفانوف»!
وبدأ «فرناندو» يحكي...
- راح يتحدث عن سعادته، ويصف الجو الذي فاجأه و«إيلين» في بيت «فاسيلي وأنا»، وكان ذلك الشاب، خالي الذهن تمامًا مما حدث على حقيقته، لم يكن يعلم أن ذلك العشاء قد تسبب في قتل دبلوماسي شاب في الخارجية الكندية، واختطاف «فاسيليف إيفانوف» في صندوق طار به إلى موسكو!

19 - قاتلة باردة الأعصاب!

أسرار بلا ثمن!

قال «فرناندو كورتيز» عن ذلك العشاء الذي أقيم في بيت «فاسيليف إيفانوف» وزوجته «أنا»، إنه كان بالنسبة إليه شيئاً أسطورياً، فلقد شعر منذ الوهلة الأولى لوصوله مع «إيلين»، أنه انتقل من كندا إلى روسيا القرن التاسع عشر... كان كل ما يحيط به يذكره بفيلم «الإخوة كرامازوف» المأخوذ عن قصة الروائي الروسي «ديستوفسكي»... فلقد كان أول ما لفت نظره، أن الجميع بلا استثناء، رجالاً ونساءً، كانوا يرتدون الملابس الروسية التقليدية... الرجال يرتدون ذلك القميص الواسع، والسروال الذي ينتهي بحذاء مرتفع الرقبة حتى قرب الركبة، أما السيدات فكن يرتدين تلك الملابس المزركشة ذات الألوان الزاهية... ولما كان الوقت في منتصف الربيع، فلقد أقيم العشاء في الحديقة الخلفية للبيت، حيث تصاعدت رائحة الشواء، بينما راح «فاسيلي» وأحد الضيوف يشرفان على شي اللحم... وفي ركن من الحديقة، كان ثمة مائدة عامرة بأطياب الطعام وفتاحات الشهية خاصة الكافيار الروسي الشهير، وكان أحد الضيوف الذي يذكر «فرناندو» أن اسمه كان «أليكس» يعزف على القيثارة بينما الجميع يرقصون على أنغام العزف... وسرعان ما استغرقه ذلك الحفل وما فيه من شخصيات كانت تبدو له في بعض الأحيان وكأنها ليست بشراً وإنما هي مؤلفة في قصة أو رواية... أما «إيلين» فلقد انتحت جانباً، جلست في استرخاء على مقعد وثير وهي ترقب الجميع في صمت... ومن حولها كان المكان يضح بالفتوة والصخب والأنوثة والتحدي واندفاعات الشباب... باختصار، كانت تلك ليلة مارس فيها الجميع حريتهم، وأنهم في غالب الأحيان كانوا ينسون وجوده هو و«إيلين» ويندفعون في الحديث مع بعضهم البعض باللغة الروسية... وعندما انتبه «فاسيلي» ذات لحظة إلى هذا. حاول الاعتذار لـ «إيلين» التي هزت كتفيها في لامبالاة قاتلة:

- إن الجميل في الأمر، أن اللغة الروسية تضي على المكان مزيداً من السحر!

ولقد هلل الجميع وصفقوا لهذا التعليق الرفيع من تلك الفتاة البريطانية الرصينة، والتي كانت تجلس وسطهم جلستها تلك المعتادة، التي لا تشعرك بوجودها، أو حتى بالحرَج إذا ما تصرف أحد الحضور تصرفاً غير لائق في لحظة نشوة أو لحظة تهور!

وعندما سُئل «فرناندو» عن الحضور وعن وظائفهم ومكانتهم، عجز عن الإجابة، غير أنه قال إن ثمة رجلاً في حوالى الخامسة والأربعين، رمادى الشعر، شديد بياض البشرة إلى حد الشحوب، كان يبدو بشكل خاص وكأنه أكبر الجميع مكانة، وأقلهم حديثاً.... وإذا ما تحدث إليه أحدهم شاب حديثه احترام واضح، وربما شيء من خوف!

غير أن «فرناندو» أثناء إدلائه بأقواله، توقف للحظة وكأن هناك شيئاً يريد أن يبوح به... ولم يكن صعباً على المحققين أن يدفعوه إلى الحديث، فلقد قال بعد قليل من التردد، إنه لاحظ أن «فاسيلي» يكن إعجاباً خاصاً بـ «إيلين» وأنه كان يوليها من

اهتمامه أكثر مما يولي الآخرين، مما دفع زوجته «أنا» إلى أن تنتهز فرصة انفرادها به في طرف من الحديقة كي تنهزه... ورغم أن الأمر بدا لـ «فرناندو» من بعيد وكأن «فاسيلي» ينفي عن نفسه الاتهام، فإن الغضب ظل مسيطراً على «أنا» لفترة... وعندما سأل المحقق عن رد فعل «إيلين» إزاء هذا، قال «فرناندو»:

أعتقد أنها لم تنتبه إلى هذا الموقف... وحتى ولو كانت قد انتبهت أو سمعت الحوار، ما كان لها أن تفهم شجاراً بين زوجين باللغة الروسية!!

صمت الشاب للحظات ثم أضاف:

- كانت كعادتها في مثل تلك الحفلات، تبدو مثل ملكة تتربع على عرشها، تنظر إلى الجميع من عليائها، تسر لسرورهم، وتسعد لسعادتهم، لكنها أبداً لا تشاركهم مرحهم!!!

.....

.....

لم يكن أحد من الحاضرين يعرف، أو حتى يخطر بباله، أن «إيلين إيستمان» إنما كانت تعيش معهم لحظة بلحظة... وأنها كانت تفهم ما يدور بينهم من حوار كلمة كلمة، وأنها مثلهم روسية حتى النخاع... وبطبيعة الحال، فلقد كان الرجال - وسط الصخب- يتحدثون عن أعمالهم بصراحة ودون حذر... ولقد توصل المحققون - عن طريق «أنا إيفانوفنا»- إلى هؤلاء الأشخاص الذين كان من بينهم دبلوماسي يعمل في الخارجية الأمريكية، ولقد اعترف هذا الدبلوماسي أنه تحدث إلى أصدقائه عن أزمة كانت قد نشبت في ذلك الوقت بين حكومتي الولايات المتحدة وكندا، حول مشروع حيوي كان مقدراً له أن يقام في بحيرة أونتااريو في جنوب كندا، والتي تشترك الدولتان في مياهها وشواطئها... غير أن هذا الدبلوماسي أكد أن حديثه مع أصدقائه كان باللغة الروسية، وأنه تعمد هذا حتى لا تفهم «إيلين» أو «فرناندو» شيئاً عن طبيعة ذلك المشروع الذي كان يعتبر سرياً إلى أقصى حد في ذلك الوقت!

كان هذا خيطاً جديداً أوصل الرجال إلى جريمة قتل أخرى اقترفتها «إيلين» بعد بضعة أسابيع من ذلك الحفل!!

غير أن المهم في الأمر أن «فاسيلي»، وقد وصل الحفل إلى ذروته، انتحى ذات لحظة بذلك الرجل الأشيب الشعر الأبيض البشرة إلى حد الشحوب، والذي لم نعرف عنه شيئاً، وإن كان هناك شك قوي في أن يكون واحداً من رجال المخابرات الأمريكية أو الكندية... ولقد تم هذا الحديث بالقرب من «إيلين» التي لم يبد عليها - وقد سمعت ما دار بينهما حرفاً بحرف- إنها كانت تفهم كل كلمة... بدا «فاسيليف» وكأنه يقدم تقريراً للرجل عن المشروع الحيوي الذي كان يشارك فيه في مصنع الإلكترونيات... كان واضحاً تمام الوضوح أنه متحمس، وأنه سعيد وهو يحكي عن ذلك الاكتشاف الجديد الذي توصل إليه مع زملائه العلماء... وقال فاسيلي لصديقه الغامض ذاك، إنه يعتبر ثورة في أجهزة الرصد، ذلك أنه عبارة عن جهاز يستطيع أن يرصد تحركات الجيوش أو المعدات على بعد مئات الأميال... ولقد كان هذا في ذلك الوقت حلماً من أحلام رجال الحرب والعلماء معاً، والذي تحقق فيما بعد... والمرجح، بل المؤكد، أن «إيلين» استوعبت الحديث الذي كان يدور بين الرجلين

باللغة الروسية وأدركت أهميته، مما دفعها إلى إبلاغ الرؤساء في موسكو، صبيحة اليوم التالي، طالبة الرأي في كيفية الاتصال بـ «فاسيلي»!!

هكذا قال رجل المخابرات السوفياتي الذي لجأ إلى الغرب بعد ذلك بحوالي عامين، كما أضاف هذا الرجل، أن مقتل «فريدريك هينرتش»، كان بمثابة فاتح شهية للقتل والخطف والعنف الذي مارسه تلك الفتاة إلى حد دفع الرؤساء في موسكو إلى تحذيرها المرة بعد المرة دون جدوى.

كانت تلك المعلومات التي تصل إليهم تلقي عليهم أعباء ثقلاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى، كان لابد لهم أن يعرفوا من الذين اغتالتهم «تانيا راديونسكا»، أو «إيلين إيستمان»، بعد ذلك، والظروف التي تم فيها الاغتيال، ومن الذي قام بالمهمة وبأية وسيلة... ولقد كانت هناك عشرات من علامات الاستفهام، ذلك أن معرفة طبيعة هذه الجاسوسة، وأسلوب عملها، كان كفيلاً بأن يكشف للرجال الذين سعوا وراء قصتها الحقيقية، طبيعة العمل في جهاز المخابرات السوفياتي «كي. جي. بي.»، والأساليب الجديدة التي أصبح يتبعها في السنوات الأخيرة، وطبيعة تلك الدروس التي يتلقاها الطلبة من الشباب في مدرسة الجاسوسية الشهيرة تلك والتي تعرف باسم «جاترينا»!

وعلى كل، فإن المعلومات التي أدلت بها «أنا إيفانوفنا» بعد اختفاء زوجها المريب بأكثر من عام، كشفت الكثير عن الجوانب التي كانت غامضة بالنسبة للرجال، غير أنها أضافت، أنها كانت على دراية بذلك الإعجاب الذي كان زوجها يكرمه له «إيلين»... وهي في البداية، لم تعط للأمر أهمية تذكر، لأنها كانت ترى أن الرجل المتزوج - خاصة إذا طال زواجه لسنوات - كثيراً ما يعجب بهذه الفتاة أو تلك إعجاباً عابراً يعود بعده إلى بيته وزوجته... لكنها في تلك الليلة، لاحظت أن «فاسيلي» قد كشف عن جانب لم يخطر لها على بال، فهي في لحظة، أحست بأنه ربما تطور ذلك الإعجاب إلى حب... فوق أنها رأت زوجها، قبل أن تتصرف «إيلين» بدقائق، وقد انفرد بها، وكان الحديث بينهما متصلاً لدقائق طالت بعض الشيء، وإلى حد لفت نظر إحدى الصديقات التي قالت لها مداعبة، إن عليها أن تنتبه إلى الفتاة الإنجليزية لأنها قد تخطف زوجها وتطير إلى بريطانيا!

هذا ما قالته «أنا إيفانوفنا».

ولكن «فرناندو كورتيز» قال شيئاً آخر، وأصر على قوله هذا.

قال إن «إيلين» في تلك الليلة قد انصرفت مبكرة، وأنها لم تتحدث إلى أحد من الحاضرين على انفراد سواه، ذلك أنه لم يفارقها للحظة في تلك الليلة، ولأنه كان غريباً مثلها، فلقد جلس إلى جوارها، وأحياناً ما كانا يعلقان على شخص أو واقعة، وفي أحيان أخرى كانا يتبادلان كلمات الحب... ثم أضاف «فرناندو»:

لقد اندمج الجميع مع الوقت في الحديث مع بعضهم البعض باللغة الروسية حتى لقد خُيِّلَ إلينا - إيلين وأنا - أنهم جميعاً قد نسوا وجودنا... وربما كان هذا سبباً من الأسباب التي دفعت «إيلين» إلى الانصراف مبكرة!

ووقع المحققون في الحيرة، كانت أقوال «أنا» تقود إلى طريق، وأقوال «فرناندو» تقود إلى طريق آخر.

كان المدهش في الأمر، أن كل الذين كانوا في ذلك الحفل - وقد خضعوا جميعاً بعد ذلك للتحقيق الدقيق- أكدوا أن «إيلين إيستمان» لم يبد عليها أنها تفقه كلمة فيما كان يقال باللغة الروسية... أكد الجميع هذا وأصروا على أقوالهم حتى «أنا إيفانوفنا» - وقد كانت تحمل نوعاً من الضيق والغيرة من «إيلين»- أكدت أنه من المستحيل أن تكون «إيلين» على دراية باللغة الروسية، فلقد كانت أحياناً تتحدث مع «فاسيلي» بهذه اللغة أمامها فلم يبد عليها مرة أنها تفهم منها حرفاً... وتأكيداً لهذا، قالت «أنا» إن الأمر قد وصل بأحد الضيوف في ذلك الحفل، وهو يعمل أستاذاً للأدب الروسي في إحدى جامعات كندا، وكان قد احتسى عدداً لا بأس به من الكئوس، وشارك الرجال في تلك الرقصة الجماعية التي رقصوها على أنغام قيثارة «أليكس»، كما راقص زوجته على أنغام الموسيقى الخفيفة... جاءت لحظة على هذا الأستاذ الجامعي وقف فيها أمام «إيلين» وقد بهرته تصرفاتها، وراح يبدي إعجاباً شديداً بجمالها وأرستقراطيتها، ثم انتقل - وقد كان يتحدث بالروسية- إلى غزل واضح ضارباً بتحذيرات زوجته عرض الحائط، وكان مما قاله «سيرجي» - هذا هو الاسم الأول للأستاذ- إن «إيلين» تشبه ثمرة الفاكهة الطازجة التي لاتزال عالقة بفرع شجرتها لم تقطفها يد بعد... ولقد ضج الجميع بالضحك، بل إنهم صفقوا استحساناً عندما ألقى أبياتاً من شعر بوكشين... حدث كل هذا و«إيلين» جالسة تستمع مبتسمة دون أن يبدو عليها أنها تفهم حرفاً واحداً مما قاله الرجل... ولقد أخذ الجميع الأمر دون شك على أنه نوع من المداعبة والمزاح، غير أن كل هذه الضحكات وكل هذا التصفيق لم يؤثر في «إيلين» التي كانت تبدو مندهشة ذاهلة، مما دفع «فاسيلي» إلى محاولة توضيح الأمر، فلقد تقدم من الفتاة قائلاً:

- بالقطع أنت لم تفهمي شيئاً مما قاله ذلك المأفون!!

ابتسمت «إيلين» وكانت بادية الحيرة وهي تقول:

- ومن أين لي أن أفهم «فاسيلي»!

- هل تريد أن تعرفي؟!!

هزت كتفيها في لا مبالاة كعادتها، ثم التفتت نحو «فرناندو» وكأنها تطلب رأيه، فإذا به يهتف مازحاً:

- لو كان ما قاله غزلاً فلسوف أدعوه للمبارزة؟

هلل الجميع وصفقوا... ثم شرع «فاسيلي» بعد ذلك في ترجمة كل ما قاله «سيرجي» حرفاً بحرف وسط تعليقات الجميع وضحكاتهم... أما هي، فلقد أجمع الكل أن وجهها تضرع بحمرة الخجل، حتى لقد دفنت رأسها في صدر «فرناندو» حياء مما أسعد الجميع سعادة حقيقية...

بعد أن انتصف الليل بدقائق، مالت «إيلين» على «فرناندو» قائلة:

- «فرنني»... أنا أعلم أنك مستمتع بالحفل استمتعاً شديداً!

- إني مستمتع بوجودي معك «إيلين»، حتى لو كان هذا الوجود في الجحيم!

- لا تجامل أرجوك!

- أنت تعرفين أنني أقول الحقيقة!

- ولكني لا أريد حرمانك من ليلة كهذه!

انتبه «فرناندو» إلى أن «إيلين» كانت تريد الانصراف، وعندما سألها أجابت:

- أنت تعلم أنني لم أعود السهر إلى ما بعد منتصف الليل!

- لكن العشاء بالكاد سوف يبدأ «إيلين»!

- ولهذا لا أريدك أن تحرم من هذه المتعة!

- ماذا تقصدين بالله عليك؟!

- سأطلب سيارة أجرة!

- وأنا لن أبقى بدونك... هيا بنا!

قال «فرناندو» هذا وهو ينهض، فنهضت «إيلين»، ورغم احتجاج الجميع، فلقد انصرفت بصحبة «فرناندو».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق إلى البيت لم تتقوه «إيلين» بكلمة، هكذا قال «فرناندو»، حتى إذا ما توقفت السيارة أمام بيتها، انتظر الشاب أن تدعوه إلى مشروب لكنها لم تفعل ولم تعتذر، فقط، طبعت قبلة خاطفة على وجنته وهي تلقي عليه تحية المساء، ثم غادرت السيارة وقطعت الطريق إلى باب البيت وكانت تسير وكأنها جندي في طابور عسكري!!

هكذا قال «فرناندو» بالحرف!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وهكذا وجد المحققون أنفسهم أمام واقع لا مفر منه...

كانت كل الأقوال والدلائل والتحليلات تشير إلى أن «إيلين» انصرفت ممثلة بتوتر غاضب، وأن السبب في ذلك، هو ذلك المشروع المزعم إقامته في بحيرة أونتااريو والذي سبب أزمة بين حكومتي كندا والولايات المتحدة... كما أشارت التحليلات إلى أنها لم تكن قد سمعت عنه شيئاً، وأنها اعتبرت جهلها بهذا الأمر جريمة لا تغتفر... وكان إحساسها هذا بالذات، هو الذي تسبب في قتل موظف في الخارجية الكندية في الطريق العام، بلا رحمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20 - قاتلة باردة الأعصاب!

فتاة بألف وجه!

كان المدهش في الأمر بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، أن المحققين كانوا إذا ما أمسكوا بطرف خيط من الخيوط، اكتشفوا شيئاً جديداً، أو موهبة غير متوقعة... ولقد كان حديث ذلك الدبلوماسي في الحفل الذي أقامه «فاسيليف إيفانوف» خيطاً قاد المحققين إلى ما لم يخطر لهم على بال من قبل... لقد استغرق الأمر من فريق البحث أسابيع طالت حقاً، وأنفق قدر من المال لا بأس به، لكن التحدي كان هو الدافع الكبير كي يكشف الرجال مزيداً من مواهب تلك الجاسوسة!

ولقد كان طبيعياً أن يقترن البحث عن رد فعل حديث هذا الدبلوماسي الأمريكي من أصل روسي، بالبحث عن سر اختفاء «فاسيليف إيفانوف» المفاجئ... فلقد اكتشف الرجل أن «إيلين»، كانت إذا ما التقت بواحد من أفراد شبكتها، ولم يكن أحدهم بالطبع يعرف الآخر، تبدو له في صورة مغايرة تماماً للصورة التي تبدو بها للآخرين... فلقد كانت - على سبيل المثال- تزيد باللون من كثافة حاجبيها مع عميل، أو تضع باروكة شعر سوداء مع عميل آخر، أو كستنائية مع عميل ثالث، أو تضع في مقدمة رأسها خصلة من الشعر تضيق من مساحة الجبهة فتبدو فتاة أخرى تماماً... ولم يكن التتكر مقصوراً على الشعر، بل لقد اكتشف الرجال أنها كانت - مع كل لون تختاره لشعرها- تضع عدسات لاصقة على عينيها ذات لون يتناسب مع لون الشعر، كما كانت بارعة في اختيار لون أحمر الشفاه الذي يتفق مع لون الشعر والعينين... ومع الملابس الملائمة، كانت تبدو كفتاة مستهترّة أحياناً، أو طالبة جامعية، أو موظفة في إحدى الشركات العملاقة... ولقد كان هذا الاكتشاف المذهل، دافعاً للرجال إلى إعادة تفتيش مسكنها الذي باعته قبل رحيلها ثم اختفائها!

كان المسكن قد قتل بحثاً وتفتيشاً من قبل، وبطبيعة الحال، فلقد اكتشف الرجل فيه مخبأ سرياً في إحدى الغرف، غير أنهم وجدوه خاوياً تماماً، مما أكد لهم أنها، قبل أن تختفي، جمعت كل ما يمكن أن ينم عن شخصيتها أو يعطي الفرصة لاقتفاء أثرها... غير أن اكتشافهم الجديد هذا أكد لدى البعض منهم أنه لا بد أن يكون هناك مخبأ سري آخر لأدوات المكياج... فمن غير المعقول أن تصحب الفتاة معها أدوات مكياج في رحلة طويلة كتلك التي قطعنها من أوتوا إلى موسكو عبر عواصم ومطارات ومدن من الصعب تحديدها... ولقد استغرق البحث في ذلك المسكن أياماً بذل فيها الرجال كل ما في جعبتهم من فن وجه، في بحثهم بمعدات حديثة... وعلى كل، فلقد استطاعوا أخيراً أن يكتشفوا مخبأ سرياً خلف دولا ب صغير للأدوية في الحمام... ولولا المصادفة البحتة، لما استطاعوا - حتى بالاستعانة بتلك المعدات الحديثة- العثور على هذا المخبأ الذي وجدوا فيه كمّاً هائلاً من أدوات المكياج والتتكر!!

وإذا كان الأمر خاصاً بوزارة الخارجية الكندية، فلقد راح الرجال يبحثون عن يمكن أن يمد «إيلين إيستمان» بأخبار هذه الوزارة... كان هناك عدد من الأقسام، إلى جوار وظائف بعينها يملك الموظفون أو الدبلوماسيون معرفة ما يدور في غرف

الوزارة ودهاليزها السرية، وعلى كل، فلقد كان القسم المختص يبحث ذلك المشروع الذي كان مفترضًا أن يقام في بحيرة أونتااريو هاديًا للرجال الذين سرعان ما استوقفهم حادث غريب وقع لأحد موظفي هذا القسم!

كان الحادث طبيعيًا في الظاهر، غير أن تلك الحاسة الأمنية التي يتمتع بها مثل هؤلاء الرجال، استوقفت محققًا بعينه... فلقد كان هناك موظف في هذا القسم يدعى «جون وايت»، حدث أن لقي مصرعه في الساعات الأولى من الفجر وهو عائد إلى بيته، عندما صدمته سيارة مسرعة... وجاءت كل التحقيقات التي أجريت حول مصرع ذلك الموظف، كي تؤكد أن سائق السيارة استطاع الفرار دون أن يراه أحد، ودون أن يعثر له على أثر بعد ذلك!

استوقف المحقق شيء غريب... فما الذي دفع المستر «وايت» الذي كان الملف الخاص به، مع شهادة زملائه ورؤسائه كلها تشير إلى أنه كان إنسانًا عاديًا منطويًا، وربما كان خاملاً أيضًا، وأنه كان أعزب، صامتًا، يؤدي عمله على الوجه الأكمل، ولم يكن هناك ما ينبئ عن أي نشاط سياسي أو تجسسي أو ترفيهي... ما الذي دفع مثل هذا الموظف إلى أن يغادر بيته في مثل هذه الساعة المبكرة من اليوم... خاصة، وأن التشريح الذي أجري على الجثمان، أثبت وجود كمية كبيرة من الكحول في الدم، مما دفع المحققين في إدارة الشرطة، إلى الظن بأنه لم يكن متمالكًا لوعيه بالكامل، وأنه ربما كان هو المخطئ فاعترض طريق السيارة المسرعة التي لم ينتبه سائقها إليه فصدمه وفر هاربًا!!

غير أن هذا لم يقنع محققنا الذي راح يبحث ويسأل ويستقصي حتى وصل إلى الحقيقة التي بدت له مذهلة!!

.....

.....

كان «جون دايت» شابًا في الثلاثين من عمره، ولد في الولايات المتحدة لأب وأم كانا دائمي الخلاف حتى تم الطلاق بينهما وهو في الخامسة من عمره... ولما كان الطفل في حضانة أمه، فلقد انتقل معها إلى كندا التي هاجرت إليها وتزوجت رجلًا كنديًا من أصل نيوزيلاندي... شب «جون» وتخرج في الجامعة في هدوء وبلا مشاكل تذكر، وبعد التخرج التحق - وكان في الثالثة والعشرين من عمره - بوزارة الخارجية في وظيفة مكتبية عادية من تلك الوظائف التي لا تحتاج إلى مهارات خاصة... وهكذا ترك بيت والدته واستقل بمسكن صغير في إحدى البنايات في ضاحية من ضواحي أوتاوا... وبسؤال بعض جيرانه، عرف المحقق أنه كان على علاقة حب بفتاة تدعى «أليس ماكنزي»، غير أن أحدًا لم يكن يعرف كيف تعرف «جون» إلى هذه الفتاة التي كانت على العكس منه تمامًا... مرحلة، تحب الحياة الصاخبة، وترتاد المحال التي تزدهم بالشباب الثائرين على المجتمع، والذين تتجلى ثورتهم في تلوين الشعر وارتداء الملابس الغريبة... غير أن محققًا بعينه يحمل اسم «النجمة الذهبية»، يقع في وسط المدينة، ويمثل بدرومًا واسعًا لإحدى البنايات الشاهقة في أوتاوا، يهبط إليه الرواد بضع درجات تؤدي إلى ممر طويل نصف مظلم، حتى إذا اجتاز الإنسان ذلك الباب المغلق، احتوته على الفور أنغام الموسيقى الصاخبة، والموائد المتلاصقة والمزحمة... كان هذا المحل بالذات، هو المفضل

لدى «أليس ماكنزي» التي ما إن عثر عليها المحقق، حتى وجد نفسه أمام فتاة ترتدي ثيابًا تكشف من جسدها أكثر مما تستر، تدخن بشراهة، تشغل وظيفة صغيرة في أحد الفنادق، ورغم المحاولات المضنية التي بذلها معها المحقق، فإنها لم تستطع أن تتذكر متى بالتحديد التقت بـ «جون وايت» لأول مرة... غير أنها قالت في لحظة، وقد أضناها سيل الأسئلة التي انهمرت عليها من المحقق:

- ربما حدث هذا في بيت أحد الأصدقاء وليس في النادي!

كانت تقصد بالنادي ذلك المحل الذي يحمل اسم النجمة الذهبية، وعندما سألتها المحقق، لماذا تظن أنها التقت به في بيت أحد الأصدقاء، قالت:

- لأن «جون» لم يكن من النوع الذي يرتاد مثل هذه المحال!

- ما الذي تقصدين بهذا؟!!

دهشها السؤال، حملت في الرجل وهي تلوك قطعة من اللبان في فمها، ثم مالت نحوه متسائلة:

- هل شاهدت «جون» قبل أن يموت؟!!

- رأيت عددًا لا بأس به من الصور له!

- لقد كان أصلع!

قبل أن يسأل أردفت:

- ومهذبًا!

بدت على وجه الرجل الدهشة فأضافت:

- وموظفًا محترمًا!

لزم الصمت وراح يرقبها وهي تشعل سيجارة، حتى إذا ما نفثت الدخان تمتمت:

- باختصار... كان ابن ناس!

- وهل في هذا ما يعيبه؟!!

- كلا ولكن هذا النوع لا يناسبني!

- ولماذا إذن استمرت العلاقة بينكما؟!!

- من قال إنه كانت بيننا علاقة؟!!

- ألم يكن يحبك؟!!

- هذا شأنه، ولكنني لم أحبه!

هم الرجل بالسؤال فلاحقته متسائلة في ازدياد:

- ما هو الحب؟!!

كانت الآن عصبية، وكانت عصبيتها هذه إيذانًا بأنها أصبحت على استعداد للبوح بمزيد من المعلومات، لذلك، فلقد واصل صاحبنا الضغط عليها بقوله:

- الحب؟!... الحب هو الحب... أليس كذلك؟!!

- ما الذي تريد أن تصل إليه، لم يكن لي يد في مصرعه!

- أنت لست متهمة!
- كان يلاحقني!
- ولكنه كان يمدك بما تحتاجين إليه من مال!
هتفت في غضب:
- أنا لم أطلب منه مالا في يوم من الأيام!
- لكنه أعطاك الكثير!
- ليس قبل أن يلتقي بـ «إي□ا»!
- ومن هي «إي□ا»؟!
- تلك الفتاة من جزر البهاما... أنا واثقة أنها مخلطة!
وهكذا توصل المحقق إلى إحدى شخصيات «إيلين إيستمان» التي كانت مستورة!!

.....

.....

عندما قال المحقق لهذه الفتاة التي تدعى «أليس ماكنزي» إن «چون» كان يمدها بالمال... كان يرمي رمية بلا هدف... وإذا كانت تلك الفتاة الضائعة تقول - وهي صادقة- إن «چون وايت» كان يلاحقها، وإنها لم تكن تحبه، فما هو الدافع لأن تستمر علاقتها به وقد كانت تستطيع إنهاءها في ثوان؟!... كان الجواب الطبيعي أنه لا بد من سبب يدفعها إلى احتمالها. ولم يكن هناك أقوى من المال سبباً!

ولكن مرتب «چون وايت» وكل ما عرف من دخله، لم يكن يسمح له أن يمد فتاته هذه التي وقع في حبها إلى حد الإدمان، بأي قدر من المال... ولذلك، فلقد قال المحقق ما قاله وهو يحسب لكل كلمة حسابها، حتى إذا ما ذكرت «أليس» تلك الفتاة من جزر البهاما، كان إيذاناً بدخول التحقيق إلى درب جديد تماماً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت «أليس ماكنزي» إنها جاءت إلى النادي ذات ليلة بصحبة «چون»، ذلك أنه لم يكن مضراً ولم يكن مفيداً، وكان - على الأقل- يدفع ثمن التاكسي والمشروب الذي تحتسيه... في تلك الليلة، وعندما نهضت للرقص ملبسة طلب واحد من «الشلة»، تركت «چون» وحده، لكنها عندما عادت إلى المائدة، وجدته بصحبة فتاة سوداء الشعر، ذهبية البشرة، بنية العينين، ترتدي ملابس عادية من تلك التي ترتديها الفتيات في العشرينيات من العمر، وأنه قدمها لها على اسمها «إي□يت»!

- دون لقب؟!!

هكذا سألتها المحقق فهتفت:

- وما الذي يعنيني في اللقب أيها السيد، لقد تعودنا أن ندعوها «إي□ا»!

- وكيف تعرف عليها «چون»؟!!

- لقد قالت إنها وجدته وحيداً، وإنها كانت وحيدة، واستأذنته في الجلوس إليه فلم يمانع... خاصة... ..

قالت هذا وبدا عليها الامتعاض، فاستحثها المحقق قائلاً:

- خاصة؟!!

- خاصة أني لم أكن أجلس مع «چون» أغلب الوقت... لقد كان مملاً إلى أقصى درجة!

- وهل كانت هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها «إي□ا» إلى النادي؟!!

- أنا لم أرها قبل تلك الليلة، وإن كان «چون» قال لي إنه لمحها قبل ذلك مرة أو مرتين وإنها كانت دائماً وحيدة!

- ألم يرها أحد غير «چون»؟!!

- قال لنا الساقى بعد ذلك إنها كانت تتردد على النادي بشكل شبه منتظم!

- وحيدة أيضاً؟!!

نعم... لم يكن لها من صديق سوى «چون وايت»!

- هل أنت واثقة من هذا؟!!

- تمام الثقة!

- إلى هذا الحد؟!!

- لقد كانت ترفض مراقبة أي من الشباب الذين كانوا يخضعون لرفضها رغم ما يتحلون به من وقاحة!

- هل كانوا يهابونها؟!!

- لم تكن هيبية... لكنها كانت ذات شخصية مسيطرة!

- ثم...؟!!

- ثم أصبحنا نراها بين الحين والحين، وإن لم تصادق أحداً منا سوى «چون»!

- ألم يخرج معها؟!!

- ولا مرة!

رماها المحقق بنظرة شك فهتفت به:

- انظر أيها السيد، أنا لست مجبرة على الإجابة عن أسئلتك، ولكن هذه هي الحقيقة، لقد كنا نظن أنها واحدة من تلك الفتيات اللواتي يتسللن إلى كندا عبر الحدود بشكل غير شرعي بحثاً عن عمل، أي عمل!!

- وهل كانت تمده بالمال؟!!

- رأيتها أكثر من مرة تدس في يده مالا خفية!

- هل كنت تغارين منها؟!!

أطلقت «أليس ماكنزي» ضحكة ساخرة، سحقت بقايا سيجارتها في المنفضة وهي تقول ساخرة:

- أغار؟!، لقد كنت أتمنى أن يقع في حبها حتى يتركني لحالي!

- ألم يقع «چون» في حبها!

- لا... وإن كانا، إذا ما جلس أحدهما إلى الآخر، لا يكفان عن الحديث!
 - فيم كانا يتحدثان؟!!
 - ومن أين لي أن أعرف... لقد كانا يلزمان الصمت كلما عدت إليهما!
 - ألم تسألني «جون»؟!!
 - ولماذا أسأله... إن الأمر لم يكن يعنيني في كثير أو قليل!
 - وكم من الوقت استمرت هذه الصداقة؟!!
 - حوالي عام... غير أنها اختفت الآن ولم نعد نراها!
 - متى كان ذلك؟!!
 - قبل مصرع «جون» ببضعة أيام!
- وكان هذا بالضبط، ما يريد المحقق أن يعرفه... غير أن التفاصيل كانت أكثر أهمية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاستعداد العاطفي!

كان على المحقق، بعد حديثه مع «أليس ماكنزي»، أن يرتب أجزاء الصورة... ولما كانت بعض هذه الأجزاء مجهولة، ومن المستحيل العثور على أصولها، فلم يكن هناك بد من استعمال الخيال استنادًا إلى حقائق العلم - علم المخبرات وأساليب التجسس- وقوافيه... ذلك أنه- على سبيل المثال- لم يكن صعبًا عليه أن يعرف كيف ولماذا التقطت «إيلين إيستمان» «چون وايت» بالذات... وإذا كان البعض ممن يرتادون نادي «النجمة الذهبية» قد شهدوا بأن هذه الفتاة البرونزية البشرة، والتي كانوا يدعونها «إي-إيت» أو «إي-ا»، كانت تتردد على المحب بين الحين والحين، فلا بد أنها راقبته طويلًا، كما عرفت طبيعة العلاقة بينه وبين «مس ماكنزي»، ولا بد أن تصرفاته قد أوحى إليها بأنه من طبقة مختلفة وأنه يشغل منصبًا في مكان محترم... وهكذا فلا بد أنها فعلت معه ما فعلته مع «فريدريك هينرتش»، وأنها أطلقت عيونها حوله، فعرفت عنه كل شيء، عن انفصال أبيه وأمه، عن نزوح أمه من الولايات المتحدة، عن دراسته، عن خموله وضمور نشاطه، عن إحساسه بأنه غير مرغوب فيه، ثم ذلك الإحساس المضني بأنه غير قادر على تلبية طلبات «أليس ماكنزي»... لا بد أن «إيلين إيستمان» كانت قد عرفت كل هذا قبل أن تقدم نفسها إليه في ذلك النادي، ثم لا بد أنها أيضًا راحت تضرب على ذلك المؤثر في شخصيته... وكان ما قالته «أليس ماكنزي» عن أسلوب تعارفها أقرب إلى المنطق... وهكذا استطاعت «إيلين» أن تبني معه نوعًا من الصداقة دفعه لأن يشكو لها همومه، سواء بالنسبة لـ «أليس» أو بالنسبة لعمله... إلى هنا كان كل شيء بالنسبة لذلك المحقق الدعوب، منطقيًا تمامًا ولا غبار عليه... ولكن، بقيت تلك النقطة التي ذكرتها الأنسة «ماكنزي» حول طريقة تعارفها هي بـ «چون وايت» في بيت أحد الأصدقاء الذي لم تعد تتذكره. فلقد رأى الرجال أن معرفة ذلك الصديق لا بد ستؤدي إلى مزيد من المعلومات... هكذا، بعد تحريات دامت قليلاً، عرف المحقق أن ثمة مصدرًا صحفيًا مستقلًا، لا يعمل لحساب مجلة أو جريدة أو وكالة أنباء، وإنما يعمل لحسابه الخاص، عرف المحقق أن اسم ذلك المصدر هو «فرانسوا بولو»، وأنه كان يستعين بـ «أليس» التي كانت تتردد عليه بين الحين والحين كي يلتقط لها بعضًا من الصور التي أفلح في نشرها مع إعلانات رخيصة... ومن اسم المصور عرف المحقق أن الرجل من أصل فرنسي، وسرعان ما حصل على عنوانه، واستطاع أن يحدد معه موعدًا في بيته الذي يستعمله الشاب كاستديو للتصوير في نفس الوقت.

وكما تصور المحقق تمامًا، ما إن دلف إلى المسكن، حتى وجد نفسه في مكان تعمه الفوضى، بيت عبارة عن غرفة واحدة كبيرة تنتشر فيها علب الأطعمة وزجاجات الشراب وآلات التصوير ومعدات من لمبات وأسلاك وحوامل وما إلى ذلك وفي ركن من المكان كان ثمة غرفة خشبية كان واضحًا أنها أضيفت إلى المكان، وكانت هذه هي غرفة تحميم الأفلام!

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وصل المحقق... وكان مسيو «بولو» لا يزال نائمًا، فما إن فتح الباب نصف مغلق العينين، حتى استأذن في إعداد فنجان من القهوة التي شاركه المحقق في احتسائها معه، بعد القهوة التي صاحبها تدخين سيجارة فرنسية قال الشاب:

- والآن يا سيدي... عليك أن توجه إليّ التهمة بشكل مباشر!

- أية تهمة؟!!

- ألم تقل إنك محقق في الـ... ..؟

قاطعته الرجل:

- بلى قلت هذا لكنني لم أتحدث عن أية اتهامات!

- فماذا تريد مني بالله عليك؟!!

- أريد أن أعرف كيف تعرفت «أليس ماكنزي» على «چون وايت»؟!!

نظر إليه الشاب في دهشة ولكنه لم يفهم السؤال. لكنه ما لبث أن أجاب:

- كانت هنا في عمل، وكنت ألتقط لها بعض الصور، عندما وصل «چون»، فقدمت كلاً منهما للآخر!

- هكذا؟!!

كالمستفز قال «فرانسوا بولو»:

- نعم هكذا!

- ألا يمكنك أن تمدني بالمزيد؟!!

- أليس هناك مزيد؟

- لعلك تعرف أن «چون» لقي مصرعه إثر حادث!

- قرأت هذا في الصحف!

- ألم يكن صديقك؟!!

- كان زميلي في الدراسة وقد التقيت به بعد سنوات طويلة في أحد المؤتمرات الصحفية بوزارة الخارجية!

- ثم؟!!

- ثم لا شيء... تواعدنا على اللقاء وجاء، وما إن رأى «أليس» حتى تعلق بها كطفل التقى بأمه بعد طول غياب!

- ثم؟!!

هب «فرانسوا» واقفاً وهو يهتف:

- ثم ماذا... ثم خرجاً معاً فلقد ظننت هذه المأفونة أنه من الأثرياء لمجرد أن ملابسه كانت أنيقة!

- هل تحب المال؟!!

- تحبه؟!!

هكذا هتف «فرانسوا» ساخرًا ثم أردف:

- إنها لعبة المال ولا يشغل ذهنها سواه!

- ألم تر «چون» بعد ذلك؟!

- رأيتَه مرتين أو ثلاثًا، جاعني يشكو إهمال «أليس» له... وكان واضحًا أن حبه لها كان نوعًا من الاستعباد العاطفي!

- ألم تُنبِّههُ إلى حقيقتها؟!

- بالطبع لقد فعلت لكنه لم يكن يسمع!

كان من الواضح أن «فرانسوا»، مع استمرار الحوار، قد اطمأن إلى أنه ليس متهمًا بشيء، لذلك، فلقد استرسل في الحديث بحرية، قال «چون» بدا له وكأنه مسلوب الإرادة، وأنه كان يعرف عن «أليس» كل شيء، وأنها لا تهتم إلا بمتعتها، فهي لا تعمل بشكل منتظم إلا كلما احتاجت إلى المال... ثم أكد ذلك المصور الفنان أن «چون» كان على علاقة كاملة بـ «أليس»، وأنه يعتقد أن هذه العلاقة قد أمدته بالكثير مما كان يفتقده قبل لقائه بها... وإلا، فمن غير المنطقي أن يقع شاب مثله فريسة لفتاة مثلها.

وعندما أحس المحقق أن الشاب ليس لديه المزيد من المعلومات، شكره مستأذناً في الانصراف، فقال «فرانسوا» مودعًا:

- لم يكن حبًا... بل كان استعبادًا عاطفيًا!

.....

.....

وجد المحقق نفسه مضطربًا لأن يعيد فتح ملف مصرع «چون وايت»، فالمعلومات التي تجمعت لديه، كانت تؤكد ضرورة تفتيش بيته ومكتبه... ولكن كيف وقد انقضى على مصرعه قرابة العام؟!

غير أن الرجل كان حسن الحظ دون شك، فعندما اتصل بوالدة «چون»، وكان «چون» قد ترك لها كل شيء عرفانًا منه بجميلها عليه، قالت هذه السيدة، وكان الحزن مازال يعتصر قلبها، إنها تسلمت البيت فعلاً، لكنها أغلقت ولم تدخله منذ وفاة ولدها، ولقد شرح لها الرجل الأمر على أن هناك اشتباهاً في سائق السيارة التي صدمت «چون»، وأنه من أجل هذا يبحث عن بعض الأوراق أو الأدلة التي تدين هذا السائق... وعلى كل فإن هذه السيدة لم تدقق كثيرًا، كان واضحًا أن لا شيء يعنيها بعد فقدانها لولدها، ولذلك، فلقد سلمته مفتاح البيت ورجته أن يعيده إليها بعد انتهاء مهمته!

وفي بيت «چون» كانت المفاجأة صاعقة!!

في البداية، بدا كل شيء في ذلك البيت طبيعيًا تمامًا... لم يكن هناك ما يشير إلى أي نشاط تجسسي... كان البيت صغيرًا، مكونًا من طابقين، الطابق الأول يحوي غرفة المعيشة وهي واسعة نسبيًا، وهناك مكتبة لا بأس بها، ومكتب صغير في ركن المكان، مع بضعة مقاعد وأرائك مرتبة بشكل يوحي بقدر لا بأس به من الذوق... ثم المطبخ الذي يؤدي إلى الحديقة الخلفية حيث وجد الرجال كوخًا صغيرًا يحوي

أدوات للزراعة... أما الطابق العلوي فكان يحوي غرفتين للنوم، الغرفة الرئيسية والتي تطل على الحديقة الأمامية والطريق، وغرفة إضافية مرتبة وكان ما فيها جديدًا بحيث توحى بأن أحدًا لم يستعملها... ولقد بحث الرجال في الغرفتين لأيام خرجوا بعدها صفر الأيدي.

بدا الأمر محيرًا تمامًا، ذلك أن المكتبة في الطابق الأرضي بدت، بعد الفحص والتدقيق، عادية تمامًا ليس فيها ما يريب، حتى آلة التليفون وذلك الجهاز الملحق بها - أنسر ماشين- والذي كان في ذلك الوقت جديدًا تمامًا، ولم يكن في الشريط المركب بالجهاز ما ينبئ عن شيء، ثمّة مكالمات لـ «أليس» ووالدة «چون» ترجوه أن يتصل بها ثم بعض الأصدقاء والزملاء...

كاد الرجال - وقد انقضت بضعة أيام- أن ينصرفوا، لولا أن واحدًا منهم لفت نظره مسمار صغير مدفون في عمق الجدار الداخلي للمكتبة، وكان الناظر إلى رأس المسمار لا يخامرهُ الشك في أنه وضع لثنيبت المكتبة في الجدار... غير أن الرجل، وقد عبث بإصبعه في الرأس الأملس، استشعر وجود ثقب بالغ الصغر في منتصف الرأس، وعندما عالج هذا الثقب بمفك كان معه لم يصل إلى نتيجة، فقرر أن يفك المسمار... وعندما فعل، اكتشف أن هذا الثقب موصل بسلك كهربى مدفون في عمق الجدار وبتوصيل هذا السلك بالتيار الكهربى، فوجئ بجزء من المكتبة يتحرك كي يكشف عن دولا ب مدفون فيما بين المكتبة والحائط، وكانت محتويات الدولا ب تحوي ما لم يخطر ببال الرجل على الإطلاق!

عثر الرجال في داخل الدولا ب على آلة تصوير بالغة الصغر، وكان بداخلها فيلم يحوي وثائق كاملة لذلك المشروع الخاص ببحيرة أونتا ريو، كما عثروا على نسخ من وثائق أخرى بالغة الأهمية خاصة بعلاقات كندا مع بعض الدول وكانت هناك مذكرات ودراسات ومحاضر اجتماعات... وباختصار، وجد الرجال في هذا الدولا ب كمًا هائلًا من الوثائق السرية الخاصة بوزارة الخارجية... لكن المفاجأة الكبرى، كانت تكمن في شريط خاص بهذه الآلة الملحقة بالتليفون، وكان أهم ما في هذا الشريط عدد من المكالمات المسجلة بين «إيلين إيستمان» و«چون وايت».

كان الأمر مذهلاً بكل المعاني، وكان معناه أن «إيلين» حصلت بالفعل على كل تلك الوثائق فيما عدا ذلك الفيلم الذي من أجله قتل «چون وايت» في حادث سيارة! ووجد المحققون أنفسهم أمام ظاهرة بدت غريبة.

فلماذا لم يسلم «چون» الفيلم إلى «إيلين» وقد كان هذا هدفها منذ أن تناولت العشاء في بيت ذلك الروسي الأبيض «فاسيليف إيفانوف»؟!!

لقد أسفر تفتيش مكتب «چون» في وزارة الخارجية، كما أسفر البحث في الدوسيهات والأضابير وسؤال الزملاء والرؤساء، عن حقيقة بدت أغرب من سابقتها... فلم يكن هناك، ما يشير من قريب أو من بعيد إلى فقدان أية وثيقة، أو حتى انتقالها من مكان إلى آخر... كان كل شيء منضبطًا تمامًا، كاملاً غير منقوص، مرتبًا لا فوضى فيه ولا إهمال... وكانت كل التقارير تشير إلى أن هذا الجاسوس البالغ الخطر، والذي نقل إلى الاتحاد السوڤيتي، عن طريق «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا» كمًا غير معروف من الوثائق التي تحوي أسرارًا مهمة... كان

مدرّبًا تدريبيًا على مستوى رفيع، أبسط ما يشير إلى هذا، ذلك الدولاب السري الذي كان يحتاج إلى مهارة ودراية لم يشهد أحد أبدًا، بأن «چون وايت» كان يملكهما!
وعلى كل، فلقد كان الرجال الآن أمام واقع يضيف إلى الصورة الكثير من التفاصيل، التي كانت خافية عليهم تمامًا، حول هذه الجاسوسة الخطيرة والفذة!
ولم يكن من الصعب الآن، أن تكتمل الصورة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما التقطت «إيلين إيستمان» «چون وايت» في نادي النجمة الذهبية، ولم يكن من الصعب عليها - وقد عرفت عنه كل شيء - أن تبني معه علاقة صداقة كان هو في أشد الحاجة إليها، ولقد امتدت هذه العلاقة إلى أسابيع باح فيها الشاب بأشياء كثيرة... ولم يكن من الصعب أيضًا أن تغريه بالمال الذي كان في حاجة إليه لإرضاء «أليس ماكنزي»، وحتى يبوح أكثر وأكثر بما لديه من معلومات... حتى إذا ما أحست «إيلين» أنها سيطرت عليه تمامًا، صارحته بأنه يتعامل مع المخابرات السوفيتية، ولا بد أنه وافق لأنه كان قد تورط بالفعل، أو لأنه كان في حاجة إلى المزيد من المال، أو للسببين معًا... كان كل هذا واضحًا ومنطقيًا إلى أقصى حد... فلماذا - والحال كذلك - لم يمدها بذلك الشريط الذي يحوي صورًا لكل الوثائق الخاصة بمشروع بحيرة أونتابو!!

ولقد وجد الرجال الإجابة عن هذا السؤال في الشريط الذي عثروا عليه في الدولاب السري... كان الشريط يحوي عددًا من المكالمات التي تمت مع «چون وايت» مما يؤكد، أنه كان يسجل أحاديثهما معًا تحوّلًا لما قد تأتي به الأيام!!! ولقد شهد كل من سمع هذا الشريط، أن الصوت كان لـ «إيلين إيستمان» وإن كانت لهجتها مغموسة في اللكنة التي يتحدث بها أهل جزر البهاما... كانت هناك مكالمات تطلب فيها اللقاء، ومكالمات ملغزة غامضة، غير أن مكالمة بالذات، كان صوت «إيلين» فيها غاضبًا، جعلت الرجال يتوقفون أمامها... في هذه المكالمة كانت تسأله:

- هل اشتريت الكتاب؟!

- نعم!

- متى سأحصل عليه؟!

- عندما تدفعين الثمن!

مرت لحظات صمت دمدمت بعدها

- أي ثمن؟!

- ثمن الكتاب!

- ألم نتفق من قبل؟!

- لم أكن أعرف أنه مهم إلى هذه الدرجة!

- منذ متى تعلمت المساومة؟!

وكان هذا السؤال بالذات خطأً فاحشًا وقعت فيه «إيلين»، كان معنى السؤال أن ثمة أشياء أخرى كانت تدفع ثمنها، غير أنها بالقطع، لم تكن تعلم أن الحديث كان يسجل،

مما يدل على أن «چون وايت» كان قد أصبح، رغم مظهره الخادع، جاسوساً محترفاً... وعلى كل، فلقد ضرب لها موعداً في نادي النجمة الذهبية!

وفي النجمة الذهبية، استطاع الرجال أن يدسوا وسط الشلة - شلة «أليس ماكنزي» - فتى وفتاة من عملائهم... كان الأمر بالقطع يحتاج إلى وقت وصبر... غير أن أفراد الشلة - وقد اجتمعوا ذات يوم في بيت أحدهم - راحوا يثرثرون، بعد أن جرتهم تلك الفتاة العميلة وزميلها، إلى الحديث عن «چون وايت»، فإذا أحدهم يقول:

- أراهن أن هذه الفتاة «إي□ا» كانت تتاجر في المخدرات، وأن «چون» كان يساعدها في ترويح البضاعة!
هتفت الأنسة «ماكنزي»:

- ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟!

- هل تذكرين تلك المرة الأخيرة التي جاءت فيها «إي□ا» إلى النادي؟!
- بالطبع... لقد تشاجرا وانصرفت وهي غاضبة!

- لقد سمعت ما دار بينهما من حوار!

- وكيف كان ذلك؟!

هكذا سأله الفتى العميل فأجاب:

- كنت جالساً في الركن المجاور فلم يشاهداني، وكان «چون» يطلب مبلغاً باهظاً، لكنها رفضت وهددته قائلة إنها تستطيع أن تقضي عليه، فرد عليها بأنه يملك من الأدلة ضدها ما يستطيع أن يقدمه إلى السلطات!

- ثم؟!

- لا شيء، نهضت غاضبة وهي تقول له، سوف نرى!

- ولم تعد؟!

- ومات «چون»!

هتفت «أليس» في غضب:

- اللعنة، لماذا لم تبلغ السلطات؟!

- ولماذا أزعج بنفسني في مثل هذه الأمور؟!

واختلط الحابل بالنابل، وراح كل من الحاضرين يدلي بدلوه... لكن الرجال كانوا قد عرفوا كيف اغتيل «چون وايت» ولماذا... وبقي أن يعرفوا كيف اختفى «فاسيليف إيفانوف».

22 - قاتلة باردة الأعصاب!

الولاء الناقص!

الذي لا شك فيه، أن تراكم المعلومات لدى المحققين الذين كانوا يعملون في قضية «إيلين إيستمان»، كان يضيف يوماً بعد يوم، مزيداً من الضوء كي تتضح أكبر مساحة من ملامح الصورة أمامهم... وعلى سبيل المثال، فإن «فرناندو كورتيز» مع استمرار التحقيق، وإحساسه بأنه ليس متهمًا بشيء، نشطت ذاكرته تدريجياً، فاعترف بأنه كان يقص على «إيلين» تفاصيل تلك الأبحاث التي كان يقوم بها منذ التحاقه بالمصنع بالرغم من أنها لم تطلب منه أن يحكي أو يقص، أو حتى يبدو عليها الاهتمام لمعرفة تلك التفاصيل العلمية المملة!!.. قال الفتى إنه كان وحيداً وكانت فرحته غامرة بالتحاقه بمصنع الكيماويات هذا الذي يضم فريقاً من العلماء الأفاضل الذين يفوقونه خبرة وعلماً... وكان - والأمر كذلك- في حاجة لأن يبيت فرحته لمخلوق ما، خاصة عندما كان يؤدي عملاً يسعد الرؤساء ويدفعهم إلى الإشادة به وبقدراته... قال «فرناندو»: إنه كان يشعر طوال حياته، بأن ثمة جنيئاً علمياً يكمن في تلافيف عقله، وأنه منذ أن التحق بالمصنع بعد وفاة «مستر فريديريك هينرتش» المباغثة، أحس - وقد نال فرصة كهذه- وكأنه يريد أن ينطلق في أفاق بلا حدود... ولم يكن هناك من يبيته أحلامه وفرحته سوى «إيلين» التي كانت تستمع إليه وتعطيه كل اهتمام... وعندما سئل إن كانت «إيلين» قد سألته عن ذلك المشروع السري الذي كان «مستر هينرتش» يعمل به، قال إنها لم تسأله لسبب بسيط، وهو أنه أحق بقسم آخر بعيد كل البعد عن ذلك المشروع الذي كان يعمل به مجموعة منتقاة من العلماء!

وفيما يختص بذلك العشاء الذي أقيم في بيت «فاسيليف إيفانوف»، أصر على قوله بأن «فاسيلي» لم يختل بـ «إيلين» في تلك الليلة، في الوقت الذي أكدت فيه زوجة أحد المدعويين والتي كانت صديقة شخصية لـ «أنا إيفانوفنا»، إنها شاهدت فاسيلي وهو يتحدث إلى «إيلين» في ركن قصي من المكان، وأن الحديث بينهما طال بعض الشيء، مما دفعها إلى تنبيه صديقتها «أنا» لذلك، وأضافت هذه السيدة أن الرجال جميعاً أبدوا إعجابهم بـ «إيلين» وبتصرفاتها، لكن إعجاب «فاسيلي» في تلك الليلة، بدا لها صارخاً خاصة في وجود «أنا».

غير أن «فرناندو كورتيز»، قد نشطت ذاكرته أكثر، مما اضطره إلى الاعتراف بأن ثمة أشياء بدت له في حينها غريبة، كانت تحدث بين الحين والحين دون أن يعطيها الاهتمام الكافي... أضاف الفتى أنه من الصعب عليه أن يتذكر الكثير من التفاصيل التي تحدث للناس في كل يوم، ثم تتوه عادة من الذاكرة، خاصة إذا ما كان الإنسان يحتفظ في وجدانه ومخيلته بصورة ما لإنسان آخر... ولقد استطاع أن يتذكر واحدة من تلك الظواهر التي بدت له غريبة وإن كانت الأحداث قد جرفتها فيما بعد وألقت بها إلى بحر النسيان...

قال «فرناندو»: إنه بعد ذلك العشاء ببضعة أيام، فوجئ بمكالمة هاتفية من «إيلين إيستمان»، تقترح عليه فيها أن يتناولوا العشاء معاً في بيتها... وبطبيعة الحال، فلقد سعد الفتى سعادة بالغة، ذلك أنه لم يكن قد دخل بيت «إيلين» طوال الفترة الماضية

سوى مرتين أو ثلاث مرات... وعلى كل، فلقد رحب بالفكرة، وحمل معه وهو في الطريق إليها زجاجة شراب فاخر كلفته بضع عشرات من الدولارات الكندية.

بدأت «إيلين» في تلك الليلة جميلة بشكل خاص في عيني «فرناندو»، أكثر ما كان يميز جمالها، ذلك القرط الطويل الذي كان يتدلى من أذنيها، مع شعر صففته بطريقة جعلتها أقرب ما تكون إلى نساء شرقي آسيا مما أضفى عليها سحرًا جعله أسير هواها تمامًا... كان الدمع يملأ عينيه تأثرًا وهو يقول إنه في تلك الليلة، ورغم ما حدث، كان سعيدًا إلى حد مؤلم... فهو لم يكن ليصدق أن القدر، بعد أن عانى ما عاناه من عصابات مافيا المخدرات في وطنه، وهروبه إلى المكسيك، وتقلبه من مكان إلى مكان حاملاً ذلك الخوف العرييد من عثور المافيا عليه... لم يصدق أن يهديه القدر مثل تلك الفتاة البالغة الرقة والجمال فكأنها - شكلاً وموضوعاً - ملاك يسعى على قدمين!!

في تلك الليلة دق جرس الباب ولم يكن قد انقضى على وصوله سوى خمس عشرة دقيقة - وكان الزائر غير المرتقب، هو «فاسيليف إيفانوف».

المدهش، والذي أوقع «فرناندو» في الحيرة، أن «إيلين» و«فاسيلي» تصرفا بشكل طبيعي كأنهما كانا على موعد من قبل، خاصة عندما أحس فرناندو أن ذلك الروسي الأبيض بدا كأنه فوجئ بوجوده... ولقد قال «فرناندو» معلقاً:

- كان الموقف في البداية غريباً... لكنني أحسست بعد انقضاء بعض الوقت أن «فاسيلي» ربما ضغط على «إيلين» كي يزورها، ولم يكن أمامها سوى أن تطلب مني الحضور حتى تعلن للرجل أنها مرتبطة بإنسان آخر!

لزم «فرناندو» الصمت لثوانٍ ثم أردف:

- وكان طبيعياً أن أشعر حيالها بالامتنان، وكان طبيعياً أن تزداد سعادتي!

وعندما سأله المحقق عن الحديث الذي تناولوه في تلك الليلة قال إنه كان حديثاً عادياً في البداية، لكنه - دون مقدمات - أخذ مساراً آخر عندما وجهت «إيلين» إلى «فاسيلي» سؤالاً بدا له غريباً تماماً، سألت:

- فاسيلي... ألم يراودك الحنين إلى الوطن؟!

- لزم فاسيلي الصمت لثوانٍ وقد استبدت به الحيرة، لكنه ما لبث أن سأله بدوره:

- أي وطن تقصدين؟!

- روسيا بالطبع!

- ولكنني ولدت في الولايات المتحدة!

قالها «فاسيلي» وكأنه يدفع عن نفسه اتهاماً، فقالت «إيلين»:

- ورغم ذلك فأنت تتحدث الروسية في حياتك الخاصة!

اشتدت الحيرة بـ «فاسيلي» وكأنه انتبه إلى حقيقة غابت عنه طويلاً، ولقد أردفت:

«إيلين» مبررة سؤالها ذلك:

- لقد خطر لي الأمر ليلة أن تناولنا العشاء في حديثك الخلفية... رأيتك مع مجموعة الأصدقاء وكأنكم انفصلتم عن عالمنا هذا انفصلاً تاماً... وأنكم تخلقون جوًّا خاصاً

أقرب إلى روسيا من أي مكان آخر!

كان طبيعياً أن يشترك «فرناندو» في الحوار، وأن يندفع طويلاً مؤيداً هذا الرأي، واضعاً ما شاهده وأحسه في تلك الليلة، مما أوقع «فاسيلي» في الحرج، خاصة عندما قال «فرناندو» ذات لحظة إنه أحس وكأنه انتقل من أوتوا إلى بيت آل كرمازوف... ما لبث «فاسيلي» أن تمتم مرتبكاً:

- هذا حقيقي... ربما... يبدو أنكما على حق... لست أدري!

كانت الكلمات تنتثر من بين شفثيه بلا هدف واضح، وكانت «إيلين» تجلس ساعتها في مقعدها الأثير في ركن من البيت الأنيق، ورغم عمق الحوار وجدته وجدة موضوعه، فلقد كانت كلماتها تقطر رقة وعذوبة... ولقد ران الصمت بعد ذلك حتى حبس «فرناندو» أنفاسه، بينما بدا «فاسيلي» كأنه يجلس فوق أتون ملتهب، لكنه قال بعد لحظات:

- نعم... الوطن... أيضاً... ولكن... ..

قال هذا ثم لزم الصمت مرة أخرى حتى شجعتة «إيلين» بقولها:

- ولكن؟!!

- ولكن أين هو هذا الوطن... إن روسيا لم تعد روسيا!

- وما يدريك؟!!

- هه؟!!

- لقد ولدت في الولايات المتحدة، أي أنك لم تر روسيا الآن ولا تعرف عنها شيئاً!

- هذا حقيقي!

- فمن أين لك أن تعرف أن روسيا لم تعد روسيا؟!!

- كانت لأمي وأبي ذكريات!

- ولهذا فأنت تعيش روسيا التي سمعت عنها وتعيشها وتحدث لغتها!

بدت ملامح «فاسيلي» كأنها تذوب وتختلط، أحس «فرناندو» أن الرجل الجالس أمامه يعاني من عذاب دفين، لكن «فاسيلي» ما لبث أن زفر زفرة حارة وقال كأنه يحدث نفسه:

- يبدو أن الوطن شيء كامن في نفس الإنسان... وأن التخلص منه، حتى لو ولد المرء بعيداً عنه، أمر مستحيل!!!

ابتسمت «إيلين» كأنها حققت هدفاً ثميناً، فهتفت فاسيلي:

- لا بد لي من الاعتراف بأنك فتاة غير عادية، إن ثقافتك «إيلين» لا تتناسب مع طبيعة عمك!

- لا تجرنا بعيداً عما نحن فيه!

هكذا هتفت «إيلين» مازحة، فقال «فاسيلي»:

- أنت تعرفين بالقطع كيف تحكم روسيا الآن!

- إن الشيوعية نظام حكم، كما أن القيصرية نظام حكم، لكن روسيا هي روسيا في الحالتين!!

أعد «فاسيلي» لنفسه كأسًا، بدا كأنه مضطرب لسبب غامض، وكان حديثه بعد ذلك يتسم بالمرارة والحزن، هكذا قال «فرناندو»... ولقد اعترف هذا الروسي الأبيض أن هذا الأمر حيره كثيرًا، وأنه طالما تمنى بينه وبين نفسه، أن لو استطاع أن يزور روسيا ولو لمرة واحدة، وأن ثمة حنيئًا غامضًا ينتابه بين الحين والحين نحو هذا الوطن البعيد... قال هذا ثم وجه حديثه إلى «إيلين» و«فرناندو» معًا:

هل تعرفان أنني في بعض الأحيان، ألجأ إلى روايات «ديستوفسكي» و«تولستوي» و«چوچول» و«تشيكوف»، لا لشيء إلا لكي أتسم عبير الوطن من خلال اللغة والأحداث معًا؟!

هتفت «إيلين» متسائلة:

- إذن فأنت تقرأ لهؤلاء في لغتهم الأصلية!

دمدم «فاسيلي» كأنها وجهت إليه اتهامًا:

- وماذا في ذلك «إيلين»!؟!

كان جافًا فقالت هي باسمه:

- يبدو أنني أخطأت في إثارة هذا الموضوع!

- ألا تشعرين بالحنين إلى إنجلترا!؟!

- بالطبع، ولكنني أستطيع تنسم هواء الوطن كلما أردت!

هتف «فرناندو» وكان التأثر قد استبد به هو الآخر:

- إنني على استعداد لأن أدفع نصف ما تبقى من عمري، في مقابل زيارة واحدة لبيت أمي!

ران الصمت بعد ذلك على الجميع، كان الثلاثة غرباء في وطن هاجروا إليه... وكانت «إيلين» بارعة براعة تفوق الوصف وهي تدفع ذلك الروسي الأبيض؛ كي يصبح طوع بنائها دون أن يدري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال أحد المحققين، إنه كلما خاض في تفاصيل هذه القضية، أحس أن عبقرية هذه الجاسوسة لا تعرف الحدود، وقال آخر إن الأمر من المستحيل أن يرجع إلى التلقين أو التدريب أو التعليم فقط، ذلك أن هذه الفتاة كانت تملك موهبة خاصة، جعلتها مثل الفنان، دائم الخلق لأساليب ومواقف تحملها حملًا نحو الهدف!

لقد استطاعت «إيلين» بعد هذا الحوار الذي كشف عن حقيقة الإحساس الكامن في نفس «فاسيلي» - أن تضع يدها فوق نقطة بالغة التأثير في شخصيته، وأن تثير في نفسه وفي نفس «فرناندو» بالتالي، عواطف جعلتهما أقرب إليها من أي إنسان آخر... وكان طبيعيًا، بعد أن اعترف «فاسيلي» بما اعترف به- أن يبوح بأي سر آخر!

قال «فرناندو كورتيز» إن «إيلين» - كي تغير الموضوع الذي أثار مثل هذه الشجون- نهضت كي تعد للشابين عشاءً خفيفاً... ولقد أخذ الحديث بعد ذلك يتراوح فيما بين موضوعات اجتماعية أو فنية عامة، لكن «فاسيلي» كان يشارك في الحوار بنصف عقل، كان يبدو كأنه يعاني من أحاسيس مكبوتة من الصعب عليه السيطرة عليها... ولذلك، فقد هتف في لحظة:

- لا بد لي من الاعتراف أن ثمة ضغطاً نفسياً أعاني منه!

لزمت «إيلين» و«فرناندو» الصمت، ردد الفتى الروسي البصر بينهما ثم قال:

- هل أستطيع أن أبوح بما لا أستطيع البوح به حتى لزوجتي؟!!

- فكر مرتين قبل أن تفعل!

قالت «إيلين» هذا في لهجة بعثت بالردة إلى جسد «فرناندو»، لكن «فاسيلي» كان ينهار لحظة بعد أخرى.

- لست أدري كيف يمكن لإنسان، أي إنسان، ألا يحترم مثل هذا المنطق - غير أنني في واقع الأمر فكرت طويلاً، ولا بد لي من الاعتراف أنني في حاجة إلى الحديث معكما!

نهضت «إيلين» قائلة:

- لقد احتسيت من الشراب أكثر مما ينبغي!

- «إيلين»... إني...

قاطعته في صرامة:

- لقد تأخر الوقت، ولا بد أن أوي إلى فراشي الآن!

وهكذا انصرف الشبان...

وهكذا قال المحقق:

- إن هذه الفتاة تكاد أن تكون معجزة، لقد منعت «فاسيليف إيفانوف» من الحديث أمام «فرناندو»، حتى تستطيع فيما بعد أن تحكم قبضتها عليه!

23 - قاتلة باردة الأعصاب!

انتصار الرؤساء!

كان من الواضح الآن أن التحقيق فيما يختص بذلك الروسي الأبيض «فاسيليف إيفانوف» قد وصل إلى طريق مسدود... فبعد هذا الاستهلال في العلاقة الذي حدث في تلك الليلة في بيت «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، وأمام «فرناندو كورتيز»، كان واضحًا أنها كانت حريصة كل الحرص على أن تظل تلك الصورة التي بثتها في وجدان «فرناندو»، ماثلة كحقيقة ثابتة من ناحية، ومن ناحية أخرى، كانت تريد لعلاقتها بـ «فاسيلي» أن تظل سرًا لا يعرفه سواهما... وفي الحقيقة، واستنادًا إلى قوانين هذا النوع من النشاط الإنساني، فلقد كانت «إيلين» على حق في الناحيتين... ولذلك، فلقد انقسم الرأي بالنسبة لاستمرار البحث حول اختفاء ذلك الروسي الأبيض إلى قسمين:

قسم من الرجال رأى أن المهم ليس التفاصيل، ولكن النتيجة النهائية، وكانت النتيجة النهائية في متناول اليد الآن... ذلك أن رجل المخابرات السوفياتي الذي لجأ إلى الغرب أكد - بما لا يقبل الشك - أن «فاسيلي» سُجن في إحدى السفن السوفياتية التي رست في ميناء صغير في شمال كندا يدعى «بورت الفريد»، وعلى هذا فمعرفة التفاصيل لن تكون سوى تحصيل حاصل.

غير أن قسمًا آخر من الرجال رأى الأمر على العكس من هذا، فلقد كانت النتائج معروفة منذ البداية، بداية العثور على الخيط الأول لقصة هذه الجاسوسة الفريدة، وما كان البحث عن التفاصيل وإنفاق كل هذه الأموال والوقت الذي استغرق شهورًا بعد شهور، إلا للحصول على صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة... لا لمعرفة أسلوب المخابرات السوفياتية فقط، ولكن لإعطاء الأجيال الجديدة من رجال المخابرات، أمثلة جيدة وبارعة في الأداء... خاصة أن «إيلين» رفضت رفضًا حاسمًا، أن تكون لها أية علاقة بالسفارة السوفياتية في أوتاوا، ولقد كان هذا في حد ذاته شيئًا لا بد من وضعه في الاعتبار، لا لشيء، إلا لأن بعض العمليات التي قامت بها هذه الجاسوسة، مثل اختطاف «فاسيلي» وإخراجه من كندا - كانت تحتاج بالفعل إلى المساعدة... لكنها باعتمادها على نفسها، أعطت مثلًا ناصعًا في كيفية إدارة شبكة التجسس في دولة معادية... فإذا أضيف إلى هذا، أن «تانيا راديونسكا» أو «إيلين إيستمان» لم تكلف وطنها دولارًا واحدًا بعد استقرارها في أوتاوا، معتمدة تمام الاعتماد على دخلها الذي كان يتزايد يوميًا بعد يوم من محل بيع الملابس الداخلية للسيدات، وجدنا أنفسنا أمام أداء مثالي، ينذر أن يتحقق في هذا الحقل الخطر!

وعلى كلٍّ فلقد انتصر الرأي الثاني، وانطلقت مجموعة من الرجال تبحث وراء تلك العلاقة بين «فاسيليف إيفانوف» و«إيلين إيستمان»... ولقد كان أهم ما يميز هذه المجموعة، هو إحساس كل فرد منهم بالتحدي!

وكانت البداية التي لا بد منها مع «أنا إيفانوفنا»... زوجة «فاسيلي».

وبالرغم من الحزن والحيرة والقلق من اختفاء زوجها فإن هذه السيدة كانت شديدة الحرص على التزام الموضوعية... فلقد قالت إنها أحست في الفترة الأخيرة، قبل اختفاء «فاسيلي»، أن ثمة شيئاً هاماً يشغل باله، لم يكن هو الحب الذي سيطر عليه بمثل هذا القدر وشتت أفكاره، كان شيئاً آخر بدا لها غامضاً وإن كانت ترجح أنه كان التفكير في ذلك المشروع الخطير الذي كان يعمل فيه... قالت إنه شكا لها أكثر من مرة، أن هناك من يحاول اختلاس ثمرة جهده ونسبتها إلى نفسه، وكان هذا يقلق «فاسيلي» إلى حد كبير لكنها أبداً لم تفكر، ولم تشعر أن «إيلين» لها علاقة بالموضوع.

وعندما سألتها المحقق إن كان «فاسيلي» قد تحدث أمام «إيلين» عن مشروعه ذلك، أجابت بأن هذا قد حدث فعلاً، فلقد كان يعاني من تجاهل زملائه ورؤسائه مما كان يدفعه إلى الحديث عن جهده وفكره المستباح بحماس شديد، وكانت «إيلين» في تلك المرات التي تحدث فيها عن هذا المشروع تبدو كأنها لا تفقه شيئاً مما يقول، حتى لقد قالت له ذات مرة:

- «فاسيلي»... أليس هذا الذي تقوله من الأسرار الهامة للدولة؟!

- نعم هو كذلك!

- أليس من الخطر أن تبوح بهذه التفاصيل السرية؟!

- هو خطر إذا كان من أتحدث إليه جاسوساً!

- وما يدريك أنني لست جاسوسة؟!

قالت «أنا إيفانوفنا» إنهما - «فاسيلي» وهي - ظلا يضحكان في تلك الليلة حتى دمعت عيونهما.

وقال واحد من أصدقاء «فاسيلي»، وكان قد حضر ذلك العشاء الذي حضرته «إيلين»، إن «فاسيلي» جاءه ذات يوم وكان يبدو مهموماً، وطلب منه اصطحابه إلى إحدى الحانات... وهناك راحا يثرثران في أمور شتى، حتى سأله «فاسيلي» فجأة:

- ماذا لو أنني قلت لك إن «إيلين إيستمان» روسية؟!

- لن أصدق، وسأقول إنك مجنون!

كان هذا الصديق يرى أن «إيلين» بريطانية حتى النخاع، غير أن سيل الأسئلة الذي انهمر على ذلك الصديق، جعله يعترف أن «فاسيلي» صارحه بحبه الشديد لـ «إيلين»، لكنه أكد له في نفس الوقت، أنه لم يصارحها بهذا الحب خوفاً من سيطرتها عليه.

وعلى كل، فلقد كاد الرجال يركنون إلى اليأس عندما عثروا على أرملة في الخامسة والستين من عمرها تسكن في الدار المقابلة لبيت «إيلين»... ولقد اعترفت هذه السيدة أن الوحدة التي كانت تعاني منها بعد وفاة زوجها، دفعتها إلى مراقبة الجيران، كان أمرٌ يبعث على الخجل حقاً، لكنه كان تسلية ممتعة في نفس الوقت.

ولقد اضطر الرجال إلى مصارحتها أن الأمر يمس أمن الوطن حتى تعترف بما كانت تراه، وبقليل من الدهاء راحت هذه السيدة تحكي، وقد انفكت عقدة لسانها، وقالت أنه في الأيام الأخيرة، قبل أن تخفي «إيلين إيستمان»، لاحظت أن هذا

الشاب - كانت تقصد «فاسيلي» بعد أن عرضوا عليها صورته فتعرفت عليه- كان كثير التردد على «إيلين»، وأنها اضطرت ذات مساء إلى الصعود إلى الطابق العلوي، وأن تستعمل النظارة المعظمة كي تراقب ما كان يحدث بينهما، قالت هذه السيدة التي تحمل اسم «مسز ووكر»، إن الذي استفزها ودفعها إلى مراقبة «إيلين» و«فاسيلي» بإصرار، أن الفتاة كانت حريصة على إسدال الستائر، مما كان يمنع الرؤية... لكن هذا لم يمنع - من استعمال النظارة المعظمة، من رؤية ظلال الأشخاص المنعكسة على الستائر... قالت «مسز ووكر» إن «إيلين» كانت فتاة مهذبة ومؤدبة ولا غبار عليها، وكانت قليلة الأصدقاء لا تتدخل في شؤون الغير، ولم يزرها بشكل شبه منتظم سوى شاب أسمر يبدو كأنه من أمريكا الجنوبية - وكانت بالطبع تقصد «فرناندو كورتيز»- وكان هو الآخر مهذباً إلى حد بعيد، لكنه لم يكن يمكث سوى ساعة أو ساعتين في كل زيارة ثم ينصرف في هدوء.

وعندما سئلت «مسز ووكر» عن أية ملاحظات خاصة لفتت نظرها بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يزورون «إيلين» قالت إنها كانت، مع المران واستمرار المراقبة، تستطيع أن تفهم من حركات الذين تشاهدهم طبيعة الحديث الدائر بينهم، وأن آخر مرة زار «فاسيلي» فيها هذه الفتاة المهذبة، نشبت بينهما مشادة انتهت بأن غادر هذا الشاب البيت، وكان واضحاً أنه يهدد «إيلين»... ولقد عرفت هذا، لأن «إيلين» نسيت أن تسدل الستائر في تلك الليلة، ولا بد أن الخلاف بينهما كان محتدماً إلى حدّ أنساها أن تفعل ذلك!

.....

.....

بعد بضعة أسابيع استطاع الرجال أن يجمعوا قطع الصور المتناثرة من هنا وهناك، من زوجة «فاسيلي»، من عاملات المحل اللاتي اعترفن بأنه أحياناً كان يزور «مس إيستمان» في أوقات العمل، من «مسز ووكر»، ومن الأصدقاء والزملاء... ثم أضيف إلى كل هذا، ما حمله رجل المخابرات الذي لجأ إلى الغرب... وكانت الصورة التي تكونت أقرب ما يكون إلى الواقع الذي حدث!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الحديث عن الوطن والحنين إليه، ذلك الحديث الذي بدأ بين «إيلين» من ناحية و«فرناندو» و«فاسيلي» من ناحية أخرى، هو البداية المثالية لدخول عالم «فاسيليف إيفانوف» الذي اتصل بعد ذلك بـ «إيلين» شاكرًا إياها لأنها منعتة من الاندفاع في الحديث أمام «فرناندو»... كان الشاب ممتناً بالفعل لهذه اللفتة التي أقدمت عليها «إيلين»، وشيئاً فشيئاً نجحت إيلين في السيطرة على فاسيلي، ولقد قال رجل المخابرات السوفييتي الذي لجأ إلى الغرب، إن «إيلين» أمطرت الرئاسة في موسكو بكم لا بأس به من التقارير حول ذلك المشروع الذي كان «فاسيلي» يعمل به... غير أن كل المعلومات التي أرسلتها كانت ذات طابع عام، ولا تصلح للاعتماد عليها في الوصول إلى كنه هذا الجهاز الجديد. كانت الرئاسة في حاجة إلى معادلات وحسابات ومعلومات دقيقة... وهنا، طلب من «إيلين» أن تطير إلى باريس لمقابلة مندوب من الرئاسة!!

وبالفعل، فبعد بضعة أسابيع، وصلت إلى «إيلين» دعوة من أحد بيوت الأزياء الباريسية الشهيرة، ردًا على طلب منها لتوزيع منتجات هذا البيت في كندا، تطلب منها إدارة هذا البيت الحضور إلى باريس لإتمام الصفقة!

كان كل شيء في تلك الدعوة حقيقياً مائة في المائة، خطاب «إيلين» والدعوة، والموعد أيضاً!

وطارت «إيلين» إلى باريس لمدة ثلاثة أيام أجرت فيها مفاوضات لم تكن شاقة مع المسؤولين في بيت الأزياء، وانتهت بحفل عشاء صغير مع صاحب هذا البيت وقع فيه العقد... لكن أحداً لم يعرف، أنه في الغرفة المجاورة لغرفة «إيلين» في الفندق الذي نزلت فيه، كان ينزل رجل مخابرات سوڤيتي كان قد وصل خصيصاً للقائها! كان الحوار، كما كان الاختلاف هذه المرة، على عكس ما حدث مع «فريدريك هينرتش» تماماً.

ذلك أن وجهة نظر «إيلين» جنحت هذه المرة إلى المغامرة بمصارحة «فاسيلي» بتعامله مباشرة مع الـ «كي. جي. بي»... وكانت حجتها في هذا، أن «فاسيليف إيفانوف»، يشعر فعلاً بالحنين إلى الوطن الذي لم يره ولم يولد على أرضه... كانت تجربتها معه - هكذا قالت- تؤكد أن ذلك الروسي الأبيض، يحمل في صدره حنيناً جارفاً نحو أرض الوطن... ولقد قالت فيما قالت في ذلك اللقاء الذي استمر حتى ساعة متأخرة من الليل، أن حواراً دار بينها وبين «فاسيلي» حول هذا الأمر، عندما سألتها ذات مرة:

- فاسيلي، أريد منك إجابة صريحة وواضحة لسؤال يبدو لي هاماً للغاية!

- أعدك بهذه الصراحة وهذا الوضوح «إيلين»!

- إن ذلك الجهاز العبقري الذي تعمل فيه، سوف يرصد - على بعد مئات الأميال- الطائرات أو الدبابات الروسية، بمعنى أنه مشروع ضد وطنك!

- ماذا تريد أن تقولني بالله عليك؟!

- ألم يتحرك ضميرك مرة، ألم تشعر أنك تخون أبناء هذا الوطن وتعرضهم للإبادة بأسلحة أعدائهم؟!

وقع «فاسيلي» في الحرج، تردد طويلاً في الإجابة، ذلك أن «إيلين» كانت حريصة كل الحرص على ألا تستعمل كلمة الاتحاد السوڤيتي، بل كانت كلمة روسيا هي السائدة في المناقشات بينهما، مما كان له أكبر الأثر في التأثير على ذلك الشاب المسكين الذي أجاب بعد ثوانٍ ساد فيها الصمت قائلاً:

- أقسم لك أنني لم أبح بمثل هذا الإحساس، حتى لنفسي!

- وما هو هذا الإحساس؟!

نهض «فاسيلي» وكان يبدو قلقاً، وقف إلى جوار النافذة المطلة على الطريق قال وكأنه يحدث نفسه:

- ذات ليلة، كنت قد توصلت فيها إلى حل مشكلة رياضية خاصة بعمل هذا الجهاز، أحسست أنني أقيد أبناء وطني بسلاسل خفية، حتى لا يجيدوا الدفاع عن أنفسهم!

- وماذا عن كندا؟!

التفت نحوها محتدماً:

- استمعي إليّ أيتها الفتاة الشديدة الذكاء... أنا لا أصدق أن هناك أمريكياً أو كندياً يعطي ولاءه كله للوطن الجديد، دون أن تكون هناك في صدره، مساحة للوطن الأم! همت بالحديث لكنه أردف:

- وأنت... أنت لا تستطيعين أن تتكري أن ما أقوله حقيقي!

- ثم؟!!

هكذا سألت «إيلين» فأجاب:

- ثم لا شيء سوى الحيرة والتمزق!

قالت «إيلين» لرجل المخابرات القادم من موسكو، إنها قررت في تلك الليلة، أن تصارح «فاسيلي» بحقيقة الأمر، وأن تطلب منه التعاون مع المخابرات الروسية - لا السوفييتية- لولا ذلك الالتزام الصارم بعدم الإقدام على مثل تلك الخطوة، إلا بعد استئذان الرئاسة!

ولقد استمع الرجل في صمت، حتى إذا ما انتهت «إيلين» من طرح وجهة نظرها، كانت المفاجأة التي لم تتوقعها، أن الرئاسة في موسكو ترى عكس ما تراه هي. قال الرجل:

- لعلك لا تعرفين أن هؤلاء الروس الذين هربوا من الثورة البلشفية، ربما يصبحون أكثر عداء للاتحاد السوفييتي من الأمريكيين أنفسهم!

- أليست هناك مبالغة في مثل هذه النظرة؟!!

- إنهم نوع من اثنين... إما أن يكونوا من سلالة القياصرة... وهؤلاء يحملون بالطبع عداء تقليدياً للثورة التي أطاحت بعرشهم وأعدمت آخر قياصرتهم... وإما أنهم ينتمون إلى تلك الطبقة التي كانت تعتمد على النظام القديم للحصول على امتيازات تجعلهم أكثر شراسة من القياصرة أنفسهم!

هكذا دار الحوار بين «إيلين» والمسئول القادم لمناقشتها... غير أن الحوار انتهى هذه المرة إلى موقف مختلف... ولما كانت وجهة نظر «إيلين» هي التي ثبت صحتها في حالة «فريدريك هينرتش»، فلقد فضلت الرئاسة في موسكو أن تطرح عليها وجهة نظرها، وتوضح لها المحاذير، ثم تترك لها حرية الاختيار بين وجهتي النظر!

وعادت «إيلين» إلى أوتواوا مسلحة بعقد مع بيت الأزياء الفرنسي، والذي بدأ تنفيذه على الفور، فأضيف إلى محل بيع الملابس، أنواع باريسية جعلت الإقبال يزداد والأرباح تتكاثر، كما كان في يدها - من ناحية أخرى- تفويض للتصرف مع «فاسيلي» بالأسلوب الذي تراه مناسباً.

وكان الغريب في الأمر... أن وجهة نظر المسؤولين في موسكو هذه المرة، كانت هي الصحيحة. مما دفع «إيلين» إلى استعمال القوة، لشحن «فاسيلي» المسكين إلى موسكو في مغامرة اتسمت بخطر محقق!

24 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تقع في الحب!

كان لابد للأمر أن يتطور بسرعة بعد عودة «إيلين إيستمان» من باريس... ذلك أنها كانت تملك الآن الضوء الأخضر من الرؤساء في موسكو، كما أنها - أيضاً - كانت تملك الوسائل والإمكانيات وحرية الحركة معاً... ولذلك، فلقد انطلقت فور عودتها إلى أوتوا، إلى الاستعداد لمواجهة «فاسيليف إيفانوف»!

وإذا كانت هذه الفتاة البالغة الجراءة، قد وجدت في التخلص من «فريدريك هينرتش» و«جون وايت» بالقتل حماية لها ولشبكتها الثمينة... فإنها رأت أن التخلص من «فاسيليف» لن يفيد في شيء، وكان تقريرها أن الاستفادة منه ومن عالمه، أهم بكثير، وربما أمن من القتل... ولذلك، فلقد أبرقت بعد بضعة أيام من وصولها إلى أوتوا تطلب من موسكو تحديد موعد مع سفينة سو □ بيتية تكون في زيارة لشواطئ كندا، كي يتسلم مسئول على درجة كبيرة، شحنة آدمية ثمينة لو اقتضى الأمر ذلك فيما هو قادم من أيام.

كان الأمر غريباً بالنسبة للرؤساء في موسكو، ذلك أن «إيلين» تصرح في باريس بأن في نيتها اختطاف أحد، حتى لقد قال واحد من هؤلاء الرؤساء أثناء مناقشة الأمر: «يبدو أن هذه الفتاة تريد أن تجلس على مقعد المدير هنا!!»... وعلى كل، فلقد رحبوا بالأمر بطبيعة الحال، ورغم أنها لم تذكر من هو صاحب الشحنة الأدمية، فإنهم أيقنوا أنه لابد أن يكون «فاسيليف إيفانوف»!

وكالعادة لعبت المصادفات دورها في خدمة «إيلين»... ذلك أن السفينة سو □ بيتية «يالتا» كانت ترسو في ذلك الوقت في ميناء تورنتو الذي يطل على مياه بحيرة أونتااريو في جنوب كندا، وكان عليها كي تخرج إلى المحيط، أن تبحر شمالاً إلى ما يعرف باسم الـ «سي. واي» تلك القناة التي تربط فيما بين بحيرة أونتااريو ونهر سانت لورانس الذي يصب في المحيط الأطلسي، كي تمر - على شواطئ النهر - ببضعة موانئ أهمها ميناء «مونتريال»، ثم من بعده شمالاً ميناء كيوبيك، ويبقى بعد ذلك ميناء «ثري ريفرز»، ومن بعده «بورت ألفريد» الذي يقع بالقرب من المحيط... وبعد دراسات استمرت بضعة أيام، وجد أن هذا الميناء الأخير، هو أنسب مكان لتلقي الشحنة رغم بعده عن أوتوا!

ما هي إلا أيام، حتى كان كل شيء جاهزاً للتنفيذ، فلقد طار مندوب خاص من وزارة الخارجية سو □ بيتية إلى العاصمة الكندية في عمل استغرق بضعة أيام، ثم ركب السيارة إلى مونتريال التي كانت السفينة «يالتا» قد وصلت إليها، فاستقلها عائداً إلى الوطن!

وتحسباً لكل المفاجآت، فلقد استدعت «إيلين» واحداً من فريق الحماية كان يعمل في الحوض الجاف بميناء مونتريال... كان رجلاً ضخماً الجثة، مفتول العضلات، أحمر الشعر، من أصل نيوزيلاندي، قاسي الملامح، وكان اسمه - «جورج وات» - هكذا قالت «مارجريت فريش» التي قتلت «فريدريك هينرتش» بالسهم، والتي أسندت

إليها «إيلين»، مع «جورج وات»، مسئولية حمل «فاسيلي» في سيارة مجهزة إلى ميناء بورت الفريد الذي يبعد عن أوتوا مئات الأميال!

كانت الخطة التي وضعتها «إيلين»، تتلخص في أن يستأجر «جورج وات» سيارة ذات جرار يستعمل كغرفة للنوم والمعيشة، وأن يدعي أنه وزوجته - «مارجريت فريش»!!- يقومان برحلة في ربوع كندا تنتهي عند ميناء «بورت ألفريد» القريب من مصب نهر سانت لورانس في المحيط الأطلسي.

بعد بضعة أيام وصلت السفينة بالتالي إلى مونتريال، وصعد إليها ذلك الدبلوماسي السويدي الذي استقبل استقبالاً عادياً لا يلفت الأنظار التي انبثت من حول السفينة... وظلت «يالتا» راسية في مونتريال لثلاثة أيام، ثم أبحرت نحو الشمال.

كانت «إيلين» الآن تحسب الوقت بالساعة وربما بالدقيقة... فذات ليلة، وكان الحوار بينها وبين «فاسيلي» قد وصل إلى نقطة حساسة قال لها الشاب الممزق الوجدان:

- «إيلين»... لست أدري إلى أي طريق تقودنا هذه المناقشة العقيمة!

- إذن فلنكف عن المناقشة!.

- ليس هذا يا «إيلين» حقاً، ولكنك ألقيت بي في أتون للحيرة لم أعد أستطيع احتمالها!

- إذن... فلنكف عن المناقشة كي نتخلص من حيرتك!

سد «فاسيلي» إليها نظرة حائرة وتوسل قائلاً:

- ما الذي تبغينه بالله عليك؟!

- لا شيء ربما كنت أعاني مما تعاني منه أنت!

- هل تفكرين في العودة إلى إنجلترا؟!

- وهل تفكر أنت في العودة إلى روسيا؟!

- أنت تستطيعين العودة إلى الوطن، ولكني لا أستطيع حتى ولو أردت!

- لماذا؟!

- لأن السويديت سوف يعدمونني فور وصولي!

- ومن يدريك؟!

- ألم تقرئي ما فعله الشيوعيون بالقيصر وبالشعب الروسي؟!

- كان هذا منذ قرابة نصف قرن... ثم إنها كانت ثورة، ولكل ثورة ظروف وأحكام!

- اللعنة... لا تدفعيني إلى الجنون بالله عليك!

- أنت تعمل على إبادة بني وطنك!

- أليست كندا وطني؟!

- لك حق الاختيار!

اندفع «فاسيلي» نحوها، ركع على الأرض قبالتها، كان يرتجف انفعالاً، قال:

- «إيلين»، إنني على يقين من أنك تعلمين كم أعاني من حبك!

انتظر لثوان ريثما يرى رد فعل الكلمة فيها فلم يجد سوى ابتسامة لا معنى لها، فهتف ناهضاً:

- نعم... أنا أحبك «إيلين»، ولذلك أرجوك أن تكفي عن مناقشة هذا الموضوع!

- ولكنك تتعذب!

- فهل لديك مخرج!

- لم لا ترسل بأسرار هذا المشروع إلى روسيا!

- ولكن هذه خيانة!

- لمن؟!!

- أسقط في يد «فاسيلي»... ولقد قالت «أنا إيفانوفنا» إن زوجها عاد في الليلة السابقة على اختفائه شاحياً، وكان بادي العصبية، وإنها حاولت عبثاً أن تعرف منه سبب عصبيته، فلقد طلب منها، في حنان زائد، أن تتركه وحده... لكنه في اليوم التالي حدثها تليفونياً من عمله قائلاً إنه سوف يتأخر بعض الوقت... كان «فاسيلي» قد قضى ليلة عصبية بحق... ولذلك، فعندما انتصف النهار التالي، تحدث إلى «إيلين» طالباً لقاءها بعد الخامسة... ولا بد أن تلك الفتاة قد أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت... قبل الموعد بساعة كانت في البيت استعداداً لاستقبال «فاسيلي» الذي فاجأها بقوله:

- هل أنت روسية؟!!

قدمت له «إيلين» كأساً كانت قد أعدتها، وكانت الكأس تحتوي مادة مخدرة... قالت باسمه:

- وماذا لو كنت كذلك؟!!

- إذن فأنت جاسوسة!

قال هذا وهو يتناول الكأس منها كالمنوم، فقالت وهي ترفع كأسها قبالتة:

- لم لا نشرب نخب روسيا؟!!

في تحد رفع «فاسيلي» كأسه قائلاً:

- سوف أشرب نخب روسيا لا الاتحاد السو... يتي!

ألقى الكأس في حلقه ثم نظر نحو «إيلين» في أسى بالغ، ثم قال:

- لقد راودني الشك منذ فترة، لكنني أبيت أن أصدق شكوكي!

- هل يقلل هذا من شأن علاقتنا؟!!

وكانه لم يسمع قال وهو يضع الكأس فوق المائدة:

- آسف «إيلين»، ليس أمامي إلا أن أبلغ السلطات!

قال هذا، ثم سقط فوق المقعد، وراح في سبات عميق.

.....

.....

كان «جورج وات» مع «مارجريت فريش» جاهزين لاستقبال الشحنة التي استغرقت يومين للوصول إلى ميناء «بورت ألفريد»... وقبل أن تصل السفينة «يالتا» إلى مصب سانت لورانس، أعلنت السلطات الكندية أن عطلاً قد حدث بإحدى الماكينات، وأنها تطلب الإذن بالدخول إلى أقرب ميناء لإصلاح العطل الذي لم يستغرق إصلاحه أكثر من ثلاث ساعات، أبحرت بعدها السفينة إلى عرض المحيط، وعلى ظهرها صندوق حُمل إليها سرّاً... وكان بداخله مهندس إلكتروني أصله روسي يدعى «فاسيليف إيفانوف»... والذي ما إن فتح عينيه، وكان قد قطع رحلة شاقة في جرار وثير، حتى هتف:

- أين أنا؟!!

وطالعه على الفور وجه جميل، لمرضة شقراء، شديدة الشبه بـ «إيلين إيستمان» والتي أجابت بالروسية:

- مرحباً بك في أرض الوطن أيها الرفيق «فاسيليف إيفانوف»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ممكناً أن تستمر نجاحات «إيلين» إلى ما لا نهاية، وكان لابد أن يحدث ما يكسر القاعدة في حياة هذه الفتاة العجيبة... فبعد اختفاء «فاسيلي»، عاد كل شيء إلى طبيعته في حياتها... عادت «مارجريت فريش» و«جورج وات» من رحلتيهما مكللين بنجاح دفع «إيلين» إلى أن تمنح كلا منهما مكافأة سخية... وكان اختفاء «فاسيلي» قد أثار ضجة تحدثت بها الصحف لأيام ثم خفت كل شيء... وكانت «إيلين» مع إثارة الضجة، قد أوقفت نشاط شبكتها تماماً. وعادت لقاءاتها مع «فرناندو كورتيز» إلى وتيرتها، ولم تنسَ بطبيعة الحال صديقتها «أنا إيفانوفنا»، فكانت تزورها بين الحين والحين للاطمئنان عليها وسؤالها على آخر أخبار البحث عن «فاسيلي» العزيز!

ولقد مضت أيام طويلة عندما كانت «إيلين» تجلس ذات يوم في مكتبها بالمحل، وقد اقترب وقت انتهاء العمل، عندما دلف إلى المحل شاب طويل القامة، كستنائي الشعر، غزير الشارب، تحمل ملامحه سمات رجل قوي الشكيمة، وإن كانت تحمل - في الوقت نفسه - جاذبية من نوع خاص.

كالقضاء والقدر حدث ما حدث، فما إن رأته «إيلين» حتى نهضت من مكانها حتى تكون في استقباله... ولقد قالت إحدى العاملات تصف تلك اللحظة:

- لقد خيل إليّ كما لو كانت «مس إيستمان» قد عثرت بعد طول انتظار على حلم تحقق فجأة!

وقالت عاملة أخرى:

- لم أر «مس إيستمان»، منذ أن تعرفت عليها، مضطربة إلا في ذلك اليوم!

أما مديرة المحل، وكانت سيدة في الأربعين من عمرها، فقد بدت مندهشة وهي تعيد على مسامع المحققين ما حدث بالضبط:

- لقد كنت دائماً معجبة بها، فرغم صغر سنها، فإنها كانت تتصرف بحنكة سيدة مجربة... وفي ذلك اليوم، لم يكن باقياً على انتهاء ساعات العمل سوى نصف ساعة، وكانت هي تجلس في مكتبها مستغرقة في مراجعة ملف الفواتير، وعندما رفعت

راسها ورأته، أزاحت الأوراق جانبًا، ونهضت واقفة... لقد ظننت أنها تعرفه، فقد اندفعت لتعادر مكانها حتى تكون في استقباله، ولذلك أومأت إلى الفتيات أن يفسحن لها الطريق!...

كان الوصف غريبًا على من كانت مثل «إيلين» التي بدت - كما أجمعت الفتيات - كالمأخوذة وهي تتقدم لاستقبال الرجل وكان رموش عينيها قد تحولت إلى مخالب تشبثت بوجهه، قالت في صوت مضطرب:

- ما الذي أستطيعه من أجلك يا سيدي؟!

ارتبك الرجل الذي كان في حوالي الثلاثين من العمر، ثم علت وجهه ابتسامة خفيفة سرعان ما اتسعت كي تشمل ملامح الوجه كله... بدا في لحظة وكأنه هو الآخر قد عثر على ضالته... حاول أن يتحدث فلم يستطع، خرجت من بين شفثيه كلمات تناثرت بلا معنى، هتفت «إيلين»:

- هل تريد هدية لزوجة أو خطيبة؟!

كأنه ينفي تهمة عن نفسه أجاب:

- لا لا... لست متزوجًا، ولست مرتبطًا أيضًا!

- ماذا إذن؟!

كانت مثلثة لإجابته فقال:

- إنها لأمي... وهي في الخمسين من العمر... و... و...

تضرج وجهه بحمرة خجل امتزجت بالضحكات الخافتة من بين شفاه الفتيات، بينما أشرق وجه «إيلين» بسعادة لم تستطع إخفاءها... وسرعان ما استحثته قائلة:

- نعم...

- إنها... إنها على وشك أن تتزوج!

- واه...

هكذا هتفت الفتيات فالتفت الشاب نحوهن موضحًا:

- لقد أنفقت أمني عمرًا كاملاً دون ارتباط من أجلي... وأنا أريد أن أؤكد أنني أبارك زواجها هذا... فرأيت أن خير وسيلة لأن... إن... ف...

ولم يكمل الرجل، فأسعفته «إيلين» بقولها:

- إني أعرف بالضبط ماذا تريد!

ثم التفتت نحو الفتيات. وراحت تصدر لهن أوامرها... وكان ما تطلبه، مجموعة كاملة من أفخر الملابس الداخلية للسيدات، لكن عينيها لم تبارح وجه الشاب الوسيم!

كانت «إيلين» قد وقعت في الحب!

وكانت تبدو سعيدة... لكنها لم تكن تدري أنها تضع قدمها في دائرة الجحيم ذاته!

25 - قاتلة باردة الأعصاب! الرقصة القوقازية!

عندما سئل الملازم «ويليام كلارك» عن علاقته بـ «إيلين إيستمان»، كان الشاب - رغم مرور الوقت- مازال يعيش تلك الأزمة العاطفية التي خلفها اختفاء «إيلين» المفاجئ... وكان طبيعياً أن يطرح الرجال الأمر على حقيقته بين يديه، فلقد كان الشاب ضابطاً في الشرطة الكندية، فوق أنه شارك في بعض العمليات الأمنية... ولقد مثل الأمر بالنسبة إليه صدمة حقيقية، ولقد قال بداية إنه لم يشك في «إيلين» لحظة، وراح يتساءل ويسأل إن كان في الأمر خطأ ما... تماماً مثلما فعل «فرناندو كورتيز» الذي رفض أي اتهام لـ «إيلين» رغم اعترافه أنها أهملته في الفترة الأخيرة، وهو ما دفع أحد المحققين إلى القول بأن الرجل هو الرجل، سواء أكان كيميائياً مثل «فرناندو»، أم رجل أمن مثل «المستر كلارك»!

وعلى كل حال فلقد أجمع الشهود على أن قصة الحب بين «إيلين» و«كلارك» قد انفجرت انفجاراً غير متوقع في ذلك المساء الذي التقيا فيه مصادفة لأول مرة، فقبل أن ينصرف «ويليام» من المحل، كانت «إيلين» قد أعطته أرقام تليفوناتها جميعاً، في البيت والمحل على السواء، قائلة إنها على استعداد لاستبدال البضاعة لو أن والدة السيد «كلارك» رغبت في اقتناء نوعٍ آخر، وكان طبيعياً أن تحصل هي الأخرى على أرقام تليفوناته!

قال «ويليام كلارك» إنه في تلك الليلة حمل هديته إلى أمه، وكانت سعادتها بالغة، كما كان انفعالها شديداً حتى لقد ارتمت بين ذراعيه وقد دمعت عيناها، لأن هديته كانت تتم عن حب وتشجيع حقيقيين، وكانت مباركة ولدها الزواج، هي كل ما تصبو إليه تلك السيدة الرقيقة!

ترك «كلارك» والدته وعاد إلى مسكنه الصغير الذي كان قد استأجره منذ بضعة أشهر عندما استشعر أن أمه وقعت في الحب، وأن مشروع ارتباط بينها وبين صديقها أصبح يلوح في الأفق... غير أنه ما إن انفرد بنفسه في تلك الليلة، حتى أحس برغبة شديدة في رؤية «إيلين» والتحدث إليها... كان هذا الشرطي المشهود له بالكفاءة، من ذلك النوع المتحفظ من الشباب الذي لا يترك لعواطفه العنان، فلم يكن هناك سبب للحديث إليها، فلقد أعجبت الهدية أمه وإن كانت قد لامته برقة لأنه دفع مبلغاً كبيراً من المال... وكانت صورة «إيلين» وهي تتحدث إليه في المحل، وذلك الإحساس الذي اجتاحه اجتياحاً، يلحان عليه إلحاحاً متصلاً... ولذلك، فما إن انقضت ساعة، حتى كانت مقاومته قد انهارت، فرفع سماعة التليفون، وطلب «إيلين».

كانت المفاجأة التي أدهشته، أن الدقة الأولى لجرس التليفون لم تكن قد اكتملت عندما رفعت «إيلين» السماعة... وجاء صوتها من الطرف الآخر هاتفاً في تساؤل:

- ويليام؟!

رجف «ويليام كلارك»، تردد لثوان، استحثته بعدها متسائلة وقد داخلها الشك:

- ويليام كلارك؟!

كان النداء واضحًا، بل كان صارخًا... فما هي تناديه باسمه الأول دون ألقاب كأن
كلاً منهما يعرف الآخر منذ سنوات، أخيرًا جاء صوته مرتجفًا بعض الشيء:

- كيف عرفت أنه أنا؟!!

- كنت في انتظارك!

- لم يكن في نيتي أن... ..

قاطعته:

- لكنني كنت موقنة من أنك سوف تفعل!

- في الحقيقة لقد كنت... ..

- ما رأيك في دعوة غير منتظرة على العشاء؟!!

لم يتردد «ويليام كلارك»، قال:

- كيف أصل إليك؟!!

ألقت إليه بعنوانها، فأعاد السماع إلى مكانها، وانطلق بسيارته في الطريق وكأنه
يمتطي السحاب!

وكان اللقاء في تلك الليلة عاصفًا!

هكذا قال الشرطي الحزين!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغريب في الأمر، أن «إيلين إيستمان» كتبت تقريرًا عن هذا اللقاء إلى الرؤساء في
موسكو... حقًا إنها لم تذكر شيئًا عن ذلك اللقاء العاطفي، لكنها ذكرت أنها تعرفت
على ضابط في الشرطة الكندية يحتل مركزًا مرموقًا، وأنها دعتة على العشاء كما
فعل هو ذلك أيضًا.

وبالنسبة للرؤساء في الـ «كي. جي. بي»، فلقد كان الشاب صيدًا ثمينًا بحق... كان
ثمة معلومات يريدون الحصول عليها بشدة، خاصة تلك المعلومات التي عز على
السو □ الحصول عليها عندما لجأ كاتب الشفرة في السفارة السو □ يتيه في أوتوا
إلى الحكومة الكندية، وكان هذا قبل وصول «إيلين» بعام وبعض العام، والتي أحاط
بها غموض لم يستطع السو □ بيت الكشف عن حقيقته... وعلى هذا، فلقد جاء الرد
عليها بالاستمرار في علاقتها بهذا الشرطي، ومحاولة معرفة ما الذي حدث بالنسبة
لكاتب الشفرة هذا، ولم ينس الرؤساء أن يحذروا جاسوستهم الثمينة... ذلك أن الرجل
شرطي مهما كان الأمر، وأي خطأ في التصرف، قد يفتح الشك طريقًا إلى عقله!

لم يكن صعبًا على «إيلين» أن تعرف الحقيقة كاملة من صديقها وفي زمن قياسي،
ليس فقط لأن السيد «كلارك» كان ضمن المجموعة التي عملت على حماية كاتب
الشفرة بعد لجوئه إلى السلطات الكندية، ولكن لأن مركزه - الآن - كان يتيح له
معرفة الكثير من الأسرار التي كان يثرثر بها في المساء مع حبيبته بعد عشاء يوم
شاق!

ولقد قالت إحدى العاملات في محل بيع الملابس الداخلية للسيدات... إنها شاهدت
إيلين أكثر من مرة، تتناول العشاء مع «مستر كلارك» في مطعم ذي مستوى رفيع
كانت تعمل فيه كساقية بعد انتهاء عملها في محل بيع الملابس!...

وقال مدير أحد النوادي، إنه تعود أن يرى «السيد كلارك» - وكان يعرفه جيداً- وهو يراقص «إيلين» كلما تناولا العشاء في النادي، حتى لقد كان معروفاً لدى جميع العاملين معه، أنهما شبه مخطوبين.

أما «فرناندو كورتيز»، فلقد شحب وجهه قليلاً وهو يقول:

- نعم... أحسست في الشهور الأخيرة أن العلاقة بيني وبين «إيلين» قد فترت إلى حد ما!

وعندما سأله المحقق عما كان يعنيه، زفر قائلاً:

- لم يكن الفتور من ناحيتي على كل حال!

- هل حدث بينكما شجار ما؟!!

استنكر «فرناندو» الكلمة، هتف محتجاً:

- ما الذي تعنيه بهذه الكلمة؟!!

- أعني ذلك الشجار الذي يحدث عادة بين اثنين متحابين بين الحين والآخر!

- ... لم يحدث مثل هذا الأمر!

- ألم تعرف سبب الفتور؟!!

كان الألم الآن صارخاً على وجه «فرناندو»، غمغم وكأنه يحدث نفسه:

- لقد كنت مدرّكاً منذ البداية، أنني - مهما كان الأمر- من أمريكا الجنوبية!

- وما الذي يعنيه هذا؟!!

صاح «فرناندو» في عصبية:

- لم لا تسأل فتياتكم؟!!

وهكذا أغلق التحقيق مع «فرناندو»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال أحد الرجال في موسكو أثناء اجتماع نوقشت فيه علاقة «إيلين» بـ «ويليام كلارك»:

- إنني أشم رائحة غريبة في علاقة «تانيا راديونسكا» بهذا الشرطي!

فرد عليه آخر:

- ما هي الغرابة في أن يطلب منها الزواج؟!... لا بد لنا أن نعترف أن «تانيا» تعيش

معه حياة عاطفية كاملة، وأننا لم نعترض على هذا منذ البداية، والأمر الطبيعي،

مادام الرجل يحبها أن يطلب منها الزواج!!

وهتف ثالث:

- نحن نقول إنه يحبها... فمن يدرينا أنها لم تقع في حبه هي الأخرى؟!!

كانت «إيلين» قد أرسلت إلى الرؤساء في موسكو، تقول إن «ويليام كلارك»

عرض عليها الزواج، وأنها - على العكس مما كانت عليه دائماً- لا تعرف بم تجيب،

إن المعلومات التي تحصل عليها منه، تبدو مفيدة وهامة للغاية، وفي الوقت نفسه،

فهي تخشى من تأثير هذا الزواج على أدائها!!

ولقد قال رجل المخابرات السوفياتي الذي لجأ إلى الغرب فيما بعد، إن الرأي انقسم بين الرجال في المخابرات السوفياتية، وإن جزءاً منهم كان محبباً لإتمام الزواج، بحجة أنه سوف يدعم وجود «إيلين» في كندا، ويعطيها شرعية في التحرك كيفما شاءت، خاصة إذا ما كانت زوجة رجل شرطة مهم... أما القسم الآخر، فلقد كان يخشى من انكشاف أمر «إيلين» إذا ما عاشت تحت سقف واحد، مع رجل أمن يمتلك حاسة شم لأي تصرف غريب!!

وعلى كل... فلقد تأجل اتخاذ قرار خاص بهذا الموضوع، حتى حدث ما لم يكن متوقعاً

.....

.....

لم يبذل «مستر ويليام كلارك» الشرطي بإدارة الأمن الكندية جهداً كبيراً كي يتذكر تلك الليلة الفاصلة... قال إنه و«إيلين» كانا - منذ أن التقيا- يعيشان في حالة سعادة دائمة... وإن كلا منهما كان يشعر أنه - أخيراً- قد عثر على نصفه الآخر الذي كان يبحث عنه... وبالرغم من أن «إيلين» لم تعطه جواباً حاسماً بالنسبة لطلب الزواج، فإن الأمر بدا وكأنه واقع لا محالة... حتى إذا ما كانت ليلة دعاها فيها لتناول طعام العشاء في أحد النوادي الراقية... وكانا - في غمرة حبهما- قد أحسا أنه قد أن الأوان لأن يعيشا شباهما... فهي، من ناحيتها، تحملت المسؤولية مبكراً، كما أنه - كرجل شرطة له وظيفة ذات طابع خاص- كان يتحفظ كثيراً في سهراته... حتى كانت تلك الليلة الغريبة!

راحت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً هادئاً... وكان كل من في الحلبة يرقصون في جو حالم عندما انقلب الأمر فجأة، وأخذت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً من تلك الألحان الصاخبة التي يعشقها الشباب.

توقف «ويليام كلارك» عن الرقص، فهو لم يتعود أن يؤدي مثل تلك الرقصات التي يتقافز فيها الشباب كالمجانين، غير أنه فوجئ بأن «إيلين» قد صاحبت اللحن الصاخب، وراحت ترقص داعية إياه لمشاركته تلك الرقصة!

توقف الشرطي الشاب قليلاً عن الحديث ثم استنرد:

- لست أدري في حقيقة الأمر ما الذي حدث... ربما كنا قد احتسبنا الكثير من الشراب، وربما كانت سعادتنا فوق طاقتنا على الاحتمال فرحنا نعبر عنها... لقد فوجئت بـ«إيلين» وهي تتقافز في رقصتها وكأنها تمتلك الدنيا بأسرها، ولم يكن هناك طريق سوى مشاركتها تلك اللحظات البالغة الجمال!

قال «ويليام كلارك» هذا ثم راح يحكي كيف كانت عيناها الزرقاوان تلتمعان كمصباحين منيرين، وكيف انحل شعرها وراح يتطاير من حول وجهها كأسلاك من ذهب وقد تصاعدت الدماء إلى وجهها فبدت صاعقة الجمال... ولقد قاوم الشرطي الشاب في البداية، لكنه لم يستطع إلا أن يشاركها فلم يكن أقل منها سعادة... راحا يرقصان ويرقصان بلا توقف... وبلغ من إتقان «إيلين» لرقصتها، أن توقف كل الراقصين والراقصات في الحلبة ما عداها... وإذ بها، في لحظة نشوة، وقد تغير اللحن إلى موسيقى قوقازية، ترقص تلك الرقصات الشديدة العنف التي يتقنها الروس، خاصة أهل القوقاز... حاول «ويليام كلارك» أن يشاركها لكنه في النهاية

اضطر إلى التوقف ومشاركة الجميع في التصفيق على إيقاع الموسيقى، بينما كانت هي ترقص في عنف ودقة وإيقاع أذهل كل من كانوا في النادي، إلى حد دفع الجالسين إلى الموائد، إلى ترك مقاعدهم، والانضمام إلى الحلقة التي أحاطت بـ «إيلين»، وإذا بها تدور في الحلبة، تصول وتجول في عنفوان وكان شيطاناً قوقازياً قد تلبسها... حتى إذا ما انتهت الرقصة، ألقت بنفسها بين ذراعيه وقد تعالي تصفيق الجميع...

كانت الآن تلهث، وكانت تتصبب عرقاً وهي تستند إلى صدر «ويليام» الذي صحبها إلى المائدة وسط إعجاب الحاضرين جميعاً، كان الشاب ممثلاً حباً وامتثاناً، لأن الأقدار أوقعته في مثل هذه الفتاة الرائعة... حتى إذا ما جلسا معاً إلى المائدة، هتف مداعباً إياها:

- هل أنت موقنة من أنك بريطانية ولست قوقازية أيتها الساحرة؟!

قال «ويليام كلارك» إنه في حقيقة الأمر لم يقصد سوى مداعبة «إيلين»... لكن الذي أدهشه حقاً، هي تلك النظرة الغربية التي أطلقت من عينيها وقد تقلصت كل ملامحها، ورشفت من كأسها رشفة سألته بعدها:

- ما الذي دفعك إلى مثل هذا القول؟!

حاول الشرطي الشاب أن يجيب، ولم يكن هناك ما يمكن قوله... ما لبث أن هز كتفيه في لا مبالاة بما يعني أنه لم يقصد شيئاً بالتحديد... ولقد تظاهرت «إيلين» بأنها تناست الأمر، وعادا إلى ما كانا فيه لكنها - أبداً - بعد تلك الليلة، لم تعد «إيلين إيستمان» التي تعرف عليها وأحبها وعاش معها طوال شهور لم يعش أسعد منها!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الرجال في موسكو بعد دراسة استمرت لأسابيع، قد اتخذوا قراراً بالموافقة على زواج «إيلين» من «ويليام كلارك»، غير أنه - قبل أن يرسلوا إليها بما استقر عليه الرأي - وصلهم منها تقرير تحكي فيه كل ما حدث في تلك الليلة... وكان السؤال الذي ألقاه «ويليام كلارك» دون قصد سبباً في إعادة الحسابات مرة أخرى!

وإذا كانت علاقة «إيلين» قد استمرت بـ «ويليام كلارك»، فإن القرار في موسكو كان حاسماً وقاطعاً!... فما هي إلا أيام حتى وصلتها برقية بالغة الاختصار، برقية تقول:

- تخلصي من كل شيء قبل انقضاء أربعة أسابيع!

كان معنى هذا أن تبيع «إيلين» البيت والمحل والسيارة.

كان معناه، أن تتركب الطائرة في طريق العودة إلى موسكو

ولقد فعلت!!

باعت كل شيء دون أن يدري مخلوق أو يشعر حتى أقرب الناس إليها... وقبل أن يتسلم المشترين المحل والبيت، كانت قد اختفت تماماً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما وصل المحققون إلى هذه النقطة، تساءل أحدهم عن مصير «إيلين»، فقال أحد زملائه وهو يحمل معطفه فوق كتفه مغادراً المكان وقد أغلقت كل الملفات:

من يدري... ربما ظهرت في مكان آخر، في قارة أخرى، باسم جديد وملامح جديدة،
كي تمارس عملها!.

(تمت بحمد الله)

الأعمال الكاملة للأستاذ صالح مرسي

(أ) من ملف المخابرات المصرية

قصص واقعية للصراع مع المخابرات الإسرائيلية

1 - الحفار.

2 - رأفت الهجان.

3 - الصعود إلى الهاوية.

4 - نساء في قطار الجاسوسية.

5 - قاتلة باردة الأعصاب.

6 - دموع في عيون وقحة.

(ب) روايات ومجموعات قصصية:

1 - زقاق السيد البلطي.

2 - الكداب.

3 - السجين.

4 - السير فوق خيوط العنكبوت.

5 - خطاب إلى رجل ميت.

(ج) من أدب البحر والرحلات:

1 - البحار مندي وقصص من البحر.

2 - رحلات السندباد البري.

(د) سيرة ذاتية:

- مذكرات كاريوكا.

متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

الفهرس..

الجاسوسية.. لماذا؟!!

1 - قاتلة باردة الأعصاب!

طراز فريد من الجواسيس..

2 - قاتلة باردة الأعصاب!

الوصول إلى كندا..

3 - قاتلة باردة الأعصاب!

شبكة مثالية للتجسس!

4 - قاتلة باردة الأعصاب!

حقيقة فرناندو كورتيز..

5 - قاتلة باردة الأعصاب!

مصراع سوانسون!

6 - قاتلة باردة الأعصاب!

محاصرة الهرهينرتيش!

7 - قاتلة باردة الأعصاب!

مبارزة بالكلمات!

8 - قاتلة باردة الأعصاب!

الإنذار!

9 - قاتلة باردة الأعصاب!

أوامر بوقف التجسس!

10 - قاتلة باردة الأعصاب!

جروتيرود تيوح بالحقيقة!

11 - قاتلة باردة الأعصاب!

السير فوق حافة الخطر!

12 - قاتلة باردة الأعصاب!

الحوار الدامي..

13 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاستعداد للقتل!

14 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تفكر في الهرب!

15 - قاتلة باردة الأعصاب!

ماذا افعل بعد ان يلفظ انفاسه؟!

16 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تخلع القناع!

17 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاغتيال ..

18 - قاتلة باردة الأعصاب!

فاتح شهية لمزيد من القتل!

19 - قاتلة باردة الأعصاب!

أسرار بلا ثمن!

20 - قاتلة باردة الأعصاب!

فتاة بالف وجه!

21 - قاتلة باردة الأعصاب!

الاستعباد العاطفي!

22 - قاتلة باردة الأعصاب!

الولاء الناقص!

23 - قاتلة باردة الأعصاب!

انتصار الرؤساء!

24 - قاتلة باردة الأعصاب!

إيلين تقع في الحب!

25 - قاتلة باردة الأعصاب!

الرقصة القوقازية!

الأعمال الكاملة للأستاذ صالح مريسي

الفهرس ..